موجز

تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي إلي سقوط غرناطة

(٩٢ - ٨٩٧ هـ / ٧١١ - ١٤٩٢ م)

دكتور

طه عبد المقصود عبد الحميد عُبيَّة

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم جامعة القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ فاتحةُ كلّ خيرٍ، وتمامُ كلّ نعمةٍ.

﴿رَبَّنَا ءَاتِـــنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾

سورة الكهف - الآية ١٠



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم صَلِّ على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وآل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وبعد:

فهذا عرضٌ موجز لتاريخ المسلمين فى الأندلس (إسبانيا والبرتغال الآن) مَنذ الفتح الإسلامى (عام ٩٢هـ / ٧١١م) حتى سقوط غرناطة (عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م) أى قرابة ثمانية قرون، وهى فترة طويلة كانت مُفْعمةً بالأحداث الجسام، وشهدت الأندلس خلالها حروباً متصلة بين المسلمين والإسبان، وثورات لا تنقطع، طلباً للملك والسلطان، ودولاً تقوم ثم تسقط، ومحاولات دائبة من "إسبانيا" النصرانية لغزو الأراضى الإسلامية انتهت بالقضاء تماماً على دولة الإسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية، وطُرِد منها المسلمون فلم يعد لهم ذكر هناك، تاركين وراءهم حضارة زاهرة لا تزال آثارها شاهدة على ما بلغته من رُقِيٍ وازدهار.

وقبل البدء فى تناول الخطوط العامة والمعالم الرئيسة للتاريخ الأندلسى – السياسى والحضارى – نرى من الضرورى أن نَلُمَّ – سريعاً – بعدد من المقدمات أو المداخل وهى:

١- مصطلح "الأندلس" ومدلوله.

٢- لمحة جغرافية عن شبه الجزيرة الإيبيرية.

٣- إسبانيا قبل الفتح الإسلامى.

٤- العهود الإسلامية التى مرت بها الأندلس.

أولاً: مصطلح الأندلس ومدلوله[1]:

تطلق كلمة "الأندلس" على الأجزاء التى سيطر عليها المسلمون فى شبه الجزيرة الإيبيرية، وظلت تطلق على ما فى أيديهم حتى عندما انحصر وجودهم فى مدينة "غرناطة" وحدها.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٣٧ – ٣٨، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٢٨، دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة للدكتور الطاهر مكى ص ٩-٢٨ ، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ج ٧ ص ٥).

وتعود كلمة "الأندلس" فى أصولها إلى كلمة "الوندال" أو "الفاندال" أو "فندالوشيا"[١] وهى تعنى مجموعة القبائل الجرمانية التى غزت "أيبيريا" – أو هاجرت إليها من سواحل بحر الشمال – فى القرن الخامس الميلادى، واستقرت فى المناطق الجنوبية منها، وأعطت اسمها إلى تلك البقاع قبل أن يطردها "القوط" من هناك إلى الشمال الإفريقى. فلما فتح المسلمون هذه المناطق أطلقوا اسم "الأندلس" على شبه الجزيرة الإيبيرية كلها بعد أن سيطروا على معظمها. وبقيت الكلمة مستخدمة حتى نهاية الحكم الإسلامى.

ولا تزال كلمة "أندولوسيا" مستعملة حتى اليوم فى "الإسبانية الحديثة"، وتطلق على ثمانى محافظات فى جنوب إسبانيا، هى: "المَرِيَّة" و"غِرناطة" و"جَيَّان" و"قُرطبة" و"مالَقَة" و"قادِش" و"وَلْبة" و"إِشْبِيلِيَّة".

ثانياً: لمحة جغرافية عن شبه الجزيرة الإيبيرية[٢]:

وشبه الجزيرة الإيبيرية (ويسميها العرب بالجزيرة[٣] أيضاً كما يسمون جزيرة العرب بالجزيرة العربية) مُخمَّسة الشكل، تصل مساحتها إلى ٦٠٠ (ستمائة) ألف كيلو متر مربع (وتحتل "إسبانيا" الحالية منها ٥/٦ هذه المساحة). وتقع فى الجنوب الغربى من أوربا وتحيط بها المياه من جميع الجهات ما عدا الجهة الشمالية الشرقية (أى من ثلاث جهات). وتسد البحر المتوسط من جهته الغربية (ويقع هو فى شرقها) حاجزة بينه وبين المحيط الأطلسى (المسمى قديما: بحر الظلمات أو البحر المحيط الرومى) الذى تطل عليه من الغرب والشمال الغربى. أما فى الجنوب فيفصلها عن البر الإفريقى ممرٌ مائى ضيق، يعرف اليوم باسم "مضيق جبل طارق" ويبلغ عرضه فى أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو مترا تقريبا.

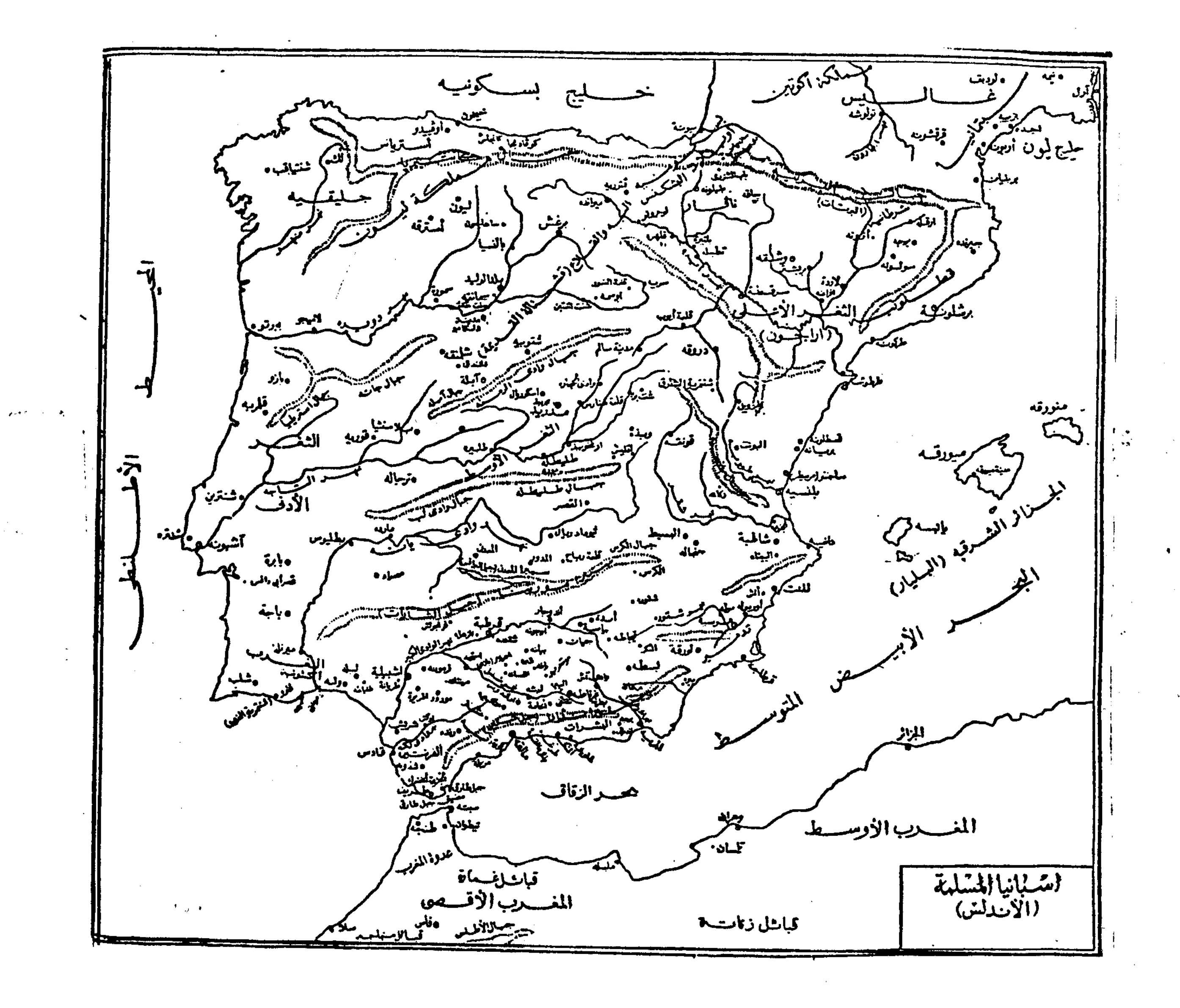


---

(١) يسميهم ابن عبد المنعم الحميرى: "الأندليش" (صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار – للحميرى – ص ٢).

(٢) لمزيد من التفاصيل عن جغرافية الأندلس راجع: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ج١ ص ١٢٥ وما بعدها. المعجب فى تاريخ أخبار المغرب للمراكشى ص ٥-٨. التاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٣٥-٣٦، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٢٩-٢٣١. وقد أفرد المقرى الباب الأول من كتابه (نفح الطيب) لوصف جزيرة الأندلس (راجع ج ١ ص ١٢٥-٢٢٨).

(٣) صنف المؤرخ والأديب الأندلسى أبو القاسم على بن بسام الشنترينى (المتوفى ٥٤٢هـ) كتابا بعنوان "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة". ينسب إلى شنترين وهى من الكور الغربية من أعمال بطليموس.


اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
خليج بسكونيه
المحيط الأطلنطي
غاليس
مملكة اكوتين
خليج ليون
جليقيه
الثغر الأعلى
(أراجون)
ميورقه
منورقه
يابسه
الجزائر الشرقية (البليار)
البحر الأبيض المتوسط
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة
برشلونة
طرطوشة
بلنسية
قرطبة
اشبيلية
طليطلة
سرقسطة
تلمسان
الجزائر
سبتة
طنجة

وشبه الجزيرة الإيبيرية هضبة متوسطة الإرتفاع، بها سلاسل جبلية كثيرة تشقها بالعرض، يتبع بعضها بعضاً، ويفصل بين كل سلسلة وأخرى وادٍ يجرى فيه نهر بالعرض أيضاً. وتَنْبُع معظم هذه الأنهار من وسط شبه الجزيرة وتصب فى المحيط الأطلسى. ومن أهمها: نهر "الوادى الكبير" الذى يمر بمدينتى قرطبة و إشبيلية، وبعده – شمالاً – نهر "وادى يانُه"، ويليه– شمالاً فى وسط الهضبة – نهر "التاجُه"، وعليه تقع مدينة طُلَيطلة.

ويفصل أوربا عن شبه الجزيرة من الشمال سلسلة جبال تغلق الطريق إلى جنوب فرنسا إلا من خلال ممرات، ويطلق عليها اسم جبال "البُرت" أو "البُرتات"، أى جبال "الأبواب"[1].

الثغور الأندلسية:

ولما فتح المسلمون شبه الجزيرة أغفلوا الزاوية الشمالية الغربية منها، فكانت نواة لإقامة ممالك (دويلات) نصرانية لعبت دوراً خطيراً فى استرداد نصارى الشمال لمدن الأندلس الواحدة بعد أخرى. ومن هنا وُجد ما يعرف بالثغور، أى المناطق الإسلامية المتاخمة على الحدود مع الممالك الإسبانية النصرانية[2]. وهى:[3]

١- الثغر الأعلى (الأقصى): وعاصمته "سَرَقُسْطة". ويواجه مملكة نبارّه (نافار).

٢- الثغر الأوسط: وعاصمته مدينة "سالم"، ثم "طليطلة". ويواجه مملكتى "قَشْتَالة" و"لِيُون".

٣- الثغر الأدنى: ويقع بين نهرى "دُوَيْرُهْ" و"تاجُه". وعاصمته "طُلَيطلة". ثم حلت محلها "قُورِية".

وتقع مملكة "لِيُون" النصرانية فى الشمال والشمال الغربى، وعاصمتها مدينة "ليون"، وتضم منطقتى "جِلِّيقِيَّة" و"أَشْتُورِيش". وتقع مملكة نبارّه (نافار) فى الشمال

---

(١) سميت الجبال بهذا الاسم – البُرتات – لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو (دولة الإسلام فى الأندلس – لمحمد عبد الله عنان ١/٥٣، ٨٢).

(٢) د. عبد الفتاح فتحى (بالاشتراك مع د. حسن على حسن): دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٨٧.

(٣) عن الثغور الأندلسية راجع: نفح الطيب ١/١٦١، ١٦٦، المقتبس فى أخبار الأندلس لابن حيان ٢/١٨. ، التاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٣٨.

والشمال الشرقى، حيث تسكن قبائل "البشكنش"، وعاصمتها "بنبلونة". وأما مملكة قشتالة فعاصمتها مدينة "برغش"، وتقع بين مملكتى "ليون" و"نباره"[1].

ثالثا: إسبانيا قبل الفتح الإسلامى:

يعتبر "الإيبيريون" أقدم من عرف من سكان إسبانيا، وهم أصل الشعب الإسبانى الذى أسهمت فى تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ. وقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية فنزلوا بها وأقاموا فى بعض أقاليمها، وأسسوا مدنا لا يزال بعضها قائما إلى اليوم، مثل مدينة "قادس" على الساحل الجنوبى الغربى، وكان ذلك فى القرن العاشر أو الحادى عشر قبل الميلاد، ثم وفد الإغريق (اليونان) على شبه الجزيرة فى القرن السابع قبل الميلاد، وأقاموا فى بعض جهاتها، وخاصة الجهات الشرقية، وأطلقوا على سواحلها اسم "أيبيريا"، وأنشأوا بعض المدن مثل مدينة "برشلونة" على الساحل الشمالى الشرقى. ثم خضعت شبه الجزيرة للقرطاجنيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وأسسوا بها مدنا مثل مدينة "قرطاجنة" اتخذوها حاضرة لهم، وقد سموها باسم دولتهم فى شمال إفريقيا.

وفى عام (٢٠٥ ق.م) غزا الرومان شبه الجزيرة، وتغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها، وأصبحت أيبيريا – أو "إباريا" حسب التسمية العربية[2] – إقليما رومانيا. وقد صبغ الحكم الرومانى تلك البلاد بصبغته فى ميادين العمران والنظم والقانون، وكان من أهم آثاره التى ظلت حتى الفتح الإسلامى: اللغة الرومانية والدين المسيحى، برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المسلمون[3].

ثم ضعفت الدولة الرومانية الغربية واجتاحتها قبائل جرمانية فى موجات متتابعة، حتى استقر بها القوط الغربيون فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وهؤلاء امتد نفوذهم إلى شبه الجزيرة الإيبرية فى أوائل القرن الخامس بعد أن طردوا منها "الوندال" إحدى القبائل

---

(١) أندلسيات، للدكتور عبد الرحمن الحجى ج ٢ ص ٣٩. وراجع الخريطة (ص ٨٦). وسيأتى مزيد من البيان عن الممالك النصرانية التى نشأت فى شمال شبه الجزيرة (ص ٨٥-٨٦).

(٢) صفة جزيرة الأندلس ص ٢ (منتخبة من كتاب: الروض المعطار فى خبر الأقطار – للحميرى) نشره ليفى بروفنسال.

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٥١، الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ٢١-٢٢.

الجرمانية الذين اتجهوا إلى احتلال الشمال الإفريقى، ثم طُردوا منها على يد الرومان سنة ٥٣٤م.

وقد اختار القوط لهم عاصمة داخلية يتمكنون فيها من بسط نفوذهم على سائر أنحاء البلاد، فاختاروا "ماردة" بادئ ذى بدء (سنة ٥٤٩-٥٥٤م)، وتقع فى الجنوب، ثم عدلوا عنها إلى "طليطلة" فى الشمال وسموها "المدينة الملكية"[١].

كانت اللغة السائدة فى العهد القوطى هى اللغة الرومانية (اللاتينية)، وكان القوط قد اعتنقوا المسيحية التى سبقتهم إلى إسبانيا منذ العهد الرومانى، إلا أنهم كانوا على المذهب "الأريوسى" الذى يقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح، فى حين أن رعاياهم كانوا على المذهب الكاثوليكى الذى يقول بالطبيعتين، وبين المذهبين من خلاف ما بين دين ودين. ونتيجة لذلك وقع عداء شديد بين القوط ورعاياهم، ثم تحول القوط إلى المذهب الكاثوليكى فى عهد الملك القوطى "ريكا ردو" (٥٨٦-٦٠١م) فكان ذلك سبباً فى المصالحة بين القوط والرعية وتحسنت الأحوال، وتمكن القوط من السير بدفة الأمور فترة من الزمن، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم، لا سيما فى الثلاثين سنة الأخيرة (قبل الفتح الإسلامى) إلى الحد الذى جعل المستشرق الفرنسى (ليفى بروفنسال) يطلق عليها وصف "السنوات العجاف" بالنسبة لما يُعرف من تاريخ إسبانيا القوطية، حيث كانت هذه السنوات مشحونة بالفوضى والاضطرابات، وأصاب المدن اضمحلال عام نتيجة لاضطراب أمور الدولة وعدم الإحساس بالأمن، وسوء الأحوال المعيشية وسياسة الاستغلال. ويرجع السبب فى شمول البلاد بالفوضى والاضطراب إلى كثرة المنازعات والصراع بين الطبقات والحاكمين، وفيما بين الحاكمين القوط أنفسهم، إضافة إلى تفكك المجتمع الإسبانى وقيامه على الطبقات المتحاجزة فيما بينها[٢]. وأهم هذه الطبقات:

١- طبقة النبلاء. وكانت تضم سلالة القوط الحاكمين (ويسمون السادة) والنبلاء الرومان.

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس ص ٨، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٥٢، ٥٣ ، ٥٤.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٥٧، ٦٢ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٣٣، الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة – للدكتور أحمد هيكل ص ٢٣، التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٢٩.



٢- طبقة رجال الكنيسة، وكان لهم كثرة عددية وثروة مادية، وتمتعوا بنفوذ سياسى وسلطان روحى كبير.

٣- طبقة التجار والزراع والملاك الصغار، وتعرف بطبقة الأحرار غير المميزين، وكانوا يتحملون الضرائب ويقع على عاتقهم عبء كبير من الالتزامات والمغارم.

٤- طبقة عبيد الأرض. وكان عددهم كبيرا للغاية، إذ كان الأغنياء والنبلاء يمتلكون منهم الآلاف، ويسيئون معاملتهم، ولم يكن لهم حقوق يمكنهم المطالبة بها.

وبجانب هذه الطبقات وجد اليهود، وهى طبقة كبيرة من حيث العدد، وكانوا يسيطرون فى إسبانيا القوطية على الحياة الاقتصادية، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل. وقد لاقوا ألوانا من الجور والتعسف، وصدرت ضدهم عدد من التشريعات كالتى تحرم عليهم الزواج من المسيحيات، أو اقتناء عبيد مسيحيين، وإجبارهم – أحيانا – على اعتناق المسيحية، ومصادرة أموالهم، ونزع أملاكهم[1].

وقبل الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش – ويدعى "رودريك Rodrigo" (ويعربه العرب إلى "لُذْريق") بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك "غيطشة" (Witiza)، وأصبح هو الحاكم الفعلى للبلاد، واتبع سياسة ظالمة، وتغيرت قلوب الناس عليه، واشتعلت ضده نيران الثورات فى طليطلة وغيرها، يقودها أتباع الملك السابق وأفراد أسرته، حيث كانوا يتحينون الفرصة لاستعادة ملكهم، وقد وجدوها فى الفتح الإسلامى فلجأوا إلى المسلمين للاستعانة بهم، وسيأتى ذكر ذلك عند الحديث عن مراحل الفتح.

وهكذا كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامى تشكو الفشل السياسى والتأخر الاقتصادي، والتفكك الاجتماعى، والظلم الطبقى ((لكن هذا لا يعنى أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعنى إنعدام قوتها السياسية والعسكرية، بل كان بإمكانها أن تصد جيشا مهاجما وتحاربه وتقف فى وجهه))[2]. ومهما يكن من أمر

---

(١) لمعرفة المزيد عن طبقات المجتمع القوطى راجع: المسلمون فى الأندلس، للمستشرق دوزى (ترجمة د. حسن حبشى) ج ١ ص ٢٧-٤٠ ، دولة الإسلام فى الأندلس، لمحمد عبد الله عنان ١/ ٣٠ – ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٦٢ – ٦٣.

(٢) د. عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ص ٣٠-٣١. وراجع فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٦٨.

فإن هذه السلطة – ولا غيرها – لم تكن قادرة على الوقوف أمام أناس أخلصوا لعقيدتهم وافتدوها بأنفسهم، ولم يبخلوا بشئ من أجلها. هؤلاء هم الجيوش الإسلامية الذين قدموا لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية.

رابعاً: العهود الإسلامية التى مرت بها الأندلس:

استقر حكم الإسلام فى شبه الجزيرة الأيبيرية ثمانية قرون كما ذكرنا. وقد مرت الأندلس فى هذه القرون بعدة عهود، تقلبت خلالها بين القوة والضعف، والنصر والهزيمة، وكان لكل عهد منها طابع مميّز. ويمكن إجمالها على النحو التالى:

١- الفتح الإسلامى للأندلس. استمر حوالى أربع سنوات (٩٢-٩٥هـ/٧١١-٧١٤م).

٢- عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٤-٧٥٥م). استمر حوالى (٤٢) سنة، وحكم الأندلس فى هذا العهد عشرون والياً تقريباً، كانوا تابعين للخلافة فى دمشق مباشرة، أو بواسطة "ولاية" الشمال الإفريقى (إفريقية والمغرب). ويعتبر البعض أن مدة الفتح داخلة فى عهد الولاة.

٣- عهد الإمارة الأموية (١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٩م). ويبدأ منذ مجئ عبد الرحمن (الداخل) إلى الأندلس، وتأسيسه إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت مائة وثمان وسبعين سنة. وينتهى هذا العهد بإعلان الخلافة فى فترة حكم الأمير عبد الرحمن الناصر (= عبد الرحمن الثالث) سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م.

٤- عهد الخلافة (٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٩-١٠٣١م). ويمكن تقسيم هذا العهد إلى ثلاث فترات رئيسية:

الأولى: فترة حكم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) وولده: الحكَم المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م)، وذلك إذا استثنينا ست عشرة سنة، أى من بداية حكم الناصر سنة (٣٠٠هـ)، إلى سنة (٣١٦هـ)، وهى السنة التى أعلن فيها الخلافة الأموية بالأندلس.

الثانية: فترة حكم بنى عامر (الدولة العامرية) – (٣٦٨-٣٩٩هـ/٩٧٨-١٠٠٩م).

الثالثة: فترة سقوط الخلافة الأموية (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م).



٥- عهد الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩١م). وهو عهد دول (أو ملوك) الطوائف الذى سبقته أعوام من الفوضى. وقد استمر هذا العهد حوالى ستيين عاماً، أو قرابة ثلاثة أرباع القرن على اعتبار أن فترة الفوضى التى سبقته داخلة فيه. وينتهى بدخول الأندلس تحت سلطان المرابطين.

٦- عهد المرابطين (٤٨٤-٥٣٩هـ/١٠٩١-١١٤٤م).

٧- عهد الموحدين (٥٣٩-٦٢٠هـ/١١٤٤-١٢٢٣م).

- ويمكن اعتبار العهدين عهداً واحداً.

٨- مملكة غرناطة = عصر دولة بنى نصر (أو: بنى الأحمر) فى غرناطة (٦٢٩-٨٩٧هـ/١٢٣٢-١٤٩٢م). حيث استمرت هذه الدولة ما يزيد على قرنين ونصف، حتى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى). ويمثل سقوطها نهاية الحكم الإسلامى للأندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسى منها. وتبقى ملايين عديدة من المسلمين بعد ذلك التاريخ عشرات السنين، تحملوا خلالها الكثير من أصناف الاضطهاد وعمليات الإفناء، وكادت تأتى على كل ما خلّفه المسلمون من إنتاج حضارى رفيع شمل مختلف الميادين. وهؤلاء عُرفوا فى التاريخ باسم "الموريسكيين" أو "الأندلسيين المواركة".

والآن – وبعد أن فرغنا من ذكر هذه المقدمات (أو المداخل) الضرورية – نبدأ فى عرض التاريخ الأندلسى حسب التقسيم المذكور آنفاً.





الفصل الأول

الفتح الإسلامي للأندلس (٩٢-٩٥هـ / ٧١١ - ٧١٤م)

أسباب الفتح :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على بلاد المغرب ،واستقرت بتلك العدوة التى لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق ،وذلك بعد جهاد طويل استمر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥ م). وبعد أن أرسى "موسى بن نُصَيْر" – ومن معه من القادة – دعائم الحكم الإسلامى فى الشمال الإفريقي كانت الخطوة التالية هى فتح شبه الجزيرة الأيبيرية ،وكان ذلك أمراً طبيعياً ومتوقعاً ويسير فى إطار الهدف الذى اتبعه المسلمون فى جميع فتوحاتهم ،وهو نشر دعوتهم وتأمين حدودهم... ومن ثمَّ يمكن القول: إن من أهم أسباب فتح شبة الجزيرة الأيبيرية ما يلى:

١- نشر الإسلام والتعريف بعقيدته وشريعته الغراء فى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق.

٢- تأمين بلاد المغرب من هجمات " القُوط " حكام شبه الجزيرة. ((وقد عرف موسى بن نصير – هذا القائد الخبير – أن القطر الإفريقي الجديد الذى آل إلى المسلمين يكون مع إسبانيا وحدة جغرافية متماسكة الأطراف ،وأن الأوضاع الطبيعية والملابسات التاريخية تحتم على القوة التى تبغى لنفسها السلامة والطمأنينة فى شمال إفريقيا ألا تغض الطرف عن إسبانيا))[1].

٣- وما من شك فى أن سوء الأوضاع الداخلية فى شبه الجزيرة – على نحو ما ذكرنا من قبل – كان من الدوافع التى مهدت الطريق أمام المسلمين لفتح هذه البلاد.

---

(١) د. إبراهيم العدوى: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص ٦٣ (دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٧٦م سلسلة أعلام العرب رقم ٦٨).

مقدمات الفتح:

بعد أن اغتصب "لذريق" عرش إسبانيا أمعن في مطـــاردة أفــراد بيــت الملـــك "غيطشه" وتتبع أنصاره بالأذى، ففروا من إسبانيا والتمسوا سبل النجاة، إما إلـــى أقصـــى الشمال ،أو إلى مدينة "سبتة" وهي ولاية إفريقية تابعة للقوط ،وكانت حصنـــا منيعـــا مـــن الحصون الإفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد، كما كانت ثغرا له قيمته علـــى مضيـــق جبل طارق. ويبدو أن حاكم "سَبْتَة" آنذاك – ويدعى " يُلْيان " (JULIAN) – كـــان مـــن أنصار الملك "غيطشة" وأنه كان يدين له بالولاء .ويقال : إنه كان يمت بصلـــة القرابـــة والنسب إلى أسرة الملك فلما انتزع "لذريق" عرش إسبانيا من أصحابه عمـــد "يوليـــان" – بمعاونة أنصار الملك المخلوع وأقربائه – إلى اســـترجاع ملكـــهم، مســـتعينا فـــي ذلـــك بالمسلمين الذين دانت لهم بلاد الشمال الإفريقي، وكان ذلك مقدمة الفتح.

وتتفق المصادر العربية على أن " يُلْيان " توجه بنفسه إلى طارق بن زيـــاد قـــائد القوات الإسلامية المعسكرة عند مدينة " طَنْجة " بالمغرب الأقصى – والقريبة من مدينـــة "سبتة " – يعرض عليه أن يساعده في دخول الأندلس. ولم يتردد طارق في الاتصال فورا بموسى بن نصير – وكان مقيما في القيروان – فأبلغه ما كان من أمر " يُلْيان " ورحـــب بما عرضه عليه[1].

كان موسى بن نصير متلهفا على افتتاح الأندلس ،لكنه لم يشأ أن يقحم المســـلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله ،ولم يكن قد وثق بعد بيليان ،ثم إنه لا يستطيع أن يقبـــل على هذا العمل العسكري الكبير دون أن يستأذن الخليفة أو يستشيره فيما هو مقبل عليـــه. وهذا ما حدث بالفعل؛ فكتب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ((يخبره بالذي دعـــاه إليه يليان من أمر الأندلس، ويستأذنه في اقتحامها . فكتب إليه الوليد أن خضها بالســـرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه (موســـى) أنه ليس ببحر زخار، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه. فكتب إليه: وإن كان، فلابـــد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه))[2].

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٥ (ط الهيئة العامة لقصور الثقافـــة – سلســـلة الذخـــائر) ،ابـــن القوطية:تاريخ افتتاح الأندلس ص٨ (ط بيروت ١٩٥٨م) .ابن عذاري: البيان المغـــرب فـــي أخبـــار الأندلـــس والمغرب ج٢ ص٦. نفح الطيب للمقري ١/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١ ، ٢٥٢-٢٥٤.

(٢) نفح الطيب ج١ ص٢٥٣ ،البيان المغرب ج٢ ص٥ ،أخبار مجموعة ص ٥-٦.

لقد ترددت الخلافة – بادئ الأمر – بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفا على المسلمين من المخاطرة فى مفاوز، أو إيقاعهم فى مهالك. لكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا، أو الحملات الاستطلاعية.

عمل موسى بن نصير بهذه النصيحة، وأرسل فى رمضان (سنة ٩١هـ/٧١١هـ) سرية استكشافية مكونة من خمسمائة جندى – فيهم مائة فارس – بقيادة "طريف بن مالك " الملقب بأبى زُرْعة، وهو مسلم بربرى، ويقال إنه من أصل عربى ينتسب إلى قبيلة "مُعافر " أو " نخع " اليمنية[١]. وقد عبر هذا الجيش الزقاق (مضيق جبل طارق) من سبتة، بسفن " يليان " أو بسفن غيره، ونزل فى جزيرة تعرف باسم " بالُوما " (PALOMAS) التى عرفت فيما بعد باسم " جزيرة طَرِيف ". وعادت هذه الحملة بالغنائم الوفيرة ،وبالأخبار المشجعة على الاستمرار فى عملية الفتح[٢].

وقبل الحديث عن الخطوة التالية فى فتح الأندلس نشير هنا إلى ملاحظتين:

الأولى : كانت فكرة فتح شبه الجزيرة الإيبيرية فكرة إسلامية خالصة . بل ويروى أنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان[٣]. وكان القائد عقبه بن نافع الفهرى (٦٣هـ) يفكر فى اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع[٤]. ويذكر الذهبى أن موسى بن نصير جهز ولده عبد الله، فافتتح جزيرتى " مَيُورقة " و"مَنُورقة" وهما من الجزر القريبة من شواطئ إسبانيا الشرقية، وكان ذلك سنة ٨٩هـ[٥]، أى قبل الفتح بعامين تقريبا. أما الاتصال بيليان – حاكم سبتة – أو بغيره من الإسبان فإنه جاء مواتيا – على ما يبدو – فى الوقت الذى كان موسى بن نصير يفكر فى تنفيذ فكرة الفتح. ومن هنا يمكن القول : إن اتصالات الجانب الإسبانى بموسى ومساعداتهم ربما كانت عاملا مساعدا سهل سير الفتح أو عجل به . لكن المبادأة ومرد العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامى الذى اندفع مع الفتح بقوة فائقة مرتكزاً على عقيدته[٦].

---

(١) نفح الطيب ٢٣٣/١ ، ٢٥٤ ، صفة جزيرة الأندلس(من الروض المعطار للحميرى) ص٨.

(٢) راجع نفح الطيب ٢٥٣/١، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٤٠/١ ،تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص٧٠ ،التاريخ الأندلسى للحجى ص ٤٥-٤٦.

(٣) البيان المغرب ج٢ ص٤ ،نفح الطيب ٢٠٤/١-٢٠٥.

(٤) البيان المغرب ج١ ص٢٦.

(٥) الذهبى : العبر فى خبر من غبر ج١ ص١٠٤ (ط الكويت)

(٦) راجع : التاريخ الأندلسى للحجى ص٤٤-٤٥.

والثانية : لقد اعتقد " يليان " – وأتباعه – أن الاتصال بالمسلمين فى التخلص من "لذريق" الحاكم المستبد لا يزيد على الاستعانة بهم فى إنزال ضربة قاصمة بالقوط ،ثم يعودون إلى حدودهم ببلاد المغرب محملين بالغنائم، وغاب عنهم أن المسلمين حملة رسالة سامية، وأنهم مكلفون بتبليغها لكل الناس، وأن ما يشغلهم قبل كل شئ هو نشر مبادئ دينهم السمحة وتعريف الشعوب بها.

مراحل الفتح :

ويطول المقام لو أردنا أن نتتبع – فى هذا المختصر – مراحل الفتح الإسلامى بكل تفاصيلها، لكن حسبنا أن نجمع هذه التفاصيل فى النقاط التالية:

أولا : عبور طارق بن زياد بقواته إلى الأندلس:

اطمأن موسى بن نصير إلى النتائج التى حققتها الحملة الإستطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وزادت رغبته فى الفتح، واشتد عزمه وتلهفه على السير فى هذه المغامرة، فأعد حملة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندى وجلهم من المسلمين البربر، وأمر عليهم قائدا من قواده المشهورين بحسن القيادة والكفاءة وقوة الإخلاص، هو مولاه " طارق بن زياد " وهو – فى أصح الآراء – بربرى من قبيلة " نفزة "[1].

ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده للحملة مكونا كله من البربر باستثناء عدد قليل من العرب (لا يزيد على الثلاثمائة). وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الفتوح الإسلامية يتولى فيها جيش كامل من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس . ويدل هذا على أن بربر المغرب قد حسن إسلامهم، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التى اعتمد عليها موسى بن نصير فى فتح الأندلس عسكريا. ويبدوا أن البربر كانوا أكثر معرفة من العرب ببلاد الأندلس، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية فى آن واحد[2].

عبر طارق بن زياد بجيشه من "سبتة" – أو من "طنجة" – إلى الطرف الآخر من المضيق فى الخامس من شهر رجب – أو فى شعبان – (عام ٩٢هـ/٧١١م)، فى السفن الأربعة التى كانت ملكا ليليان ووضعها فى خدمة المسلمين[3]. وذكر المؤرخ ابن عذارى

---

(١) البيان المغرب ج١ ص٤٣، ج٢ ص٥، نفح الطيب ٢٥٤/١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٧١.

(٣) أخبار مجموعة ص٦.

أن "يليان كان "يحمل أصحاب طارق فى مراكب التجار التى تختلف إلـى الأندلـس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل الناس فوجـا بعـد فوج إلى الأندلس[١]. ولا شك أن موسى استعان فى العبور ببعض قطـع مـن أسـطوله الإسلامى الذى أنتجته دار الصناعة بتونس[٢]، والقول بأن القيام بعملية فتح إقليم كبير مثـل الأندلس يمكن أن يفى بحاجته استعارة سفن قول بعيد، فمن الراجـح تمامـا أنـه كـانت للمسلمين سفنهم، استعملها جيشهم فى هذا الفتح[٣].

تجمع الجيش الإسلامى – بعد العبور – عند جبل " كالبى "(CALPE) الذى عرف فيما بعد باسم " جبل طارق "، وأقام طارق بتلك المنطقة عدة أيام بنى خلالها سورا أحـاط بجيوشه سماه " سور العرب "[٤]، وأقام قاعدة حربية بجوار الجبل على السـاحل لحمايـة الجيش من الخلف فى حالة الانسحاب، فى موضع يقابل "الجزيرة الخضراء" وعليه أقيمـت هذه المدينة فيما بعد. ((وهذا الميناء يسهل اتصاله بميناء "سـبتة" المغربـى، علـى حيـن يصعب اتصاله بإسبانيا لوجود مرتفعات بينهما))[٥]. ولم يمض وقت طويل حتـى اشـتبك الجيش الإسلامى مع قوات القوط فى عدة معارك بالقرب من "الجزيرة الخضراء" انتصـر فيها المسلمون. يقول الرازى – وهو من كبار المؤرخين الأندلسيين – ((لما بلغ لذريق خبر طارق ومن معه ومكانهم الذى هم فيه بعث إليهم الجيوش، جيشا بعد جيش. وكان قد قـود على أحدهم ابن أخت له يسمى (يَنّج) وكان أكبر رجاله، فكانوا عند كل لقـاء يُـهزمون ويُقتلون، وقُتِل (يَنّج) وهُزِم عسكره، فقوى المسلمون، وركب الرجّالة الخيل، وانتشـروا بناحيتهم التى جازوا بها[٦].

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص٦.

(٢) هى دار الصناعة التى أقامها حسان بن النعمان لصناعة السفن اللازمة لمدافعة الروم فى البر والبحر والإغـارة على بلادهم.وبهذه السفن بعث موسى بن نصير قائده (عياش بن أخيل) إلى صقلية فغزاهـا (تـاريخ المسـلمين وآثارهم فى الأندلس ص٧٢ ،وراجع : البيان المغرب ج١ ص٤٢).

(٣) راجع : التاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص٤٧-٤٩.

(٤) البيان المغرب ٩/٢ ،نفح الطيب ٢١٨/١.

(٥) المسلمون فى الأندلس – للدكتور عبد الله جمال الدين ص٧. وذكر الحميرى أن مرسى الجزيرة أيسر المراسـى للجواز وأقربها من بر العدوة ،ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (الروض المعطـار فـى خـبر الأقطـار للحمـيرى ص٧٤).

(٦) البيان المغرب ج٢ ص٨.

ثانيا : معركة وادى بَرْباط (أو : وادى لَكُّه):الفاصلة :

وبينما كان لُذَريق مشغولاً بإخماد بعض الثورات فى "بَنْبلُونة " – فى الشمال – جاءه الخبر بمجيء الجيوش الإسلامية وانتصارهم على قواته فى عدد من المعارك، فهاله ما حدث، وأصيب بهلع ورعب شديدين، وكرَّ راجعاً إلى طليطلة، وبدأ يعبأ جيشه للقاء المسلمين. ويذكر المؤرخون أنه جمع مائة ألف مقاتل. وقيل سبعين ألفا[1]. وقد وصلت أنباء تلك الحشود إلى طارق بن زياد، فكتب إلى موسى بن نصير يستمده، فأمده بخمسة آلاف جندى، على رأسهم "طريف بن مالك " وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة الجيش الإسلامى اثني عشر ألفا[2].

وقد واصل طارق بن زياد السير بجيوشه ومشى فى محاذاة الساحل، وأقام معسكره فى منطقة سهلية واسعة فى كورة " شَذُونة " جنوب غرب إسبانيا بالقرب من نهر " برباط " ووادى "لَكُّه" الذى يصب فى المحيط عند مدينة "قادِش" الساحلية[3]. وفى هذه المنطقة تم اللقاء بين الجيش الإسلامى والجيش القوطى، ودارت معركة هائلة استمرت ثمانية أيام (من الأحد ٢٨ رمضان – إلى الأحد الخامس من شوال /١٩-٢٦ يوليو ٧١١م)، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، بعد أن اقتتل الطرفان ((اقتتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء))، وتبع المسلون فلول القوط بالقتل والأسر، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام[4] . وقد اختلفت الروايات فى شأن مصير " لُذَريق "، فقيل : إنه قتل غريقا فى "وادى لكه ". ويذكر البعض أنه فر من الميدان والتقى بالمسلمين فى معركة أخرى شمال إسبانيا فى ولاية شَلَمَنْقَة وقُتل فيها، وهذا الرأى الأخير ضعيف، لا تدعمه الأدلة[5].

---

(١) أخبار مجموعة ص٧ ،نفح الطيب ٢٣٣/١، ٢٥٥-٢٥٧ ، دولة الإسلام فى الأندلس ٤٢/١. ويذكر الحميرى أن لذريق جمع ستمائة ألف فارس (الروض المعطار ص١٠) وهذه مبالغة واضحة (وراجع : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص٧٥).

(٢) أخبار مجموعة ص٧ ،نفح الطيب ٢٥٧/١.

(٣) التاريخ الأندلسى للحجى ص٥٦. ويطلق ابن عذارى على " وادى لكه " اسم "وادى الطين " (البيان المغرب ٧/٢) ويبدو أنه سمى كذلك لقلة مياهه وكثرة طينه. ويسميه ابن عبد الحكم " وادى أم حكيم " (فتوح مصر والمغرب ص٢٠٦) . وراجع : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٧٩ ،المسلمون فى الأندلس ص٨).

(٤) البيان المغرب ٧/٢-٨ ،فتوح مصر والمغرب ص٢٠٦-٢٠٧ ،نفح الطيب ٢٥٩/١ .

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٨٠، ص ٩٧-٩٩ معالم تاريخ الأندلس لحسين مؤنس ص٢٣٨، التاريخ الأندلسى للحجى ص٥٧. دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للدكتور أحمد مختار العبادى ص٣٤.

مواقع معركة وادي لكة
وخط سير طارق

البحر الأبيض المتوسط

أسبانيا

مربلة

اشتبونة

جبل طارق

الجزيرة الخضراء

مضيق جبل طارق

طريف

بحيرة خندة

شذونة

قادس

شريش

رأس طرف الغار

سبتة

طنجة

وتُعدُّ معركة " وادى لَكَّه " معركة فاصلة، توقف عليها مصير إسبانيا في يد المسلمين، بحيث يمكن القول ((إن جميع المعارك التى حدثت بعد ذلك فى بقية أنحاء شبه الجزيرة كانت بمثابة مناوشات بسيطة – وإن كان بعضها مهماً وقويًا – إذا قورنت بهذه المعركة الفاصلة، ولم يستغرق استيلاء المسلمين على إسبانيا بعد ذلك – رغم وعورة مسالكها وقسوة مناخها – أكثر من ثلاث سنوات، وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد ضعفت تقريبا))[1].

ثالثا : الاتجاه نحو الشمال وفَتْح طليطلة عاصمة القوط :

وبعد هذا النصر العظيم الذى حققه طارق بن زياد وجنده كان لابد أن يجنى ثماره قبل أن تتجمع فلول القوط مرة أخرى، فزحف إلى الشمال نحو مدينة " شَذُونة " وفتحها عنوة بعد حصار شديد، ومضى إلى " مُوْرُور " وافتتحها، ثم عطف على "قرمونة" ثم تقدم إلى "إشبيلية" فصالحه أهلها على الجزية، ومنها زحف على " إِسْتِجَّة " حيث دارت معركة حامية هزم فيها الجيش القوطى وافتتحت المدينة، ((ولم يلق المسلمون فيما بعد حربا مثلها..، وقذف الله الرعب فى قلوب المشركين، وسُقِط فى أيديهم، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة))[2].

وقد وجه طارق من " إستجة " سرايا وبعوثا من جنده إلى عدة جهات، فبعث "مغيثا الرومى" – فى سبعمائة فارس – لفتح مدينة " قرطبة "، فافتتحها دون مشقة كبيرة. وأرسل جيشا آخر إلى " مَالَقة "، وثالثا إلى كورة " إِلبيرة "، حيث افتتح مدينتها "غِرناطة"، عنوة[3].

أما طارق فقد سار بمعظم أجناده إلى كورة " جيان " فى طريقه إلى "طُلَيطلة" قبل أن يتدارك القوط الأمر، ويُحكموا الدفاع عنها، فدخلها سنة ٩٣هـ دون مقاومة تذكر فوجدها خالية ((ليس فيها إلا اليهود فى قوم قلة))[4] وقد فر منها حاكمها مع أصحابه من كبار القوط والقساوسة – فى اتجاه شمال شرقى – حاملين معهم ذخائر الكنيسة، فترك طارق فرقة من جنوده فى "طليطلة" ومضى يطارد الفارين فى الطريق الذى يسميه

(١) العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص٣٥.

(٢) نفح الطيب ٢٦٠/١ ،البيان المغرب ٨/٢-٩ بتصرف. وراجع التاريخ الأندلسى للحجى ص٦٣-٦٤.

(٣) نفح الطيب ٢٦٠/١-٢٦٤ ،الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ١٠١/١ ،البيان المغرب ٩/٢-١١.

(٤) البيان المغرب ١٢/٢.

العرب "وادى الحجارة " وعند بلدة صغيرة تسمى " الكـالا دى هنـارس " – (ويسـميها العرب " قلعة عبد السلام " وتسمى أيضا بمدينـة "المـائدة "[١]) أدرك المسـلمون فيـها الهاربين من طليطلة، وغنموا ما كانوا معهم من نخائر بالغة القيمة، ومن بينـها "مذبـح الكنيسة " الذى سموه مائدة سليمان، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بنبى الله سـليمان عليـه السلام، وإنما كانت منضدة فاخرة مصنوعة من الذهب، ومزينة بالجواهر، وتوضـع فـى صدر الكنيسة لأغراض الصلاة، وقد حملها القساوسة عند فرارهم من طليطلة خشـية أن تقع فى أيدى المسلمين لنفاستها وقداستها[٢].

لم يتجاوز طارق بن زياد المنطقة التى وصل إليها، فلربما ((خشى أن يقطع عليـه العدو الطريق فى هذه البلاد الجبلية الوعرة، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قـد اقـترب، وتعب المسلمون من الجهد الذى بذلوه، وثقلوا بالغنائم التى جمعوها))[٣] فعاد إلى "طليطلـة" فى أوائل ٩٣ هـ (أواخر ٧١١). وقيل: إنه لم يرجع، بل اقتحم أرض "جليقية"، واخترقـها حتى انتهى إلى مدينة "أسترقة"، ثم قفل راجعا إلى طليطلة[٤].

وإذا أردنا أن نحدد خط سير طارق بن زياد منذ عبوره المضيق إلى أن اسـتقر فى طليطلة فهو كالآتى:

١- سبتة (فى البر الإفريقى).

٢- عبور المجاز (المضيق).

٣- النزول عند الجبل الذى عرف بجبل طارق.

٤- وادى بربـاط / أو "وادى لكـه" حيـث وقعـت المعركـة الفاصلـة فـى رمضان - شوال - ٩٢ هـ .

٥- مدينة شذونة. ٦- مورو ٧ - قرمونة ٨- إشبيلية

---

(١) تبعد قلعة "هنارس" – التى كانت تعرف بقلعة عبد السلام أو "المائدة" – تبعد عن مدريد (٣٤) كم شمالا (راجـع: رحلة الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٣٥ – ٣٣٦ ، مدريد العربية ، للدكتور محمود على مكى ص ٤١).

(٢) البيان المغرب ١٢/٢ فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧ ، نفح الطيب ١٦١/١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢، تاريخ المسـلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٨٣ – ٨٤ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦- ٢٣٧ ، المسلمون فى الأندلـس ص٩ ، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٦٥-٦٦.

(٣) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص٣٦.

(٤) نفح الطيب ٢٦٥/١ ، الروض المعطار ١٧٩.

٩- إِسْتِجَّة، ومنها سارت البعوث إلى:

أ- قرطبة. ب- مالقة. ج- غِرناطة (فى كورة إلبيرة).

١٠-جَيَّان. ١١- طُلَيْطلة.

١٢-منطقة وادى الحجارة (مدينة المائدة = قلعة عبد السلام =قلعة نهر هنارس).

١٣-العودة إلى طليطلة.

رابعا:عبور موسى بن نصير إلى الأندلس واستكمال الفتح:

كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير يحيطه بأنباء الفتح وما أحرزه من نجاح، ويطلب منه المدد. وعلى الفور قرر موسى التوجه إلى الأندلس، وأصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح حتى يلحق به. وهنا اختلفت أقوال المؤرخين فى تعليل البواعث التي حملت موسى على العبور إلى الأندلس وإصدار أوامره بوقف العمليات العسكرية. والراجح من هذه الأقوال وما عليه أكثر المؤرخين القدامى والمحدثين هو أن طارق بن زياد خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يتعدى قرطبة أو حيث تقع الهزيمة بالقوط[1] وتوغل - بسرعة غير متوقعة إلى داخل البلاد دون نظر إلى العواقب، ومن ثَمَّ تخوَّف موسى بن نصير على جيش المسلمين من الترامى إلى هذا البعد فى بلاد فسيحة ومسالك مجهولة، فجاء قراره بالعبور تعزيزاً للجيش الإسلامى وسداً لمحاولات قطع الطرق عليه، وأَخْذاً فى الحيطة، وإتماما للفتح[2].

أما ما يروى من أن موسى بن نصير كان يضمر لقائده شراً، مدفوعاً إلى ذلك بعوامل الغيرة والحسد، وأنه - حينما التقى به فى طليطلة - أهانه وبالغ فى إساءته وضربه بالسياط وحبسه[3] فمُغالَى فيه، وليس له واقع تاريخى ولا تسمح بقبوله مجريات الأحداث، ولا يصدر مثل ذلك من تابعى جليل وفاتح عظيم كموسى بن نصير. ثم إن طارق بن زياد كان مولى لموسى، يعمل بأوامره ويمتثل لما يصدره إليه، وإذا كان حدث

---

(١) البيان المغرب ١٣/٢.

(٢) التاريخ الأندلسى للحجى ص٨٧، معالم تاريخ الأندلس، لحسين مؤنس ص٢٣٧، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٥٢/١ .

(٣) فتوح مصر والمغرب ص ٢١٠، أخبار مجموعة(المؤلف مجهول) ص١٥،تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٩، العبر لابن خلدون ١١٧/٤، نفح الطيب للمقرى ٢٣٣/١، ٢٤٢-٢٤٣، ٢٦٩ جذوة المقتبس للحميدى ص٢٤٨(ترجمة طارق بن زياد)

شئ فلا يعدو أن يكون موسى قد عتب على قائده: ((ما دعاك إلى الإيغـــال والتقحـــم فـــى البلاد بغير أمرى؟))[1]. فما كان من طارق إلا أن اعتذر إليــــه بخطتـــه العسـكرية أمـــام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، فقبل موسى عذره، وســـــارا – بعـــده – سويا إخوة مجاهدين يستكملون الفتح، وينشرون دين الله، ويعلون كلمته، ويبلغون النــــاس شريعته[2].

١- عبر موسى بن نصير الزقاق فى رمضان - وقيل فى رجب - (سنة٩٣هـ/ ٧١٢م) على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً، معظمهم من العرب، فيهم صحابى واحـد هو "المنيذر الإفريقى" وعدد من التابعين[3]. (على حين كان معظم جند طارق من البربر) وكان عبوره من "سبتة" – وقيل من "طنجة" – إلى "الجزيرة الخضراء"، فأقام بـــها أيامـــًا للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة، فلما عزم على المسير جمع حوله رايات العـرب ووجوه الكتائب، وعددها يزيد على عشرين راية، وتفاوض الجميع فـــى الـــرأى، وكيـــف يكون المسير، فأجمعوا على السير إلى "إشبيلية" وغزو ما بقى من غرب الأندلس.

٢- تحرك موسى بالجيش نحو"شَذُونة" فافتتحها عنوة، ثـــم توجـــه إلـــى مدينـــة "قَرْمُونة"، وكانت غاية فى المناعة والحصانة، فاحتال فى فتحها بمساعدة جند مـــن أتبـــاع "يليان"[4]. وبهذا تمت له السيطرة على المراكز الدفاعية الأمامية لمدينة "إشـــبيلية" فتقـــدم نحوها فحاصرها حصارًا شديداً، ولكنها امتنعت عليه أشـــهرًا، ثـــم ســـقطت فـــى أيـــدى المسلمين، وهرب رجال حاميتها إلى مدينة "باجه". وكانت إشبيلية ((أعظم مدائن الأندلـــس شأناً وخَطْباً، وأعجبها بنياناً وآثاراً، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلـــس، فلما غلب القوطيون عليها حولوا السلطان إلى طليطلة، وبقى شرف الرومـــانيين وفقهـــهم ودينهم ورئاستهم فى دنياهم بإشبيلية))[5].

---

(١) تاريخ الأندلس(نصا بن الشباط) ص١٤٩، الحلة السيراء لابن الأبار ٣٢٤/٢. وراجع التاريخ الأندلسى للحجـــى ص٩٠، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص٩١.

(٢) التاريخ الأندلسى ص٩٠.

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبى ١٤٨٥/٤(رقم ٢٥٧١)، التكملة لكتـــاب الصلـــة لابـــن الأبار ٧٣١/٢ (رقم ١٨٤٧)، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ١٤٦/١، ١٤٨، ٣٥٤،٢٥٠.

(٤) البيان المغرب ١٣/٢-١٤، نفح الطيب ٢٦٩/١.

(٥) أخبار مجموعة ص١٦، البيان المغرب ١٤/٢، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز ســـالم ص ٧٥.

٣- مضى موسى بعد ذلك إلى "ماردة" إحدى قواعد الأندلس ومدائنه، وفى طريقه إليها نجح فى الإستيلاء على بلدة "لقنت" دون حرب. أما "ماردة" فقد كانت مدينة حصينة، ذات أسوار منيعة وأبراجٍ عالية[١]، وبها حصون قوية، والمسالك إليها وعرة، وكان فلول القوط قد احتشدوا فيها لمناعتها، فحاصرها موسى طويلا وأعد كمائن عديدة فى جهات صخرية مواجهة لها، واستشهد من جنده كثيرون، حتى استسلم أهلها ودخلها صلحا فى مستهل شهر شوال (سنة٩٤هـ/ يونيو ٧١٣م) على أن تكون أموال الفارين وأموال الكنائس غنيمة للمسلمين، دية لمن قتل منهم[٢] .

وكان أهل الذمة بإشبيلية (وهم العجم . وقد سموا فيما بعد بالمستعربين بسبب استعرابهم مع احتفاظهم بدينهم)[٣] قد انتهزوا فرصة انشغال موسى بن نصير بحصار "ماردة"، وانقضوا على الحامية المسلمة التى تركها فيها، وقتلوا من رجالها نحو ثمانين رجلا، وفر الباقون إلى موسى بماردة، وتوافد إلى إشبيلية عدد كبير من فلول جيشها ممن كانوا قد التجأوا إلى "باجة"، فتقوى بهم أهلها، وتحصنوا بداخلها، فانتظر موسى حتى أتم فتح "ماردة "، وبعث ابنه عبد العزيز على رأس جيش لاسترجاع إشبيلية، فنجح فى دخول المدينة واستعادتها، وقبض على الثوار وقتلهم[٤]، ثم مضى إلى "لبلة" و"باجة" و"أكشونبة"، وهذه المدن كانت أكبر مدائن الجنوب الغربى لشبه الجزيرة، ومنها يتكون النصف الجنوبى للبرتغال اليوم . وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسى فى هذه الناحية[٥].

---

(١) يذكر أبو عبيد البكرى أن عرض سور مدينة ماردة - حين الفتح أوقبله - ١٢ ذراعا (٦,٥ متر) وارتفاعه ١٨ ذراعا (٩,٧٥ متر) [جغرافية الأندلس وأوربا ص ١١٩].

(٢) أخبار مجموعة ص١٦-١٨ ، البيان المغرب ٢/١٤-١٥ ، نفح الطيب ١/ ٢٧٠ ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى، ص١٩٦ .

(٣) راجع حديثنا عن التعريف بالمستعربين (ص ٣٥).

(٤) البيان المغرب ٢/١٤. وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص٩٦-٩٧.

(٥) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٣٨.



٤- وفى بداية ذى القعدة سنة ٩٤هـ - وبعد شهر من إقامة موسى بن نُصَيْر فى "مارِدة" تمهيداً لمتابعة الفتح - تحرك صوب "طليطلة"، وبلغ طارقاً خبرُه، فخرج إليه فى وجوه الناس، ولقيه فى موضع من كُورة "طَلَبِيرة"[1] . ثم عاد بالجيش إلى "طليطلة"، وأقاما بها طوال فصل الشتاء. وفى هذه الفترة بدأ موسى بن نصير عمله كأول والٍ مسلم يحكم قطرًا أوروبيًا، وقام ببعض التنظيمات الإدارية، فأمر بضرب عملة ذهبية - فى دار السِّكة بطُلَيْطُلة لصرف رواتب الجند، وعملة أخرى برونزية لتيسير التعامل اليومى. كما أنه رد على أبناء غيطشة - الملك القوطى الذى خلعه "لذريق" - ما انتزع من ضياعهم، وعين بعضهم فى وظائف عليا، ونصب أخا "غِيطشة" أُسْقُفاً على "طليطلة"، وهو منصب مرموق فى المجتمع الأندلسى آنذاك[2]. هذا، وقد بعث موسى رسولين من قبله إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبرانه بالفتح، وهما "مغيث الرومى" - مولى الوليد - و "على بن رباح اللخمى" التابعى[3].

٥- وحينما انقضى الشتاء عزم الفاتحان - موسى وطارق - على متابعة الفتح، فزحفا بالجيوش نحو الشمال الشرقى، واخترقا ولاية "أَرَاجُون" (الثغر الأعلى) وافتتحا مدينة "سَرَقُسْطة" - الواقعة على الضفة اليمنى من نهر "إِبْرُه" - ومدنا أخرى حولها، مثل "وَشْقة" و "لارِدة" و"طَرَّكُونة" و "بَرْشَلُونة" . وغيرها من المدن والمعاقل[4].

٦- وبينما كان موسى يؤمن ممتلكات المسلمين شمالى "سَرَقُسْطة" ويعد العدة للدخول فى بلاد "جِلِّيقية" إذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع فى البلاد، والعودة مع طارق بن زياد إلى دمشق. وقد استجاب موسى لهذا الاستدعاء، لكنه طلب إمهاله حتى يستكمل الفتح، ويتم له السيطرة على المعاقل الجبلية الشمالية[5]. وهنا قسم جيشه إلى قسمين، قسم بقيادته، والقسم الآخر بقيادة طارق.

---

(١) نفح الطيب ٢٧١/١. وقد سار طارق مسافة قدرها ١٥٠ كم فى الطريق الموصل بين طليطلة وطلبيرة. (تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٩٧).

(٢) نفح الطيب ٢٦٦/١، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٣٨، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٩٨، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٨٥.

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢١٠.

(٤) راجع عن هذه الفتوحات: البيان المغرب ١٦/٢، نفح الطيب ٢٣/١، الروض المعطار ص ١٩٥، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٠٠ - ١٠١، التاريخ الأندلسى ص ٩١-٩٤.

(٥) نفح الطيب ٢٧٥/١ - ١٧٦.

أما طارق فقد سار بجيشه محاذيا الضفة الجنوبية لنهر "إِبْرُه" (إِبْرُو) – يمين النهر – باتجاه بلاد البَشْكُنْس (نَبَارَّة / نافار) وعاصمتها مدينة "بَنْبلُونة" – وقد اعتنق حاكمها "فرتوَن" الإسلام – ثم سار نحو الغرب بمحاذاة سلسلة جبال "قَنْتَبرِية" (كَنْتَبرِية) من جنوبها، وافتتح مدن "أَمايه" و "أَشْتُرْقة" و "لِيُون"[1].

وأما موسى فقد سلك طريقه يسار نهر "إِبْرُه" (الضفة الشمالية) نحو الشمال والغرب فى خط يكاد يتوازى مع سير طارق، وافتتح ما هنالك من مدن فى مناطق تسمى فى المصادر العربية "أَلَبة والقِلاع"، وهى قشتالة القديمة أو "قَشْتيلة" [2]، والتقى بطارق فى "أَشْتُرقة"، ثم انحرف – وربما معًا – نحو الشمال عابرًا جبال " كَنْتَبرِية"، ودخل إقليم "أَشْتُورِيش" حتى وصل إلى قلعة " لُكّ" Lugo بجليقة واستولى عليها.

ثم واصل موسى سيره فاستولى على "أُوبِيط"، ووصل – أو وصلت سراياه – إلى ساحل خليج "بَسْكَاى" عند بلدة "خِيخُون" على البحر المحيط فى أقصى الشمال[3] .

وفى هذه الأثناء بعث الوليد بن عبد الملك رسولاً آخر إلى موسى يتعجل قُفُولَه إلى دمشق؛ فاستجاب لرغبة الخليفة ولم يجد بدا من العودة، فوافاه طارق فى الطريق منصرفًا من الثغر الأعلى وأسرعا السير، فى ذى الحجة سنة ٩٥ هـ، فوصلا إلى "طليطلة"، ومنها إلى "قرطبة" فإشبيلية ثم إلى عاصمة الخلافة دمشق، وترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس[4] ليقوم بما تقتضيه أحوال البلاد من التنظيم والإصلاح. وبه يبدأ عصر الولاة.

---

(١) التاريخ الأندلسى للحجى ص١٠١-١٠٣، معالم تاريخ الأندلس لحسين مؤنس ص٢٣٩.

(٢) أما قشتالة الجديدة فهى التى شملت – فيما بعد – طليطلة وما حولها (راجع دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٢١٦/١).

(٣) نفح الطيب ١٧١/١،٢٧٦. وراجع : معالم تاريخ الأندلس ص ٢٣٩، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص١٠٢-١٠٣، التاريخ الأندلسى ص١٠٣-١١١،

(٤) نفح الطيب ٢٧٦/١.

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظيمين قد خلّفا الأندلس وراءهما بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوحات الإسلامية في مدة قاربت أربع سنواتٍ من الجهاد المتصل والحركة الدائمة . لقد استطاع هذان الرجلان - مع جيش من المسلمين ما بين عرب وبربر لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل - أن يفتحوا قطراً أوربياً واسعاً يعتبر من أصعب الأقطار الأوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية. وقد قام المسلمون بهذا الفتح العظيم بشجاعة تعتبر مضرب المثل، وساروا على خطة عسكرية وسياسية واضحة تدل على خبرة جيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان، وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبصيرة تذكرنا بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح في فتوحات المشرق.

وفي ختام حديثنا عن مراحل فتح الأندلس يحسن أن نشير إلى ملاحظتين مهمتين :

الملاحظة الأولى: يذكر بعض المؤرخين الأندلسيين - كابن حيّان - أن موسى بن نُصير بعد أن افتتح "سَرَقُسْطة" عبر جبال "ألْبُرْت" (ألبرتات) إلى الأرض الكبيرة وهي أرض الفرنجة أو "غالة" - وأنه قاد هذا الجهاد بنفسه - أو بالسرايا التي أرسلها - إلى "قَطالُونيا"، فاستولت على "بَرْشَلُونة"، ومن هناك افترقت جبال "ألْبُرتات"، وتوغلت في بلاد "غالة" فاستولت على "أُرْبُونَة"، و"قَرقَشُونة" و"أبِنيُون" وحصن "لُوذُون" على نهر "رُودَنُة" (أو /وادي الرُون)[1].

وهنا فكر القائد الجرئ في أن يخترق بجيشه جميع بلاد أوربا غازياً فاتحاً حتى يصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية وهو ما يجمله ابن خلدون بقوله: ((وجمع - أي موسى بن نصير - أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهدا فيهم، مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة))[2].

---

(١) نفح الطيب ٢٧٣/١ — ٢٧٤ العبر لابن خلدون ٢٥٥/٤ وتشير معظم الروايات إلى أن موسى وقف في زحفه عند " أربونة " (وراجع : دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٣٥٣/١.

(٢) العبر ١١٧/٤، نفح الطيب ٢٣٣/١.

وللباحثين العرب - إزاء هذه الروايات - رأيان :

أولهما : لا يُستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت " بَرْشُلُونة " و "لارِدة" وجزءاً من إقليم "قَطالُونيَة" وأنها وصلت إلى جبال " ألبُرتات " واجتازتها إلى "قَرقَشُونة"(١)، بقصد جَرْد هذه المنطقة واستكشافها. أما ما ذُكر بشأن اقتحام موسى - أو سراياه - لأرض " الفرنجة " ووصوله إلى " لُودُون " فأمرٌ يصعب قبوله، وكل ما في الأمر - على ما يبدو - أنه قد وقع خلط بين أعمال موسى من فتح " قطالونية " ووصول عسكره إلى " قَرقَشُونة " وبين أعمال "عنبَسة بن سُحَيْم الكلبى" (ت١٠٧ هـ) "وعُذْرَة بن عبد الله الفهرى"وغيرهما من ولاة الأندلس الذين وصلوا بفتوحاتهم إلى تلك المناطق(٢).

ثم إن القول بوصول موسى إلى "لُودُون" واقتحامه إياها يتعارض مع خطة الفتح الإسلامى التى تقتضى التؤدة، ولا يغيب عن موسى - وهو الذى عاتب قائده طارقاً على توغله بسرعة داخل البلاد بدون نظر إلى العواقب - محاذيرُ مثل هذه السرعة وما يترتب عليها من تأخير فتح الشمال الإسبانى. كما أن الذهاب فى عمليات حربية خلف جبال "البرتات" ومواصلة الجهاد فى بلاد "غالة" (الإفرنج) يحتاج إلى تحضيرات جديدة بعد الانتهاء من فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وإقرار الأوضاع فيها، وهذا ما يتماشى مع سياسة المسلمين فى فتوحاتهم التى جرت على أن الجيوش الإسلامية لا تنطلق إلى ميدان جديد إلا بعد تأسيس قاعدة قوية ومستقرة تساعدها على هذا الانطلاق وتحقيق النصر. والمعروف أن فتح إسبانيا لم يتم إلا بعد أن دعّم موسى بن نُصير فتوح المغرب.

ويذهب الدكتور حسين مؤنس فى إطار هذا الرأى إلى أن موسى بعد انتهائه من فتح "سَرَقُسطة" سار نحو "لارِدة" واستولى عليها، وبدأ يستعد للسير نحو "بَرْشُلُونة" فى إقليم "قطالونيا"، لكن الظروف لم تمهله للاسترسال وراء "لاردة"، حيث وصل إليه أمر من الخليفة بالحضور إلى دمشق. ، هذا يعنى - طبقاً لهذا القول - أن جيوش موسى بن نصير لم تعبر جبال ألبرتات، واتجهت نحو إتمام فتح الشمال الشرقى والغربى من شبه الجزيرة. ويعلق الدكتور مؤنس على ما ذكر فى المصادر بخصوص تطلُّع موسى للإتيان إلى

---

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ١٤٦/١، نفح الطيب ٢٧٨/١، ٩/٣.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٠٤، وراجع ما ذكرناه عن الجهاد خلف جبال البرتات فى اعصر الولاة ص

دمشق عن طريق الأندلس مرورا بروما، ثم القسطنطينية – قائلا: ((ويقال إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصرى حتى " أَرْجُونة " ومنها إلى روما، وأنه كان يزمع الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب. وهو إسراف فى أحسن الظن كما هو واضح، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) كيلو متر، كلها جبال ومرتفعات يحتاج قطعها إلى إعداد وعدد يصعب تصورها))[١].

والرأى الثانى : للمؤرخ الكبير – محمد عبد الله عنان – يؤكد وصول موسى بن نصير بجيشه إلى مملكة الفرنجة وأنه غزا وادى الرُّون (رُودَنُه) حتى مدينة " لُـوذُون " (ليون)، فاضطرب أمراء الفرنج، وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة[٢].

ويرى " عنان " أن موسى كان بمقدوره أن يحقق آماله الكبار وينفذ مشروعه العظيم عن طريق جيش ضخم يخترق جبال البُرْت، ويؤازره من البحر أسطول قوى، يسير بإزاء الساحل الجنوبى لأوروبا، فيسيطر على دولة الفرنجة ثم بلاد " اللنبرد " (لومبارديا) فى شمال إيطاليا، ثم روما، ثم سهول نهر الدانوب حتى القسطنطينية، ومنها يعبر آسيا الصغرى حتى يدخل دمشق، ولم يكن ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع، فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والقوة والبأس، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت. ومن جهة أخرى لم تكن أوروبا فى ذلك الحين سوى مزيج من الأمم والقبائل المتنافرة، يسودها الضعف والانحلال، وتمزقها المطامع والأهواء المختلفة، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جبهة دفاعية واحدة، فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها، ولكن سياسة الإحجام والتردد التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح فى الجهة الغربية – والتى كادت تحول دون فتح إسبانيا – أودت بذلك المشروع البديع، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يأمره بالعودة، فارتد موسى آسفا، ولكنه تمهل فى العودة حتى يتم إخضاع معاقل " جِلِّيقية "، التى اعتصمت بها فلول القوط، ويطهر إسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة[٣].

---

(١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص٢٣٩.

(٢) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ٥٣/١.

(٣) محمد عبد الله عنان المرجع نفسه ص٥٤. وراجع د. إبراهيم العدوى : موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص١١٥-١١٦.



الملاحظة الثانية : ومع أن المسلمين وصلوا بفتوحاتهم إلى الركن الشمالى الغربى – وهو الإقليم المسمى "أشتوريش" فى منطقة "جِلِّيقية" وشارفوا سواحل المحيط عند خليج "بَسكَاى"– فإنهم فى الواقع لم يفرضوا سلطانهم تماماً على هذه النواحى كلها، لوعورة مسالكها، وبرودة مناخها. وقد حدث أن بعض فلول الجيش القوطى المنهزم بزعامة قائد منهم يُدعى "بِلاى" "PELAYO" (ت ٧٣٧م) أن تعتصم بالجبال الشمالية فى هذة المنطقة، وهى التى يسميها الإسبان بقمم أوروبا – فى سلسلة جبال " قَنْتَبْرِية " –، وهى عبارة عن ثلاثة جبال شامخة، وبها مغارة تعرف بكهف " كُوفا دُونجا "، ويسميها العرب " صخرة بلاى "، لأنه اختبأ فيها هو وأصحابه، وكان عددهم لا يزيد عن الثلاثين – فيما بدا للفاتحين – فلما حاصرهم المسلمون وأعياهم أمرهم تركوهم وانصرفوا، استقلالا لعددهم، واستخفافا بشأنهم(١).

وفى هذه البؤرة الصغيرة " كُوفَادُونجا " – أو صخرة بلاى – نبتت نواة دولة إسبانيا النصرانية، ونبتت معها حركة المقاومة الإسبانية التى أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة " ليون "، ثم سيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التى صارت تعرف بمملكة " ليون "، ولقد أحاطت هذه المملكة نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين، وعرفت هذه الحصون فى المصادر العربية باسم منطقة " القلاع " وكان أمراؤها تابعين لملوك ليون، ولم تلبث أن اتحدت – فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى – بزعامة أقوى أمرائها " فرنان جنثالث "، واستقلت عن " ليون " وصارت تعرف بإمارة CASTILLA " قشتالة " . ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة – فى فترات الضعف والانقسام فى الأندلس – تنمو وتتوسع شيئا فشيئا على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء، حتى سيطرت على جميع أنحاء الأندلس، وأنهت الوجود الإسلامى هناك(٢).

---

(١) نفح الطيب ج١ ص٢٧٦. وراجع البيان المغرب ٢/٢٩.

(٢) راجع : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادى ص٤٠–٤١، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف – للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص٢٧–٢٨، ص٣٢–٣٩، الأندلس فى التاريخ للدكتور شاكر مصطفى ص٢٤. وسيأتى مزيد بيان عن هذا الموضوع (ص ٥٧–٥٨، ص ٨٥ وما بعدها).

عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى

ولعل من المناسب هنا – وقبل البدء فى تناول التاريخ الأندلسى عبر عصوره المختلفة – أن نتحدث بإجمال عن عناصر السكان فى الأندلس بعد أن استقر المسلمون فى أرضها. وقد تنوعت هذه العناصر من حيث الجنس والعقيدة والثقافة ((وكان من طبيعة الأشياء أن يتصل بعضها ببعض، سواء بالمصاهرة أو بالعشرة أو بالمجاورة، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه، مما كان له أثره فى طبيعة الحضارة الأندلسية، بحيث كانت أشبه ببوتقة انصهرت فيها عقليات شتى، وثمرات ثقافات متباينة))[١]. ويمكن تقسيم عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى – بصورة رئيسية – إلى المسلمين، وغير المسلمين.

أولاً : المسلمون: (العرب – البربر – الموالى – المولَّدون – الصقالبة).

١- العرب : دخلوا الأندلس على موجات متتابعة، وانتشروا فى أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلاً، وخاصة المناطق الخصبة التى تفيض بالخيرات، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية المعروفة فى المشرق، العدنانية منها واليمنية (القحطانية) إلا أن اليمنية – كما يقول المقّرى – ((هم الأكثر، والملك فيهم أرسخ، إلا ما كان من خلفاء بنى أمية))[٢].وأول طالعة من العرب دخلت الأندلس طالعة موسى بن نصير (فى رجب ٩٣هـ)، وكانت تتألف من ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر[٣]. ثم طالعة الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفى (ثالث الولاة) – فى ذى الحجة٩٧هـ – إذْ قدم والياً ومعه أربعمائة رجل من إفريقية. وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمنيين، وسموا بالبلديين، لأنهم استقروا فى بلاد الأندلس واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها[٤]. ثم تأتى طالعة "بلْج بن بشر القشيرى" فى سنة ١٢٤هـ، وأغلبهم من العرب القيسيين، وكان عددهم يقرب من عشرة آلاف، منهم ألفان من الموالى، وثمانية آلاف من العرب.

---

(١) لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص١٧.

(٢) المقرى : نفح الطيب ٢٩٣/١ . وقد ذكر المقرى قائمة طويلة بأسماء القبائل العدنانية واليمنية التى استقرت بالأندلس وأماكن، نزولهم بها (١/٢٩٠ – ٢٩٨) .

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٠٧،نفح الطيب ١/ ٢٦٩.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٩ وما يليها، أخبار مجموعة – لمجهول ص٤٤،٤٦، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص١٢٠.

وسمُّوا بالشاميين تمييزاً لهم عن البلديين[1] وقد بدأ النزاع ينشب بين هاتين الكتلتين، ثم تحول إلى صراع بين العصبية اليمنية والعصبية القيسية مثلما كان فى المشرق، على نحو ما سنراه فيما بعد.

وكانت موجة الأمويين وأنصارهم ممن أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية، كما كانت ذات عدد لا يُتصور إلا كبيراً، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق، ولِمَا هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه من بعده ببنى أمية الوافدين عليهم، وبكل اللائذين بهم من المشرق عموماً[2].

ويرى بعض الباحثين أن عدد العرب الذين أتوا إلى الأندلس من شمال إفريقية والشام وصل إلى ما يقرب من ثلاثين (٣٠) ألفاً، وارتفع هذا الرقم ليصبح نحو (٣٠٠) ألف بعد سنوات[3].

٢- البربر : وهؤلاء قاموا بدور هام فى فتح الأندلس، إذْ كان الجيش الذى قاده طارق بن زياد يتألف كله من البربر، وما كادت أنباء النصر الذى أحرزه على القوط تصل إلى المغرب حتى هرع إلى الأندلس عدد هائل منهم بغية التماس الغنائم أو الاستقرار فى هذه البلاد الغنية[4].

وينتمى هؤلاء البربر الذين دخلوا الأندلس إلى "مطغْرة" و"مَدْيُونة" و"مِكْناسة" و"هَوَارة " وكلها متفرعة من "زناتة". إضافة إلى "مُغيلة" و"ملزوزة" و"نَفْزَة" و"أُورْبَة" و"مَصْمُودة"[5]. وهؤلاء تركز وجودهم فى المناطق الجبلية خاصة فى الشمال الغربى ووسط الأندلس، وأراضى "السهلة" ووادى الحجارة وإشبيلية وما حولها، وذلك لتشابه ظروفها مع ظروف الحياة والبيئة فى مواطنهم الأصلية. وقد اشتغلوا بالزراعة وتربية الماشية، ويسر لهم مواطنهم فى مناطق الحدود – وغيرها من المناطق الجبلية – القيام

---

(١) تاريخ إفتتاح الأندلس ص ١٥.

(٢) راجع، الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص٣٢.

(٣) د. عبد الله جمال الدين : المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى ج٧ ص٨٢).

(٤) نفح الطيب ٢٥٩/١، وراجع : د.السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص١٢٢.

(٥) ابن خلدون: العبر ١٠٦/٦، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٩٨ – ٥٠٣ (ط دار المعارف).

بعدة ثورات أفضت فى النهاية إلى سقوط الخلافة الأموية (٤٢٢هـ /١٠٣١م). واستأثر جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية بالأندلس على عهد ملوك الطوائف(١).

٣- الموالى: وهم مجموعة من عناصر مختلفة تجمع بينها رابطة الولاء بين المولى وسيده، أو التابع ومتبوعه. ويرجع هؤلاء إلى أصول مختلفة، فبعضهم رافق الشاميين الذين دخلوا الأندلس، وعرفوا – بذلك – باسم " موالى الشاميين ". وبعضهم كان من البربر الذين أسلموا ورافقوا سادتهم فى دخولَ الأندلس، فسمُّوا باسم " الموالى البلديين" وبعضهم من الإسبان الذين دخلوا فى ولاء بنى أمية بعد الفتح الإسلامى فأصبحوا موالى "اصطناع" أو " النعمة " الذين أنعم عليهم الأمويون بالولاء اعتزازاً وتقديراً أمثال "بنى قِسيَ " " وبنى غُومِس " وبنى مَرْتين "(٢).

وقد أدى الموالى دوراً هاماً فى تاريخ الأندلس الإسلامية، إذ اعتمد عليهم بنوا أمية وقلَّدوهم أهم مناصب الدولة، لتفانيهم فى الإخلاص، فكان منهم الوزراء والكتّاب والقواد والقضاة، من أمثال " بنى عَبْدة " و" بنى شُهَيْد " و" بنى مُغيث " و" بنى جَهْوَر ".

وكان للموالى مشاركة فى الثورات التى عمت الأندلس فى عصر الاضمحلال الأول، أو دويلات الطوائف الأولى، وهى فترة امتدت ما يقرب من ثلثى قرن (٢٣٨-٣٠٠هـ/٨٥٢-٩١٢م) تمزقت خلالها وحدة الأندلس، وقام الثوار فى سائر أنحائها بشق عصا الطاعة، واستقلوا بحكم المناطق التى ثاروا فيها، وتقلص نفوذ بنى أمية وأصبح سلطانهم لا يتعدى قرطبة ونواحيها. ومن هذه الثورات الثورة التى قام بها الموالى بإلبيرة فى إمارة عبد الله بن محمد (٢٣٨هـ – ٢٧٣هـ) بقيادة عبد الوهاب بن جرج(٣).

٤- المُوَلَّدون: وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ بدايات الفتح، وصاروا جزءاً من نسيج المجتمع الإسلامى إلى جانب العرب والبربر. ويُسمَّون أيضاً "الأسالمة" أو "المسالمة" أو "أسالمة أهل الذمة" إذا كان إسلامهم حديثاً.

---

(١) راجع المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ٨٢/٧)، فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص٣٨٨، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص١٢٣، الإسلام فى إسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع ص٣٢.

(٢) د. عبد الله جمال الدين : مرجع سابق ص٨٣ ، ود. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص١٢٦، د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٤٠٤،٤٠٧ . وراجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٥٠٢-٥٠٣.

(٣) المقتبس فى تاريخ الأندلس لابن حيان (قطعة نشرها د. إسماعيل العربى – ط المغرب ١٩٩٠م) – ص ٥٢ – ٥٣، البيان المغرب لابن عذارى ١٣٧/٢. وراجع تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص٢٤٣. وسيأتى مزيد بيان عن هذه الفترة (ص٧٦).

ويعرف أولئك "المُوَلَّدون" في الإسبانية بالخوارج والمرتدين (Renegados) أي الذين ارتدوا عن دينهم القديم، وهو النصرانية.

وقد اندمج "المُوَلَّدون" في المجتمع الإسلامي، بحيث اصبح من الصعب – بعد جيل أو اثنين – تمييزهم من المسلمين الأصليين، وغدوا بمضي الزمن عنصراً من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً، من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعي والحضاري[1].

هذا هو الصحيح في التعريف بالمولدين. ويرى بعض الباحثين أنهم جيل جديد ولدوا من آباء مسلمين (سواء كانوا عرباً أو بربر) وأمهات أعجميات (سواء كنّ إسبانيات أو غير ذلك) ونشأوا على الإسلام، ثم تنامى عددهم نتيجة كثرة اعتناق أهل البلاد الإسلام، وشيوع ظاهرة الزواج المشترك[2].

وحَرِيٌّ بنا ألا ننسى – في تعليل نشاط المصاهرة بين الفاتحين (العرب والبربر) وأهل البلاد الأصليين – أن هؤلاء الفاتحين (وخاصة من العرب) دخلوا إسبانيا جيوشاً منظمة، ولم يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم إلا القليل النادر منهم، ومن ثَمَّ لم يكن لهم بدٌّ من اتخاذ النساء من أهل البلاد، ومن هنا أصبح التزاوج بين الجانبين أمراً لا مفر منه[3].

أما عن النواحي التي تركز فيها المولدون فقد كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان المسلمين في الجنوب والشرق، وخاصة في كُورة "إلبيرة" التي شهدت معارك طاحنة بينهم وبين الدولة في زمن الفتنة الكبرى التي عمت أقطار الأندلس خلال القرن الثالث الهجري واستمرت ستين عاماً تقريباً (٢٣٨-٣٠٠هـ/٨٥٢-٨٨٦م)[4] وكان من

---

(١) راجع: دولة الإسلام في الأندلس، لمحمد عبد الله عنان ٢٠٦/١.

(٢) راجع: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٢٨، المجتمع الإسلامي في العصر الأموي للدكتور حسين يوسف دويدار ص ٤١، المسلمون في الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٨٣/٧).

(٣) راجع: تاريخ الفكر الأندلسي – لجُنْثالث بالنثيا (ترجمة د. حسين مؤنس) – الصفحة الأولى من الفصل الأول. وقد تتبع الدكتور أحمد مختار العبّادي ظاهرة زواج العرب من الإسبانيات على مستوى الولاة والأمراء والعلماء والقضاة والكتّاب وَعامة الشعب (راجع بحثاً له بعنوان "الإسلام في أرض الأندلس" – مجلة عالم الفكر – عدد مختار منها تحت عنوان: دراسات إسلامية – ص ٩٦-٩٩).

(٤) تاريخ النصارى في الأندلس للدكتور عبادة كُحيلة ص ٣٩-٤٠.

أخطر الحركات الثورية التى قاموا بها فى تلك الفترة حركة عمر بن حفصون المرتد – زعيم المولدين – فى الفترة من (سنة ٢٦٥هـ/٨٨١م) إلى (سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م). وسيأتى الحديث عن الفتن والثورات التى قام بها "المولدون" فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن الأندلسية[١].

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة العجمية أو "اللطينية" – كما يسميها المؤرخون العرب – بين الأندلسيين من عرب وبربر، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة "الرومانثية" (الإسبانية العامية). ومن طريق المولدين تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره ظهور "العامية العربية الأندلسية" ونشأة فن الموشحات والأزجال[٢].

٥- الصقالبة : وتطلق هذه الكلمة على الشعوب السلافية، ثم أصبح العرب يطلقونها على الأرقاء الذين يجلبون من الأمم المسيحية ويستخدمون فى القصور أو الجيش عن طريق الشراء بواسطة تجار اليهود، أو عن طريق الحملات العسكرية. وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالا من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة، فتتعهد الدولة برعايتهم وينشأون نشأة إسلامية ويدربون على أعمال البطانة وشئون القصر[٣].

وقد عمد أمراء بنى أمية منذ تأسيس دولتهم إلى اصطناع الموالى والرقيق الصقالبة والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم.

وأول من استجلب الصقالبة إلى الأندلس الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٥-٧٨٨م)[٤]، ثم استكثر منهم الأمير الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضى (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م)، جلب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم "الخرس" لعجمتهم[٥] واستعان بهم فى إخماد ثورة " الربض" بقرطبة[٦].

---

(١) راجع عن ذلك ص ٦٧، ص ٧٦ – ٨٣.

(٢) د. لطفى عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص٢٥، د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٣٧٧، إلبير حبيب مطلق: الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ص٣١-٣٢.وراجع عن فن الموشحات: الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص١٤٣ وما بعدها.

(٣) د. عبد الله جمال الدين: المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ج٧ ص٨٣)، الحجى: التاريخ الأندلسىص٢٨٤. وراجع: صورة الأرض (أو:المسالك والممالك) لابن حوقل ص١٠٥-١٠٦،ص٣٣٣. مروج الذهب للمسعودى ٣٠٥/١.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ٢٨/٢.

(٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ٢٥٠/١. (٦) سيأتى الحديث عن هذه الثورة ص .

ثم أخذت أعدادهم فى الازدياد، وخاصة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) حيث روى أن عددهم وصل فى قرطبة وحدها فى عهده نحو ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين[1].

وقد نبغ عدد كبير منهم، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة وقيادية فى الإدارة والجيش، واشتدت شوكتهم، وكان لهم دور بارز فى الحياة السياسية، حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم، وشاركوا – مثل البربر – فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها. كما كان لهم مشاركة جيدة فى الحياة العلمية، وبرز من بينهم أسماء عديدة لامعة فى كثير من فنون العلم – وقد صنف أحدهم كتابا فى فضائلهم وسماه "الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة" لحبيب الصقلبى، وهو من صقالبة الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٤٠٣هـ)[2].

ثانيا: غير المسلمين:

١- العجم أو المستعربون: هم نصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم، وكان العرب يسمونهم بعجم الذمة.أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين[3].

وكان المستعربون – أو العجم – فى الأندلس يؤلفون جمهرة سكان البلاد فى السنوات الأولى التى تبعت الفتح الإسلامى، ولكن عددهم أخذ يتناقص تدريجيا، بينما أخذ عدد "المسالمة" يزداد يوما بعد يوم. وما لبث المستعربون أن أصبحوا بمرور الزمن أقلية بالنسبة للمسالمة والمولدين. وقد عومل هؤلاء المستعربون منذ الفتح معاملة طيبة، وتمتعوا بنعمة الإنصاف والسياسة العادلة. وضمنت حرياتهم فى إقامة شعائرهم، وأقروا على أموالهم ودينهم بأداء الجزية وعاشوا مع المسلمين جنبا إلى جنب فى أحياء خاصة بهم، وكان لهم رئيس فى كل مدينة يعرف "بالقُومِس"، كما كان لهم قاض نصرانى يعرف بقاضى النصارى أو العجم، يفصل فيما يكون من منازعاتهم بمقتضى القانون القوطى.

---

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص٤٠.

(٢) من الأبحاث الجيدة عن الدور السياسى والعسكرى والثقافى والاجتماعى للصقالبة فى الأندلس بحث للدكتورة وفاء عبد الله سليمان، بعنوان "نفوذ الصقالبة فى الأندلس فى عصرى الإمارة والخلافة (١٣٨-٣٦٦هـ) – ندوة "الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات" الرياض ١٩٩٣م.

(٣) د. السيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص١٣٠.



وإذا كان المتخاصمون مسلمين ومسيحيين فيفصل بينهم قاض مسلم يعرف بقاضى الجماعة[1].

والاستعراب يمثل وسيلة من وسائل تأثير الثقافة العربية الإسلامية فى غير المسلمين من الأديان، حيث كان المستعربون يستعملون اللغة العربية فى مخاطباتهم ومعاملاتهم، ويتعلمون آدابها وعلومها، ويأخذون بأساليب الحياة الإسلامية. وقد بلغ الأمر بهم أن صاروا مولعين بالتراث العربى من أدب وشعر، حتى جأر المطران "ألْبَرُو القرطبى" بشكواه من انتشار الثقافة العربية بين شبيبة النصارى، بحيث لا يروقهم إلا الشعر والقصص العربى، ولم يعودوا يقرءون إلا كتب المسلمين[2].

والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية كانوا أداة اتصال بين شطرى إسبانيا، وهم – منذ الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية – لم ينقطعوا عن الهجرة إلى الممالك المسيحية فى الشمال، وقد كثر ذلك فى عهدى المرابطين والموحدين، فقد هاجر من سكان بلنسية منها إلى قشتالة (سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م)، وخرجت طائفة كبيرة منهم من غرناطة تبلغ عشرة آلاف مع جيش ألفونسو الأول ملك "أرغون" إبان حملته سنة (٥١٩هـ/١١٢٥م) التى اجتاح فيها أرض الإسلام حتى أدرك قرطبة وإشبيلية. وخرجت طائفة أخرى من إشبيلية إلى قشتالة (سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م). وكان من شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الحضارة العربية والإسلامية بين أهل الشمال من المسيحيين[3].

٢– **اليهود:** استوطن عدد كبير منهم فى "قرطبة"، ولهم فيها باب يعرف باسمهم وسكن عدد آخر فى إشبيلية، واستوطنت جماعة كبيرة منهم في "طليطلة" "وبرشلونة" و"طَرَّكُونة". وقد عانى اليهود كثيراً من اضطهاد الرومان والقوط لهم قبل الفتح الإسلامى.

---

(١) د. السيد سالم: المرجع السابق ص ١٣٠–١٣١، د. لطفى عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص ٢٨، د. عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ص ٢٨٤، وراجع تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥، ص ٣٨.

(٢) د. لطفى عبد البديع: المرجع نفسه ص ٢٨، وراجع: جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة د. حسين مؤنس) ص ٤٨٥–٤٨٦، د. عبادة كحيلة: تاريخ النصارى فى الأندلس ص ١١٥–١١٦.

(٣) د. لطفى عبد البديع: المرجع نفسه ص ٣٠–٣١ وراجع حديثاً مطولاً عن إسهامات المستعربين فى نقل العلوم الإسلامية – كالأدب والرياضيات والفلك – إلى إسبانيا النصرانية ثم إلى أوروبا كلها – راجع عن ذلك: الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (دراسة فى الحياة العلمية)، رسالة دكتوراة – كلية دار العلوم – من إعداد طه عبد المقصود عبد الحميد ص ٩٤٢–٩٤٦ (المجلد الثانى) .

أما فى ظل الإسلام فقد تمتعوا بقدر كبير من الحرية، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى، وتعلموا العربية وتبّنوا تقاليد المسلمين، وكان لهم نشاط كبير ومؤثر فى نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ إذْ كانوا يجيدون بالإضافة إلى اللغة العبرية اللغتين العربية واللاتينية،وكان منهم التجار والحرفيون والمترجمون، وشاركوا فى منصاب الدولة، فكان منهم الوزراء والكتّاب والسفراء، ونبغ عدد كبير منهم فى مجالات الطب والفلسفة والفلك والرياضيات(١).

* * *



---

(١) راجع طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٧-٩٠، المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب لابن سعيد ٢/٤٤١-٤٤٤ (باب: العلوم فى بنى إسرائيل)، المسلمون فى الأندلس – للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٨٣/٧)، طه عبد المقصود عبد الحميد : الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين ٣،٤هـ (رسالة دكتوراه) ص ٩٤٦-٩٤٩ .

الفصل الثانى

عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٤-٧٥٥م)

يُقصد بالولاة: حكام الأندلس الذين عيَّنتهم الحكومة الأموية بدمشق، أو (والى) الشمال الإفريقى الذى كانت الأندلس تابعة له أحياناً. وقد استمر عهد الولاة اثنتين وأربعين سنة، تولى خلالها عشرون والياً (حكم اثنان منهم مرتين)، وهذا يعنى أن متوسط حكم الوالى يقل عن سنتين، وهذا يعنى أيضاً أن عدم الاستقرار السياسى هو السمة الغالبة على هذه الفترة. وسنعرف الأسباب التى دفعت إلى ذلك.

وهذه قائمة بأسماء الولاة الأندلسيين بعد الفتح الذى قاده موسى بن نصير وطارق بن زياد وآخرون؛ مع ذكر تواريخ بداية ولاياتهم وانتهائها(١):

١- عبد العزيز بن موسى بن نُصير = سنة وعشرة أشهر (ذى الحجة ٩٥هـ - رجب ٩٧هـ/٧١٤-٧١٦).

٢- أيوب بن حبيب اللخمى = ستة أشهر (رجب ٩٧هـ - ذى الحجة من العام نفسه).

٣- الحر بن عبد الرحمن الثقفى = سنتان وثمانية أشهر (ذى الحجة ٩٧هـ - رمضان ١٠٠هـ/٧١٦-٧١٩م).

٤- السمح بن مالك الخولانى = سنتان وثلاثة أشهر (رمضان ١٠٠هـ - ذى الحجة ١٠٢هـ/٧١٩-٧٢١م).

٥- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (الولاية الأولى: شهران - إلى صفر ١٠٣هـ).

٦- عنبسه بن سحيم الكلبى = أربع سنين وستة أشهر (صفر ١٠٣هـ - شعبان١٠٧هـ/٧٢١-٧٢٥م).

٧- عذرة بن عبد الله الفهرى = شهران (حتى شهر شوال ١٠٧هـ).

٨- يحيى بن سلمة الكلبى = سنتان وستة أشهر (شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ/٧٢٦-٧٢٨م).

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ص ٢٣٥-٢٣٨، ٢٩٨-٢٩٩.

٩- حذيفة بن الأحوص القيسى = ستة أشهر أو أكثر (ربيع الأول ١١٠هـ - شعبان من العام نفسه).

١٠- عثمان بن أبى نِسْعة الخثعمى = خمسة أشهر (شعبان ١١٠هـ - المحرم ١١١هـ/٧٢٩م).

١١- الهيثم بن عُبيد الكنانى (المحرم ١١١هـ ولمدة عشرة أشهر).

١٢- محمد بن عبد الله الأشجعى = شهران (ذى الحجة ١١١هـ - المحرم ١١٢هـ/٧٢٩-٧٣٠م).

١٣- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى = الولاية الثانية لمدة سنتين وثمانية أشهر (صفر ١١٢هـ - رمضان ١١٤هـ/٧٣٠-٧٣٢م).

١٤- عبد الملك بن قَطَن الفهرى = الولاية الأولى لمدة سنتين (شوال ١١٤هـ - شوال ١١٦هـ/٧٣٢-٧٣٤م).

١٥- عقبة بن الحجاج السَّلُولى = خمس سنوات وشهران أو أكثر (شوال ١١٦هـ - صفر ١٢٢هـ/٧٣٤-٧٤٠م).

١٦- عبد الملك بن قَطَن الفهرى = الولاية الثانية لمدة سنة واحدة وشهر واحد (صفر ١٢٢هـ - ١٢٣هـ/٧٤٠-٧٤١م).

١٧- بَلْج بن بشر القشيرى = أحد عشر شهراً أو أقل (ذى القعدة ١٢٣هـ - شوال ١٢٤هـ/٧٤١ - ٧٤٢م).

١٨- ثعلبة بن سلامة العاملى = عشرة أشهر أو أقل (شوال ١٢٤هـ - رجب ١٢٥هـ/٧٤٢-٧٤٣م).

١٩- أبو الخطَّار حسام بن ضرار الكلبى = أربع سنوات وستة أشهر أو أقل (رجب ١٢٥هـ - ١٢٧هـ/٧٤٣-٧٤٥م).

٢٠- ثُوابة بن سلامة الجُذَامى = سنة واحدة أو أكثر (رجب ١٢٨هـ - ١٢٩هـ/٧٤٥-٧٤٧م).

٢١- عبد الرحمن بن كَثِير اللخمى = بضعة أشهر (أوائل سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م). نصبه أهل الأندلس "للأحكام خاصة"[1]، أى للقضاء.

---

(١) نفح الطيب ٢٣٨/١، البيان المغرب ٣٥/٢.

٢٢- يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (آخر الولاة) = تسع سنوات وتسعة أشهر أو أكثر (ربيع الثانى ١٢٩هـ - ١٣٨هـ/٧٤٧-٧٥٥م). وجدُّه هو عقبة بن نافع صاحب "إفريقية" ومؤسس مدينة "القيروان".

***

الملامح العامة لعصر الولاة:

أولاً: تنظيم البلاد وإصلاحها:

١- قبل أن يغادر موسى بن نُصير الأندلس (مع طارق بن زياد) عيَّن ولده عبد العزيز والياً عليها، فكان أول ولاتها من المسلمين، وقضى فى ولايته زهاء عامين عُنى فيهما بتحصين الثغور، وافتتح عدة أماكن وحصون، وأبدى همة فى تنظيم الحكومة وإدارتها، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، واختار "إشبيلية" عاصمة للأندلس[١]. وبقيت كذلك حوالى ثلاث سنوات حتى انتقلت إلى قرطبة فى ولاية أيوب بن حبيب اللخمى (الوالى الثانى) - وهو ابن أخت موسى بن نصير - أو فى ولاية الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفى[٢]. واستمرت قرطبة عاصمة للأندلس حتى نهاية عهد الخلافة الأموية أوائل القرن الخامس الهجرى.

٢- كانت الأندلس ولاية تابعة لإشراف الشمال الإفريقى وتُحكم من قِبل والى إفريقية، فظلت كذلك إلى زمن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، فقرر أن تكون ولاية مستقلة عن "إفريقية" تابعة للخلافة مباشرة إدراكاً منه لأهمية الأندلس، وللدور الذى تقوم به فى الفتوحات، ولصراعها مع ملوك الفرنجة.، وقد عيَّن السمح بن مالك الخولانى والياً عليها (فى رمضان سنة ١٠٠هـ - ذى الحجة ١٠٢هـ) ((وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق))[٣].

ولما توفى عمر عاد تعيين والى الأندلس إلى والى إفريقية، لكن بموافقة الخليفة، وبعد موقعة "بلاط الشهداء"[٤] - سنة ١١٤هـ/٧٣٢م. عادت الخلافة إلى تعيين والى

---

(١) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٧١/١، التاريخ الأندلسى للحجى ص ١٣٦.، وراجع البيان المغرب، ٢٣/٢-٢٤.

(٢) البيان المغرب ٢٥/٢.

(٣) البيان المغرب ٢٦/٢.

(٤) سيأتى الحديث عن هذه الوقعة قريباً ص٤٩.

"الأندلس" من جديد، ولما اضطربت الأمور أصبح والى إفريقية هو الـــذى يعينـــه حينـــاً، وأحياناً جماعةُ الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة، فقد استقر رأيهم – مثلاً – على تعييـــن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سنة (١٢٩هـ/٧٤٧م) خشية تفاقم الفتن دون موافقـــة، لا من والى إفريقية ولا من الخلافة[١].

٣- وقد قُسّمت الأندلس – إدارياً – إلى ولايات كبرى، على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط، وتضم كل ولاية عدداً من المدن[٢].

أ- فولاية الجنوب تمتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير، وما يلـــى هـــذا النهر حتى وادى "آنَة" – أو (يانَة). وتضم : "قرطبة"، و"إشْبِيلية"، و"مالَقَة".

ب – ومتوسطة الأندلس: من البحر المتوسط شـــرقاً إلـــى حـــدود "لوزيتانيـــا" (البرتغال القديمة) غرباً، ثم إلى نهر "دُوَيْرُهْ" شمالاً. ومن أشـــهر قواعدهـــا: "طليطلـــة"، و"قُونية" و"بلنسية"، و"مُرْسية"، و"لُورْقَة"، و"بَسْطة"، وغيرها.

ج- والثالثة: جِلِّيقية ولُوزيتانيا (البرتغال القديمة). وأشـــهر قواعدهـــا: مـــاردة، و"باجَة"، و"أشبونة"، و"قلمرية"، و"شَلَمَنْقَة"، و"أستُرقة" وغيرها.

د- وتمتد الولاية الرابعة من نهر "دُوَيْرُه" إلى جبال "البُرْت" على ضفتـــى نـــهر "إِيبْرُو" وأشهر قواعدها: "سَرَقُسْطة"، و"طَرَطُوشة"، و"طَرَكُونة"، و"بَرْشَـــلُونة"، و"وَشْـــقة"، و"بُبَشْتَر"، وغيرها.

هـــ- ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً أنشأت ولاية خامسة شمالى جبـــال البُرْت، شاملة "أُرْبونة" و"قَرْقَشُونة" وغيرها[٣].

٤- وفى هذه الولايات والمدن تفرقت القبائل والعشائر المختلفة، عربية وبربريـــة واستقرت بها، وكان أكثرهم من مسلمى البربر، وقد استقروا فى كل ناحية، وليس صحيحاً أن المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحى. ولعل سُكْنى بعض النواحى الجبلية من قبـــل مجموعات من مسلمى البربر قد تمَّ بناءً على رغبتهم، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليـــه

---

(١) البيان المغرب ٣٥/٢، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٨٤/٧).

(٢) راجع: دولة الإسلام فى الأندلس ٧٠/١.

(٣) راجع أسماء هذه المدن وأماكنها على الخريطة.

فى الشمال الإفريقى «إذ كانوا يرغبون عن سكنى المدن والقرى، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى»[1].

وأغلب العرب استقروا فى قرطبة وإشبيلية، وجيَّان، وشَذُونة، والجزيرة، و"رية"، و"مالقة"، و"طليطلة"، و"شريش"، و"إلبيرة" (غرناطة)، و"تُدمير"، و"ماردة"، و"أشبُونة" (لشبونة). وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية، وفى نواحى "لاردة" و"بَطَلْيُوس" وأراضى البرتغال، ونواحى الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجه. وفى بعض أنحاء الثغر الأعلى، وفى قطاع "قُونَقة" و"السَّهلة"[2].

٥- وبالرغم من الظروف الصعبة التى مر بها المسلمون فى هذه الفترة، وكثرة مشاكل الحكم، وقلة المدد الذى تلقوه من الحكومة المركزية فإنهم استطاعوا تسيير الأمور على نحو لا بأس به، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً. بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعنوا بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الرى، وأنشأوا المساجد فى كل نواحى الأندلس تقريباً. يقول محمد عبد الله عنان: «كان فتح الإسلام لإسبانيا فاتحة عصر جديد، وبدأ تطور عظيم فى حياتها العامة، وفى نظمها الاجتماعية... وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه فإنهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها، وهبَّتْ ريح من الرخاء على مجتمع أضناه العَسْف والفاقة مدى عصور»[3].

ومن أمثلة الإصلاحات التى قام بها الولاة فى المجال المالى والعمرانى والنشاط الاقتصادى: ما قام به السمح بن مالك الخولانى (١٠٠-١٠٢هـ) من النظر فى أراضى الأندلس فقد عمل حصراً شاملاً لها، ومسح كثيراً من مدنها وجبالها وأنهارها، وطبيعة أرضها ومنتجاتها، وميَّز ما فُتح صلحاً مما فُتح عنوة، وخَمَّس جميع أراضى الأندلس، أى

---

(١) البيان المغرب ٢٣/٢ ونفح الطيب ٢٧٦/١، ٢٨٠ . وراجع: التاريخ الأندلسى للحجى ص ١٣٧ – ١٣٩.

(٢) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٧٠/١-٧١. وقد أعطى ابن حزم فى كتابه "جمهرة أنساب العرب" بياناً مفصلاً عن القبائل والبطون البربرية التى نزلت فى شبه الجزيرة والنواحى التى نزلت بها (راجع الجمهرة ٤٦١ – ٤٦٧/ ط دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٨م).

(٣) دولة الإسلام فى الأندلس ٦٢/١.

قرر عليها الخراج بنسبة الخمس، ووزع بعض الأراضى على الزراع على أساس المزارعة (أى المناصفة فى الغلة)[١]. كما أنه أعاد بناء قنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادى الكبير التى تصل بين مدينة قرطبة وربضها "شُقُندة"، وهى التى وصفها الرازى – المؤرخ الأندلسى – بأنها من أعظم آثار الأندلس وأعجبها[٢].

ولعل من أهم التحولات الاقتصادية المبكرة فى الأندلس إلغاء نظام عبيد الأرض، إذْ تمَّ تحرير هؤلاء من العبودية، ولم يعد مُلاك الأرض يتحكمون فيهم، بل صاروا يستأجرون الأراضى، ويعملون فيها، مقابل إخراج جزء من الغلّة للمسلمين، وكان لذلك أثره البالغ فى إحساس الناس بالعدالة والرفاهية[٣].

أما عن سياسة الولاة مع أهل البلاد الأصليين (غير المسلمين) بعد الفتح الإسلامى فقد كانت على درجة عالية من العدل والإنصاف والتسامح والوفاء بالعهود. وقد كثرت أقوال المفكرين الغربيين فى الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها فى الأندلس، ونكتفى هنا بذكر شهادة المستشرق العلامة "رينهارت دوزى" فى كتابه (المسلمون فى الأندلس) إذْ يقول: ((كان الفتح العربى خيراً على إسبانيا، فقد أحدث ثورة اجتماعية خطيرة، وقضى على شطر كبير من المساوئ التى كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون. أما سلطان أصحاب الامتيازات والكهنوت والأشراف فقد تضاءل إلى حد التلاشى، وظهرت الملكيات الصغيرة نظراً لتوزيع الأراضى على عدد كبير جداً من الناس، مما انطوى على الخير العميم، وكان ذلك من أحد الأسباب التى أدت إلى ازدهار الزراعة. كذلك عمل الفتح على تحسين حال الطبقات الدنيا، وكان الإسلام أميل من النصرانية لتحرير العبيد الذين يئسوا من تحريرهم على أيدى القُسس أيام الحكم القوطى))[٤].

ويقول دوزى فى موضع آخر: "وعلى وجه العموم فإنه يمكن القول بأن المسيحيين احتفظوا بمعظم أملاكهم، بل لقد أصبح لهم الحق فى التصرف فيها بالبيع، وهو

---

(١) البيان المغرب ٦٢/٢ ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس – القسم الأندلسى للدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح ص ٢١٣.

(٢) نفح الطيب ٤٨٠/١، البيان المغرب ٢٦/٢.

(٣) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢١٣.

(٤) رنيهارت دوزى: المسلمون فى الأندلس (ترجمة د. حسن حبشى) ج ١ ص ٤٨-٤٩.



حق كان محرماً عليهم أيام القوط، غير أن الحكومة فرضت عليهم دفع جزية سنوية تقسم على أقساط (شهرية) بَيْدَ أنها رفعتها عن النساء والأطفال والرهبان والزَّمْنى والعُمْى والمرضى. أضف إلى ذلك أنه كان مفروضاً على الملاك دفع الخراج، وهو ضريبة تُجْبَى عن المحصول وتحدد طبقاً لطبيعة أرض كل كُورة، ووضعت الجزية عمن يسلمون. أما الخراج فيستمر رغم إسلام المالك... وقد كان العرب شديدى التسامح، فلم يضيقوا الخناق قطُّ على أحد ما فى الناحية الدينية، ولم تكن الحكومة تميل لدفع المسيحيين إلى اعتناق الإسلام، ولم يجحد النصارى جميلها هذا، فكانوا راضين عنها لتسامحها واعتدالها، وآثروا حكمها على حكم القبائل الجرمانية والفرنجة))[1].

ثانياً : العمل على نشر الإسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية:

وبالرغم من قلة المعلومات عن جهود المسلمين فى مجال الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشره فى شبه الجزيرة بعد استقرار عمليات الفتح، وأننا نجهل الكثير عن هذه الجهود – فإنه يمكن القول بوجه عام – من خلال نُتَفٍ وأخبار متناثرة – ((إن الإسلام أخذ طريقه للانتشار فى إسبانيا، واتبع الفاتحون – الذين عبَّروا عنه، وشرحوه بسلوكهم – خطة لنشره، وبذلوا جهداً فى بيانه والدعوة إليه، وكان ذلك هدفاً واضحاً لدى الفاتحين فى أعمالهم كافة، فأتقنوا مهمتهم وحسنت مقدرتهم فى إظهار جمال الدعوة الإسلامية قولاً وعملاً، وحافظوا على إشراقه وجاذبيته، فأقبل الإسبان على دين الله سبحانه، مختارين حريصين، ودخلوه أفواجاً، حتى إن من لم يسلم منهم مارس بعض العادات الإسلامية، وتسمَّوا بأسماء المسلمين، وتكلموا لغتهم"[2].

وقد لمس الناس من غير المسلمين حسن معاملة المسلمين لهم، فأثار ذلك دهشتهم وقادهم إلى تقبُّل الإسلام وحب أهله، وكان من نتائج ذلك أن عاش المسلمون مع الآخرين بهذه الأخلاق، لا اعتداء على حقوقهم، بل عدل ووفاء، ولا انتقاص أو غمز، بل تكريم وتعليم، وإنصاف ورعاية فى كل الأمور، حتى فى الأمور العادية الجانبية، فضلاً عن الأساسية الضرورية[3].

---

(١) دوزى: المرجع نفسه ١/٤٧-٤٨. وراجع أقوال أخرى فى هذا الصدد لبعض المستشرقين الإسبان فى كتاب (دولة الإسلام فى الأندلس ١/٦٤-٦٦).

(٢) راجع: التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ١٥٦ (بتصرف يسير).

(٣) الحجى: المرجع نفسه ص ١٥٧- ١٥٨، أندلسيات (للحجى) ٢/٢٤.

ويتفق المؤرخون على أن الجيوش الإسلامية التى توجهت لفتح الأندلس كانت مصحوبة بعدد غيرِ قليل من التابعين، وهم الجيل الذى تلقى العلم عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نذكر منهم: حَنَش بن عبد الله بن حنظلة الصنعانى (من صنعاء الشام) (ت ١٠٠هـ) وهو الذى اختطَّ (أسَّس) جامع سَرَقُسْطة من ثغور الأندلس[١]. و"حِيَّان بن أبى جَبَلة القرشى – مولاهم – أبو رزق" (ت ١٣٢هـ)، كان أحد عشرة من التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز يفقهون أهل إفريقية، وشارك فى فتح الأندلس حتى وصل إلى حصن قَرقَشُونة، ويروى عن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو من الصحابة[٢].

وقد كان هؤلاء النفر من التابعين الذين جاءوا إلى الأندلس فى صحبة الجند، أو دخلوها وفوداً بعد الفتح، واستقر بعضهم فيها – وعددهم ثمانية وعشرون رجلاً كما ذكر ابن بشكوال فى كتابه "التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين"[٣]. – على حظ وفير من المعرفة بالإسلام. وكانت المهمة الرئيسية لهم – إلى جانب المشاركة فى الجهاد – تعليم المسلمين الجُدُد الدين الإسلامى، وشرحه لهم، وتوجيه الدعاة إليهم.، فرأى الناس من صفاء العقيدة وخلوصها لله تعالى والتشريع والقيم والأخلاق السامية ما لم يسمعوا عنه من قبل.

ومن النصوص القليلة التى تشير إلى الانتشار المبكر للإسلام فى الأندلس ما يروى أن عمر بن عبد العزيز رغب فى إجلاء المسلمين من الأندلس لانقطاعهم بها وعزلتهم فيما وراء البحر، فقيل له: ((إن الناس قد كثروا بها، وانتشروا فى أقطارها))[٤]. وكتب إليه السمح بن مالك – الوالى على الأندلس (١٠٠–٢٠٠هـ) يعرفه بقوة الإسلام، وكثرة مدائنها، وشرف معاقلها

---

(١) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، لابن الفرضى ١/١٤٨–١٥١، جذوة المقتبس للحميدى ١/٣١٥، نفح الطيب ٣/٧–٨.

(٢) تاريخ العلماء والروَاة بالأندلس ١/٤٦، نفح الطيب ٣/٩.

(٣) راجع: نفح الطيب ٣/١٠، ٦٠ ، ٦٤، التكملة لابن الأبار ١/٢٨٢.

(٤) البيان المغرب لابن عذارى ٢/٢٦.

فعدل عمر عن رأيه[1]. ويذكر المقّري في (نفح الطيب) – في حديثه عن والي الأندلس عقبة بن الحجاج السَّلولي (١١٦–١٢١هـ) – أنه "كان إذا أسَرَ الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، ويُبيِّن له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجل))[2].

ثالثاً: مواصلة الجهاد في الأندلس والتوسع الإسلامي فيما وراء جبال البُرتَات:

استمرت موجة المد الإسلامي بالأندلس في عصر الولاة، إذْ لم يكن المد الإسلامي حركة غزو وغنائم وسيطرة سياسية، بل هو موكب دعوة منير، وامتداد متصل، وجهاد دائم، ليعم نور الله المبين، وشرعه المكين أهل الأرض أجمعين.

وقد شمل جهاد هذا العهد موضعين، أو جهتين:

الأول : داخل الأندلس، ولا سيما الشمال.

الثاني : خلف جبال البُرتات في فرنسا (بلاد الغال – أو الأرض الكبيرة).

١ – الجهاد في شبه الجزيرة الأندلسية:

لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة، فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد، كما تألفت في بعض الأقاليم مراكز للمقاومة ضد المسلمين، واقتضى الأمر إخماد تلك المراكز وإتمام فتح الأندلس. وقد أخذ عبد العزيز بن موسى بن نصير على عاتقه هذا العبء. وكان قد باشر-قبل ولايته – فَتْحَ عدة مدن في شرق الأندلس والجنوب الشرقي مثل كُورة "تُدمير" (إقليم مرسية) وحاضرته "أُورْيُولة". وفي مدة ولايته (ذي الحجة ٩٥هـ – رجب ٩٧هـ) استكمل فتح بلاد غرب الأندلس (البرتغال حالياً)، غير أن المصادر العربية لم تزودنا بمعلومات عن المدن التي افتتحها، وإنما جاءت الإشارة عامة، كقول ابن القوطية: ((أقام يفتح ما بقي عليه من مدائن الأندلس))[3]، وقول المقّري: ((افتتح في ولايته مدائن كثيرة))[4]. وقال الرازي: ((لما قفل موسى بن نصير استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، فضبط سلطانها، وسدَّ ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة، وكان من خير الولاة، إلا أن مدته لم تطل))[5].

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٩.

(٢) نفح الطيب ١٩/٣، البيان المغرب لابن عذاري ٢٩/٢، وعنده (ألف رجل).

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦.

(٤) نفح الطيب ٢٣٤/١. وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٠٩–١١٠.

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ٢٤/٢.

ولا تعطينا المصادر معلومات واضحة عن جهاد بقية الـــولاة داخـــل الجزيـــرة الأندلسية لكن – وبوجه عام – لم يخل عهد الولاة من عمليات جهاد متفرقة – جديـــدة أو متممة – داخل الإقليم، تتمثل فى فتح جيوب صغيرة فى بعـــض المنـــاطق الشـــمالية، أو التصدى لبعض الفلول التى تتجمع للمقاومة وتتحصن فى مناطق نائية. ومـــن النصـــوص الواردة فى ذلك ما قاله صاحب كتاب (أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس) عقب الحديـــث عن كل من ولاة الأندلس: «وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو، ويتوســـعون فـــى البلاد حتى بلغوا إفرنجة، وحتى افتتحت عامة الأندلس»[1]. ويذكر ابن عذارى أن الوالـــى عقبة بن الحجاج السلولى (شوال ١١٦-١٢٢هـ) «كان يجاهد المشركين كل عام، ويفتتـــح المدائن، وهو الذى افتتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين، وعمـــت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة»[2].

٢- الجهاد خلف جبال البرتات:

كانت الأراضى الممتدة خلف جبال البرتات (بلاد غالة) منقسمة إلى عدة ولايـــات، منها[3]:

أ- ولاية "سبتمانية"، وتشتمل على سبعة مدن، وعاصمتها "أربونة".

ب- ولاية (أكيتانيه) – تقع إلى الشمال الغربى مـــن "ســـبتمانية" – وعاصمتـــها "برديل" الواقعة على مصب نهر الجارون.

ج- إقليم "بروفانس"، يقع إلى الشمال الشرقى من "سبتمانية". وعاصمته: مدينـــة "أبنيون"، وتقع على وادى رودنة (نهر الرون).

د- إقليم "برغندية" غربى نهر لارون، وعاصمته مدينة "لوذون" (ليون).

هـ – المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحاضرة، وكانت خاضعـــة للدولة "الميروفنجية".

وأول من غزا (بلاد غالة) من الولاة: الســـمح بـــن مـــالك الخولانـــى (١٠٠-١٠٢هـ)، فقد بدأ بالاستيلاء على "أربونة"، ثم مضى فى تقدمه حتـــى فتـــح "طولوشـــة"

---

(١) أخبار مجموعة ص ٢٥.

(٢) البيان المغرب ٢٩/٢ ، نفح الطيب ١٩/٣.

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٣٧. وراجع الخريطة (ص ٥٠).

(تولوز)، واستولى على ولاية سبتمانية كلها، وأقام بها حكومة مسلمة في هذا الوقت المبكر. وقد اتخذ من "أربُونة" قاعدة للجهاد وراء جبال البُرت، وتوغل في إقليم "أكيتانيا"، غير أنه استشهد في موقعة بالقرب من "طولوشة" انهزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدد كبير، وذلك في يوم عرفة (سنة ١٠٢هـ)، فتولى القيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وأقروه والياً للأندلس حتى يأتي الوالي الجديد، وكانت هذه هي ولايته الأولى ولم يدم فيها أكثر من شهر[١].

تولى عنبسة بن سُحَيْم الكلبي (سنة ١٠٣هـ)، وكان كالسمح بن مالك صالحاً قوياً، فقضى أربع سنوات من ولايته في تنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيش وإعداده لمواصلة غزو بلاد الفرنجة، وقد عبر عنبسة بجيوشه جبال البرتات، وتابع حركة الفتوح لإقليم سبتمانية بمدنه السبع، وافتتح إقليم "بروفانس"، واتجه شرقاً حتى بلغ نهر "الرون" ثم صعد مع النهر شمالاً حتى بلغ مدينة "ليون"، وتوغل بعدها حتى كان على بُعْد سبعين كيلو متر من جنوبي باريس الحالية، وهي أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً، وتبعد نحو ثمانمائة كيلو متر شمال جبال البرتات. وفي طريق عودته تصدت له جموع كبيرة من الفرنجة، فاستشهد في إحدى المعارك (سنة ١٠٧هـ)، فقام بقيادة الجيش والعودة إلى "أربُونة" (عُذرة بن عبد الله الفهري) الذي حكم حتى ربيع الأول سنة ١١٠هـ[٢].

وبالرغم من أن وصول الجيوش الإسلامية إلى هذا الحد، وأن ذلك يعد دليلاً قاطعاً على ما امتازوا به من جرأة وقوة . إيمان فإننا لا نستطيع القول-كما يرى الدكتور حسين مؤنس-بأن "عنبسة" فتح جنوبي غالة أو حوض الرون(بالمعنى الحقيقي)، لأنه في الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد، ولكنه على أي حال الفاتح المسلم الوحيد الذي وصل إلى هذا المدى في فتوحه. وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحي كما أتمت حملات زهير بن قيس، وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع في المغرب[٣].

---

(١) عن جهاد السمح بن مالك وراء البرتات راجع: تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضي ٢٣٠/١، نفح الطيب ٢٣٥/١، البيان المغرب ٢٦/٢، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ١٣٧-١٣٨، التاريخ الأندلسي للحجي ص ١٨٥-١٨٨، دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٨١/١.

(٢) راجع: البيان المغرب ٢٧/٢، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٥٤، المسلمون في الأندلس – للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٤/٧).

(٣) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ الأندلس ص ٢٥٥.

وقد أثارت حملة عنبسة مخاوف أوربا كلها، حيث إنه اقتحمها اقتحاماً، وأوغل بجيشه فى داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومته، الأمر الذى جعل القائم بمملكة الفرنجة إذ ذاك-وهو "شارل مارتل" أو "كارل"، وتسميه مصادرنا العربية "قارْلُه"- يشعر بأنه لابد من القيام بعمل حاسم إذا عاد المسلمون مرة أخرى. وبالفعل بدأ يستعد لهذا اللقاء، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد، وصالح أمراء "برغندية"، واتفق مع رجال "سبتمانية"، ومع دُوق (حاكم) "أكيتانية" ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين[1].

وبعد أن توالى على الأندلس سبعة من الولاة بين سنتى (١٠٧-١١٢هـ/٧٢٥-٧٣٠م) تفاقمت خلالها المشكلات وازدادت الاضطرابات وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل[2] عُيِّن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى والياً فى صفر ١١٢هـ، وهذه هى ولايته الثانية، وكان من أعظم قواد المسلمين فى الأندلس عدلاً وصلاحاً وقدرة وكفاءة، وقد قضى ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، وكوَّن جيشاً هائلاً يتراوح عدده ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف، جلُّهم من البربر.

معركة بلاط الشهداء(١١٤هـ/٧٣٢م):

وفى أوائل سنة ١١٤هـ/٧٣٢م سار الغافقى بجيوشه نحو الشمال، وعبر جبال "ألْبُرت" من طريق "بنبلونة" متجهاً إلى دوقية "أكيتانيا" أعظم ولايات غالة فى ذلك الوقت، فاكتسحها، ودخل عاصمتها "برديل" عنوةً، ثم واصل زحفه حتى أشرف بجيشه على نهر "اللوار" واستولى على مدينتى "بُواتييه" و "تُور"، وما كاد يخرج الجيش الإسلامى من "بواتييه" فى طريقه نحو باريس حتى فوجئ عبد الرحمن الغافقى بوصول جيش هائل من الفرنج والمرتزقة يقوده "شارل مارتن" (قارْلُه).

وعلى بُعْدِ عشرين كيلومتر شمال "بواتييه" فى الطريق إلى "تور" جنوبى مجرى اللوار فى موضع قريب من طريق رومانى قديم هو المسمى "بالبلاط" حدثت المعركة الكبرى بين الجيشين فى أواخر شعبان ١١٤هـ/أكتوبر ٧٣٢م. وقد تكون هذه المعركة وقعت بالقرب من موضع يطلق عليه اليوم اسم "مواسيه لاباتاى" Moussais la bataille . وتصمت المصادر العربية عن ذكر تفاصيل هذه الموقعة الفاصلة، ولعل

(١) حسين مؤنس: المرجع نفسه ص ٢٥٥.

(٢) راجع البيان المغرب ٢/٢٧-٢٨، نفح الطيب ١/٢٣٥-٢٣٦.



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

السبب فى ذلك يرجع إلى أنها كانت كارثة على جيش المسلمين، بحيث نفر قدامى المؤرخين من مجرد ذكرها، فاندرجت أخبارها فى زوايا النسيان .

وقد استمرت المعركة ثمانية أيام، مما يدل على أنها كانت معركة حامية. والحق أن كلاً من الجانبين بذل أقصى وسعه فى القتال، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حتى تجمعت عليهم قوات نصرانية من كل ناحية، ولم يقتصر الأمر على الفرنجة، بل انضم إليهم كثيرون من أجناس أخرى (ألمان، وسُواف وسكسون). وآخر مراحل المعركة كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامى، فانتهبت الغنائم، وتزعزع نظام الجيش، وبينما يحاول الغافقى إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم فقتله، فعم الاضطراب بين المسلمين وكثر القتل فيهم، واشتد الفرنج عليهم، لكنهم صبروا حتى جن الليل وتحاجز الفريقان دون فصل، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم فى "سبتمانيا" تاركين غنائمهم، وأصبح الفرنجة فلم يجدوا لهم أثراً سوى الجرحى ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب، فأجهزوا عليهم، وانتهبوا ذخائر عظيمة، ولم يفكروا فى تتبع المسلمين(١).

ومهما قيل من أسبابٍ لتعليل خسارة المسلمين فى معركة "بلاط الشهداء" – من مثل ما قيل عن وجود خلاف فى الجيش الإسلامى (العرب والبربر)، وابتعاد الجيش عن بلاد الإسلام بحيث أصبح على بعد (٤٠٠ ك.م) شمال جبال ألبرت التى تبعد عن قرطبة مسافة (٩٠٠ ك.م) مما جعل موالاته بالمؤن والإمداد أمراً عسيراً، بينما كانت خطوط إمداد الفرنجة سهلة ومتصلة، إضافة إلى أن المناخ لم يكن مناسباً لخوض الجنود والخيول العربية تلك المعركة القاسية، وأن المسلمين ساروا مثقلين بغنائم المعارك السابقة، مما دفع العدو إلى ضرب مؤخرة الجيش الإسلامى فارتبكت صفوفه، هذا إلى أن إمارات "غالة" كانت قد تكتلت جميعاً لمواجهة جيوش الإسلام وصدها عن الجنوب(٢) – أقول: مهما قيل

---

(١) عن معركة بلاط الشهداء راجع بتوسع: دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ١/٩٢-١١١، معالم تاريخ المغرب والأندلس للسيد سالم ص ١٤٠-١٤٧، التارخ الأندلسى للحجى ص ١٩٣-٢٠٣، المسلمون فى الأندلس لعبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٧/١٥-١٦)، الأندلس فى التاريخ لشاكر مصطفى ص ٢٦. وراجع: الكامل لابن الأثير ٤/٤٠٤ (ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م)، البيان المغرب ٢/٢٨، نفح الطيب ١/٢٣٦، ٣/١٥-١٦.

(٢) راجع معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٥٧، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد سالم ص ١٤٣.

من مثل هذه التعليلات وغيرها، وبعيداً عن مدى صحة بعضها وواقعيتها فإن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب، ففي سهول (تُور)، و(بُواتييه) فقد المُسلمون سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصائر العالم القديم كله، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام، ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى، لينفذ إلى قلب أوربا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه يوم مسيره إلى بلاط الشهداء. وبينما شغلت إسبانيا بمنازعاتها الداخلية إذْ قامت فيما وراء ألْبُرتات إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة تهدد الإسلام فى الغرب، وتنازعه السيادة والنفوذ[1].

الجهاد خلف البُرت بعد وقعة بلاط الشهداء:

ولم تكن معركة "بلاط الشهداء" آخر نشاط الجهاد الإسلامى وراء جبال ألْبُرْت فى عهد الولاة، فقد تولى عبد الملك بن قطن الفهرى ولايته الأولى (١١٤-١١٦هـ) بعد استشهاد الغافقى، فغزا أرض "البُشْكُنْس" سنة ١١٥هـ[2]، ثم عبر جبال ألْبُرْت، واستطاع أن يعيد الهدوء فى إقليم سَبْتَمانيا وما يليه من بلاد غالة، وعمل على تحصين المدن والمعاقل التى كانت فى أيدى المسلمين، وتمكّن فى وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التى تخلفت عن هزيمة "البلاط". وفى الوقت نفسه شُغل شارل مارتل (قارله) بمدافعة أعداء كثيرين من أبناء جنسه فى شمال مملكته، فأتيحت الفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد[3].

ويُعدُّ عُقبة بن الحجاج السَّلُومى (١١٦-١٢١هـ) خاتمة الولاة المجاهدين وراء جبال ألبرت، وكان عقبة قائداً عظيماً مثل الغافقى، فإلى جانب توغله فى إقليم جلِّيقية فى شمال غربى الأندلس وتحصينه لجميع المواقع الإسلامية منح عناية خاصة لثغر "أربونة"، واتخذه قاعدة للجهاد، وكان يخرج كل عام على مدار خمس سنوات فى الجنوب والشمال الشرقى من فرنسا حتى أصبح

(١) د. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ١/١١١.
(٢) نفح الطيب للمقرى ٣/١١٩. وسيأتى التعريف بالبشكنس (ص).
(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٨ وفجر الأندلس ١٧٦، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٤٦-١٤٧.

نهر "الرُّون" (رودنه) رباط المسلمين ومعقل فتوحاتهم. ولم يشمل جهاده غرب فرنسا حيث مقاطعة أكيتانية (أقيطانية)، واستشهد في معركة عند مدينة "قرقشونة" إحدى مدن مقاطعة "سبتمانية" سنة ١٢١هـ/٧٣٩م[١]. وقد جرت بعد ذلك في الأندلس أحداث شغلت المسلمين عن متابعة هذا الجهاد، بل هددته وأتت على كثير منه إن لم يكن كله.

رابعاً: الفتن والعصبيات القبلية وأثرها في انحسار المد الإسلامي في شمال الأندلس وخلف جبال البُرْتات:

ومن أهم ما تتسم به فترة الولاة – في بعض سنواتها – من الناحية السياسية أنها فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر من ناحية، ثم بين العرب أنفسهم البلديين (اليمنية) والشاميين (القيسيين) من ناحية أخرى.

١- بدأ النزاع بين القيسية (الشاميين) واليمنية يظهر بصورة واضحة عندما أرسل أبو عبيدة القيسي (حاكم إفريقية) بقريبه الهيثم بن عبيد الكناني والياً على الأندلس (المحرم ١١١هـ)، وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين (القيسيين)، فانحاز إليهم، واضطهد اليمنية ، وسجن زعماءهم[٢].

٢- وفي ولاية عبد الملك بن قَطَن الفهري- الولاية الثانية له (١٢٢- ١٢٣ هـ) كثرت الفتن والاضطرابات، وقام البربر بثورة عارمة، لا بسبب ما قيل إن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي ، تاركين للبربر أسوأها ، أي المناطق الجبلية القاحلة (فهذا غير صحيح ، فإن أراضي الأندلس الخصيبة كانت من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وبربر، ولم يكن المسلمون إذا دخلوا بلداً اقتسموا أراضي الناس فيما بينهم) وإنما السبب الحقيقي هو أن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم، ظناً منهم أن الدولة الأموية دولتهم وكان معظم هؤلاء من الشامية أي من القيسية. أما العرب البلديون – ومعظمهم من اليمنية- فكانوا بعيدين عن هذه النزعة، لأنهم كانوا أهل أرزاق ومعاش، في حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم[٣].

---

(١) المسلمون في الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٦/٧)، التاريخ الأندلسي للحجي ص ٢٠٤-٢٠٥، وراجع نفح الطيب ٢٣٦/١، ١٩/٣ ، البيان المغرب ٢٩/٢.

(٢) راجع معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٣-٢٤٤، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٣١.

(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤-٢٤٥.

وكان البربر قد ثاروا بالمغرب في ولاية عبيد الله بن الحَبْحاب (١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤ م) وكان قيسياً متعصباً للعرب ضد البربر، وعيَّن عمر بن عبد الله المرادى حاكماً على (طنَجة)، " فأساء السيرة، وتعدَّى في الصدقات والعُشْر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فَئٌ للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يُخمِّسون من لم يُجِبْ للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد»[١]. وفي أثناء ذلك كثر مجئ الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسللوا بين قبائل البربر، وأخذوا يبثون مبادئهم وتعاليمهم بينهم، واقتنع البربر بهذه المبادئ، فاعتنقوها، وظهر لهم رئيس يعرف بميسرة المدغرى (= المطغرى) قادهم إلى الثورة، واستولوا على طنجة وقتلوا عاملها[٢]. ثم إن البربر في المغرب ولَّوا أمرهم قائدا آخر منهم هو خالد بن حميد الزناتي، وهذا الرجل استطاع أن يهزم العرب في معركة حامية تسمى "معركة الأشراف" سنة ١٢٢هـ، وسميت كذلك لكثرة من قتل فيها من "حماة العرب وفرسانها وكماتها وأبطالها"[٣].

وقد انعكست أصداء هذه الثورة على الأندلس، فتجرأ من كان بها من البربر، وثاروا على العرب، وأخرجوهم من المناطق البعيدة عن مركز الإمارة الواقعة في أطراف الأندلس، مثل المناطق الشمالية في جِلِّيقية وأَشْتُورِيش وغرب الأندلس، وهي المناطق التي يسكنها أغلبية بربرية[٤].

وكان الوالي على الأندلس إذ ذاك-كبير العرب البلديين-يظن هو ومعظم من معه من اليمنية أن الثورة قامت على الشاميين، ثم ما لبث أن تبين أنها موجهة إلى العرب جميعا، وأن البربر يسيرون في جيوش ثلاثة، متجهة إلى طليطلة وقرطبة والجزيرة الخضراء، فخاف الرجل سوء العاقبة[٥].

---

(١) البيان المغرب ١/٥٢.

(٢) البيان المغرب ١/٥٢-٥٣، تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤.

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢١٧-٢١٨، البيان المغرب ١/٥٣-٥٤. وراجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٦٣-٦٥، التطور السياسي للمغرب من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن العاشر الهجري، للدكتور طاهر راغب حسين ص ١١٤-١١٧.

(٤) أخبار مجموعة ص ٣٨، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣١، البيان المغرب ٢/٣٠، وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٥٧-١٥٨.

(٥) أخبار مجموعة ص ٣٨.

وفى تلك الأثناء كان أحد القادة العرب فى المغرب- ويدعى "بلّج بن بشر القشيرى" وهو شامى قيسى - محاصَرًا فى مدينة (سبتة) من قِبل البربر بعد هزيمة "الأشراف"، وقد اشتد هذا الحصار عليه حتى أشرف هو ومن معه على الهلاك، وكانوا عشرة آلاف من الشاميين، فاستنجد "بلج" بعبد الملك بن قَطَن- والى الأندلس- واستأذنه فى العبور إليه هو وأصحابه، وذكر له ما صاروا إليه من الجهد، فخافهم على سلطانه. فلما ثار بربر الأندلس على عربها وزحفوا إلى وسط البلاد خاف ابن قطن أن يكون مصير العرب بالأندلس مصير "بلج" ورفاقه فى "سبتة"، فاضطر إلى التعاون مع الشاميين للقضاء على العدو المشترك، شريطة أن يبارحوا الأندلس بعد انتهاء مهمتهم. وقد حقق هؤلاء- مع عبد الملك بن قطن- انتصارات على البربر فى "شذونة" و"قرطبة"، ثم فى معركة حاسمة قرب "طليطلة" عند وادى "سليط" (سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م)[١]. ثم أخذ أولئك العرب الشاميون يطاردون البربر، فتركوا أراضيهم فى الوسط والشمال الغربى، وعادوا إلى إفريقية فى هجرات جماعية كان لها أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام فى الأندلس، إذْ كان من نتيجة تلك الهجرات أن تركت الأراضى شمالى نهر "تاجه" خالية من المسلمين تقريبا، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال، فساحوا فيها، ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت تلك الأراضى نصرانية، وخسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة، دون أن يخرجهم منه عدو، وإنما نتيجة انقسامهم وبغض بعضهم بعضا[٢].

٣- انتهت مهمة الشاميين أصحاب "بلج بن بشر" ورفضوا العودة إلى إفريقية عن طريق سبتة، وقالوا لعبد الملك بن قطن: ((تعرضنا لبربر طنجة؟!. اقذف بنا فى لجة البحر أهون علينا. فلما رأوا ما يريد بهم ثاروا عليه وأخرجوه من القصر وبايعوا (بَلْجًا) صاحبهم))[٣]. وعندئذ اختلط أمر الناس فى الأندلس، وقتل عبد الملك، ونشبت معارك بين الشاميين والبلديين، قتل فيها "بلج"، لكن انتصر الشاميون، وولوا على الأندلس "ثعلبة بن سلامة العاملى" (١٢٤هـ/٧٤٢م)، ولم ينجح فى الحرب من جديد، وانقسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وإلى أن جاء "أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى واليًا على الأندلس (فى رجب ١٢٥هـ/مايو ٧٤٣م)"[٤].

---

(١) البيان المغرب ٢/٣٠-٣١. وراجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٥.

(٢) راجع: معالم ص ٢٤٥، المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ١٧/٧).

(٣) أخبار مجموعة ص ٤١.

(٤) راجع البيان المغرب ٢/٣٢-٣٣.

وقد بدأ هذا الرجل ولايته بتأمين العرب البلدانيين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم، وحال بين الشاميين وبين إيذائهم، واجتهد فى القضاء على المنازعات القبلية بين السكان عامة، وقام بتفريق العرب الشاميين (وقد تجمع أكثرهم فى قرطبة وإقليمها) فى مناطق لا ينزلها من البلدانيين وأهل اليمن أحد، بحيث يستقر كل فريق منهم بناحية، ويحصل على ثلث الخراج الذى يؤديه نصارى الذمة والمزارعون، فى مقابل أن يمدوا الوالى بعدد من الجند كلما طلب منهم ذلك(1). غير أن أبا الخطار ما لبث أن تخلى عن تلك السياسة الحكيمة، ومال إلى قومه من اليمنية، وتحامل على المضرية، وأسخط القيسية، فعادت المعارك بينه وبين خصومه من جديد، وقتل بعضهم بعضا، وعمت الفوضى البلاد إلى أن اتفقت الكلمة على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (١٢٩هـ/٧٤٧م) دون مصادقة من ولاية إفريقية أو من الخلافة فى دمشق، إذ كانت الدولة الأموية مشغولة بكثرة وثورات الخوارج وبخطر الدعوة العباسية، فلم تتمكن من الإشراف على الولايات، فاستقلت الأندلس بشئونها(2).

٤- وقد كان للقيسيين (الشاميين) زعيم يسمى "الصميل بن حاتم بن شمر" ويلقب "بذى الجوشن "، وهو رجل عرف بالشجاعة والبأس والشهامة والجود، غير أنه كان عنيفا فى خصومته، شديد الحقد على شانئيه، ولا ينسى ثأره. وقد هداه نظره فى أحوال الأندلس إلى أن يتعاون مع يوسف الفهرى زعيم البلديين، على أن تكون الإمارة ليوسف ويكون هو مستشاره وصاحب رأيه. ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع زعيم يمنى يسمى "يحى بن حريث الجذامى" وكان حاكما على كورة "ريه " - بلغت عصبيته مبلغا جعله غير قادر على احتمال أهل الشام بأى سبيل، فتضامن مع أبى الخطار الكلبى اليمنى (الأمير المعزول من قبل) ضد الصميل ويوسف الفهرى، وبالغ كل فريق فى حشد الجموع، والتقوا فى "شقنبدة" بالقرب من قرطبة سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م، ونشبت موقعة هائلة

---

(1) هذه المناطق هى - كما ذكرها ابن عذارى فى (البيان المغرب) - "١- إلبيرة: وينزلها أهل دمشق/ ٢- رية (المعروفة بمالقة) وينزلها أهل الأردن / ٣- شذونة: وينزلها أهل فلسطين/ ٤- إشبيلية: وينزلها أهل حمص/ ٥- جيان: وينزلها أهل قنسرين/ ٦- تدمير (المعروفة بمرسية): وينزلها أهل مصر. وقيل نزل أهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير" (البيان المغرب ٣٣/٢. وراجع: نفح الطيب ٢٣٧/١).

(2) نفح الطيب ٢٣٨/١، البيان المغرب ٣٣/٢-٣٥.

وصفها المؤرخون بأنه ((لم يعهد حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصِفّين))[1]، وانتهت بهزيمة اليمنية ومقتل ابن حريث وأبى الخطار الكلبى، وخلا الأمر بعد ذلك للصميل، وأصبح هو الوالى الفعلى للأندلس، فكانت له الرئاسة والتدبير، ولم يحظ يوسف الفهرى بشئ سوى لقب الولاية، دون أن يكون له تأثير، وبعبارة المؤرخ ابن عذارى: ((فكان ليوسف الاسم، وللصميل الرسم))[2]، وهدأت الأحوال إلى حين.

وقد أدت الحروب المتوالية بين العرب بعضهم بعضا، وبينهم وبين البربر إلى وقوع مجاعة شديدة بلغت أقصاها (سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م)، وترتب عليها تزايد حركة الهجرة إلى المغرب، وقلة عدد المسلمين فى شبه الجزيرة عما كان. وقد شملت المجاعة جميع أنحاء الأندلس، باستثناء مدينة "سَرَقُسْطة". وأكثر أهلها يمنيون، اعتزلوا الفتنة، واستقروا فى الأرض، وزرعوها وكثرت خيراتها[3].

وأثناء هذه الفتن استطاع الفرنج الاستيلاء على جميع القواعد الإسلامية وراء جبال البرتات، ماعدا "أربونة" أمنع قلاع المسلمين هناك، وقد قاوم المسلمون بها وصبروا على مدار أعوام عديدة حتى استولى الفرنج عليها وخربوا مساجدها ودورها (سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م). وبذلك انتهى الوجود الإسلامى فيما وراء جبال "البُرْتات" بعد أن استقر هناك ما يقرب من نصف قرن . حدث هذا فى الوقت الذى كانت فيه قوى الإسلام فى شبه الجزيرة الأندلسية مشغولة بتمزيق بعضها بعضا[4].

وقد استفادت المجموعة القوطية التى اعتصمت فى جبال أَشْتُورِيش بجِلِّيقية فى شمالى غرب إسبانيا- والتى عرفت بمجموعة "بِلاى"[5]- من هذه المنازعات القبلية، فخرجوا من كهوف الجبال، وأخذوا يحتلون الأراضى التى تركها البربر وراءهم حتى قويت شوكتهم، وتكاثرت أعدادهم، وثبتت أقدامهم، وتمكن " بلاى" من هزيمة المسلمين فى موقعة "كوفا دونجا" (١٣٣هـ/٧٥٠م) وأخرجهم من جِلِّيقية كلها، فتقهقروا إلى "أَشْتُرقة".

---

(١) البيان المغرب ٣٦/٢.

(٢) البيان المغرب، نفس الجزء والصفحة. وراجع نفح الطيب ٢٣٨/١، دولة الإسلام فى الأندلس لعنان ١٣١/١، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد سالم ص ١٦٣-١٦٤.

(٣) البيان المغرب ٣٨/٢. وراجع معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٨.

(٤) راجع المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ١٨/٧).

(٥) راجع ما ذكرناه عن هذه المجموعة ص ٣٩.

وقد اعتبر بعض المؤرخين أن انتصار نصارى الشمال فى هذه المعركة – التى ضخم الإسبان قيمتها، ولم تخرج عن كونها مناوشات حدثت بين المسلمين و"بلاى" – هو البداية الحقيقية لقيام مملكة "جِلِّيقية" (أو دولة أشتوريس)، والبداية الحاسمة لحركة المقاومة النصرانية فى شبه الجزيرة التى تعرف عادة بـ "حركة الاسترداد"[1].

والخطير فى الأمر أن تراجع المسلمين لم يقف عند حدود "أشتوريس"، بل إنه زاد فى عهد الملك ألفونسو الأول[2] (١٣٥-١٤٢هـ/٧٥٢-٧٦٠م) الذى حكم بعد "بلاى" بعامين، وضم إلى الدولة الناشئة بعض المدن والمراكز الهامة مثل "ليون" (Leon) و"سَمُّورة" (Zamora) و"شَلَمَنْقة" (Salamanca)، و"شَقُوبية" (Segovia) و"سلدانيا" (Saldana) وغيرها. وكلها مراكز هامة أتعب المسلمون أنفسهم فى فتحها، ثم ضاعت فى غمرة النزاع المقيت، وأصبحت منطقة الثغور – أى الحدود التى تفصل ملك المسلمين عن ملك النصارى قبل تأسيس دولة بنى أمية فى الاندلس – تبدأ من "بَنْبَلُونة" فى الشمال الشرقى، وتنحدر إلى "تُطِيلة"، ثم "وادى الحِجارة"، ثم "هَنَّارس "، ثم "طليطلة" ثم "طَلَبِيرة"، "قُورية"، وتنتهى عند "قلمرية"[3]، أى أن المسلمين فقدوا ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل قدوم عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ/٧٨٥م) وعلى هذا الأساس نشأ وضع جديد سيكون محورا من أهم محاور التاريخ الأندلسى كله، وهو أن شبه الجزيرة الإيبيرية لن تكون منذ ذلك التاريخ قطرا إسلاميا خالصا، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية، وأن كلا من الدولتين ستسير فى طريقها. وأن النزاع بينهما سيستمر ويطول حتى ينتهى أخيرا – وبعد ثمانية قرون – بالقضاء على الدولة الإسلامية، وعودة إسبانيا نصرانية كما كانت[4].

***

---

(١) راجع العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٣٨، ٣٩.

(٢) تسميه المراجع العربية عادة بـ "أذفونش" أو "ألفونش". وهو جد بنى ألفونش الذين اتصل حكمهم بعد ذلك، ووحدوا المناطق الشمالية كلها واستطاعوا أن يستردوا بلادهم بقيادة الملكين الكاثوليكين (فرلند) ملك أرغون – و(إيزابيل) ملكة "قشتالة" و"ليون"

(٣) راجع الخريطة (ص ٨٦).

(٤) راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٦٨-١٧٠، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ص ٣١-٣٩.



الفصل الثالث

عصر الإمارة الأموية (١٣٨- ٣١٦ هـ/٧٥٦-٩٢٩ م)

مدخل: استمر عصر الإمارة الأموية بالأندلس مدة قرن وثلاثة أرباع القرن، ويبدأ من (سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م)، وينتهى فى السنة التى أعلن عبد الرحمن الناصر فيها الخلافة الأموية، وهى (سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م). ويعتبر بعض الباحثين فترة الإمارة مع فترة الخلافة عصراً واحداً، هو عصر الدولة الأموية (١٣٨-٤٢٢هـ/٧٥٦-١٠٣١م). وقد سمى عصره الإمارة بهذه التسمية لأن الأندلس كانت تحكم بواسطة أمراء أمويين مستقلين عن الخلافة العباسية بالمشرق. ويمكن تقسيم هذا العصر إلى فترتين رئيسيتين:

الأولى: فترة تأسيس الإمارة . وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض والمشاكل التى عاناها الحكم الأندلسى فى عهد الولاة.وتتمثل هذه الفترة فى أربعة من الأمراء الأمويين هم:

١- عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الأول - الداخل - صقر قريش) (١٣٨- ١٧٢هـ/ ٧٥٦-٧٨٨م).

٢- هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (هشام الرضا) (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨م - ٧٩٦).

٣- الحكَم بن هشام (الربَضى) = الحكم الأول (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م).

٤- عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثانى = الأوسط) (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م).

والثانية: فترة صراع الإمارة، وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية هو الصراع على تلك الإمارة الأموية الناشئة التى تعرضت لعدد من الأحداث الجسام، وخاصة أيام آخر أمرائها حتى أوشكت على السقوط. ويسمى بعض الباحثين هذه الفترة الثانية بعصر الاضمحلال الأول، أو دويلات الطوائف الأولى، حيث تولى الأندلس أمراء ضعاف مدة تقرب من ثلثى قرن، تمزقت خلالها وحدة الأندلس، حتى أصبح نفوذ بنى أمية لا يتعدى قرطبة ونواحيها. وقد حكم فى هذه الفترة من تاريخ الأندلس ثلاثة من أمراء بنى أمية الأندلسيين، وهم:

١- محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ - ٨٥٢-٨٨٦م).

٢- المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م).

٣- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م). وتولى من بعده عبد الرحمن بنُ محمد بن عبد الله بن محمد (عبد الرحمن الناصر - الثالث)، وبقى أميراً إلى السنة التى أعلن فيها الخلافة (٣١٦هـ/٩٢٩م) وصار يُلقَّب بأمير المؤمنين.

دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وبداية عصر الإمارة

سقطت الدولة الأموية بالمشرق سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م)، وأخذ العباسيون يتعقبون أمراء بنى أمية ويطاردونهم فى كل مكان. لكن واحداً منهم - وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان - نجح فى الإفلات من العباسيين، رغم المحاولات العديدة التى قام بها هؤلاء لمطاردته، واستطاع أن يصل إلى مصر، وفى صحبته غلامه "بدر" و"سالم" غلام شقيقته، ثم سار منها إلى "برقة" والتجأ إلى أخواله من "بنى نَفْزَة" - من برابرة طرابلس - وأقام عندهم مدة[1]، ثم انتقل إلى إفريقية (تونس)، لكنه لم يستقر طويلاً إذْ إن عاملها عبد الرحمن بن حبيب - الذى استقل بولاية المغرب كله بعد سقوط الدولة الأموية - خاف على إمارته من الأمراء الأمويين الذين أخذوا يفدون إلى بلاده لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية، فأسرف فى مطاردتهم، وقتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأموى، وعزم على قتل عبد الرحمن، ففر من القيروان، واستقر به المطاف أخيراً فى المغرب الأقصى، فى "سَبْتَة" أو "مَلِيلَة"، وبدأ يُعِدُّ العدة لدخول الأندلس، وكان قد عرف الكثير من أخبارها وأحوالها وما تعانيه من اضطراب وخلاف على الرياسة، وثورات مستمرة.

وبعيداً عن التفاصيل التى يذكرها المؤرخون فى معرض الحديث عن دخول عبد الرحمن الأندلس، وتغلُّبه على قادتها حتى استقر له الأمر وبويع بالإمارة نكتفى هنا بما نقله المقَّرى فى كتابه (نفح الطيب) حيث قال: «وبعث - أى عبد الرحمن - بدراً مولاه إلى من بالأندلس من موالى المروانيين (الأمويين) واشياعهم، فاجتمع بهم، وبثوا له فى الأندلس دعوة، ونشروا له ذكراً، ووافق قدومه ما كان من الإحَن بين اليمنية

---

(١) كانت أم عبد الرحمن بربرية، من سبى قبيلة "نَفْزَة"، وتسمى "راح" أو "رداح" (أخبار مجموعة ص ٥٥، البيان المغرب ٢/٤١).

والمضرية، فأصفقت (أجمعت) اليمنية على أمره، ورجع بَدْر مولاه إليه بالخبر، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة، ونزل بساحل المُنَكَّب، وأتاه قوم من إشبيلية فبايعوه، ثم انتقل إلى كُورة ريّة، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شَذَونة، ثم إلى مَوْرُور، ونَهَد إلى قرطبة، فاجتمعت إليه اليمنية، ونُمِىَ (بُلِّغ) خبره إلى (والى) الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى دعا إلى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، فرجع إلى قرطبة، وأشار عليه وزيره الصُّميل بن حاتم بالتلطف له، والمكر به، لكونه صغير السن، حديث عهد بنعمته، فلم يتم ما أراده، وارتحل عبد الرحمن من المنكَّب، فاحتل بمالَقَة فبايعه جندها، ثم رُنْدة، ثم شَرِيش، ثم إشْبِيلية، وتوافت له جنود الأمصار، وتسايلت المضرية إليه، حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهرية (قومه) والقيسية لمكان الصميل منه زحف عبد الرحمن (الداخل) بجيشه، وناجزهم الحرب (فى معركة حاسمة عرفت بمعركة المسارّة أو المصارّة فى طرف قرطبة الغربى عند الوادى الكبير، فى التاسع من ذى الحجة ١٣٨هـ) فانكشف يوسف، ونجا إلى غرناطة، واتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله، ثم رغب إليه يوسف فى الصلح، فعقد له على أن يسكن قرطبة، وأقفله معه، ثم نقض يوسف عهده، وخرج (سنة ١٤٢هـ) ولحق بطليطلة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر، فقدَّم عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المروانى وابنه عمر بن عبد الملك، فكانت الدائرة على يوسف، وأَبْعَدَ المَفَرَّ، واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة، فاستقام الأمر لعبد الرحمن، وثبت قدمه فى الملك ... وكان يُعرف بالداخل، لأنه أول من دخل من بنى مروان إلى الأندلس (حاكماً)، وكان أبو جعفر المنصور يسميه: صقر قريش، لِمَا رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل، وما ركب إليها من الأخطار، وأنه نَهَدَ إليها من أنأى ديار المشرق من غير أنصار، فغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم، حتى انقاد له الأمر، وأورثه عَقِبَه» [1].

ولم يكن عُمْر "عبد الرحمن الداخل" حين حقق هذا الإنجاز يتجاوز السادسة والعشرين، لكنه كان رجل الموقف، شحذت همته الخطوب والمحن، وأعدته لحياة النضال

---

(١) نفح الطيب ١/٣٢٨-٣٣٠ بشئ من التصرف اليسير. وراجع التفاصيل فى البيان المغرب ٢/٤٠-٤٧، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٧٩-١٩٦، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية لمحمد عبد الله عنان ص ١٣٩-١٤٣.

والمغامرة، فقضى بقية عمره – اثنين وثلاثين عاماً – فى كفاح مستمر، لا يكاد ينتهى من معركة حتى يخوض معركة أخرى، ولا يقمع ثورة إلا تلتها ثورة، ولم تبق فى الأندلس ناحية أو مدينة إلا نازعته فى الرياسة، فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يشتعل بنيران الحرب والثورة، لكنه صمد لتلك الخطوب جميعاً، واستطاع بما أُوتى من حزم وحسن سياسة وعُلُوّ الهمة والجلد والإقدام أن يغالب تلك الأخطار والقوى، وأن يقبض على زمام الأمور بيده القوية.

ولا نستطيع – فى هذا الموجز – أن نتتبع تلك المعارك والفتن التى اضطر عبد الرحمن الداخل إلى خوضها والعمل على التخلص منها، ويبقى أن نقول: كانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة من أعظم شخصيات الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام، إذْ كان يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة مكَّنته من أن يضع لنفسه ولمن جاء من بعده سياسة حكيمة لدولة سليمة البناء، تقوم على أسس ومبادئ سياسية وإدارية ومالية تمكنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور، وقد أجمل ابن حيَّان شيخ المؤرخين الأندلسيين (ت ٤٦٩هـ) صفاته فى قوله: «كان عبد الرحمن راجحَ الحلم، فاسحَ العلم، ثاقبَ الفهم، كثيرَ الحزم، ناقدَ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يُخْلِد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَةٍ، ولا يكلُ الأمورَ إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغَوْر، شديد الحِدَّة، قليلَ الطمأنينة، بليغاً مُفَوَّهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان قد أُعطى هيبة من وليِّه وعدوه، وكان يحضر الجنائز، ويصلى عليها، ويصلى بالناس – إذا كان حاضراً – الجُمُعَ والأعياد، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم»[1].

وبهذا التعامل سار عبد الرحمن الداخل فى الأندلس، وأخضع الثائرين، وثبت أركان الدولة، وكف العادية عنها، فعادت لها وحدتها واستقرارها. وسيأتى الحديث عن جانب من جهوده فى مواجهة الخارجين عليه.



---

(١) نفح الطيب للمقرى ٣٧/٣.

أبرز الأحداث فى عصر الإمارة:

وقد وقعت فى هذا العهد عدة أحداث. وتشتمل هذه الأحداث فى الأغلب الأخطار التى داهمت الأندلس من الخارج، والفتن والثورات المتنوعة التى كان لها ارتباط بالحياة فى الداخل. ونبدأ بذكر أهم الأحداث الداخلية.

أولاً: أهم الأحداث الداخلية:

(أ) فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م):

١- عرفنا قبل قليل – فى سياق الحديث المنقول عن المقّرى – أن عبد الرحمن الداخل اعتمد فى إقامة دولته على البلديين من العرب اليمنيين والبربر. وقد تصور اليمنيون أن من حقهم – ماداموا قد ناصروا عبد الرحمن وأعانوه على إقامة الدولة – أن يفعلوا ما يشاءون، فينشروا الفوضى، ويثيروا الفتن ويغرقوا البلاد فى العصبيات القبلية كما كان الحال من قبل. لكن عبد الرحمن أثبت أنه لا يفرق بين شامى وبلدى، أو بين بربرى ويمنى فجميعهم يضمهم وطن واحد، وعليهم أن يخضعوا للعاصمة المركزية. غير أن تلك السياسة الجديدة لم تعجب اليمنيين، وعدُّوها لوناً من الجحود والنكران لفضلهم، فتوالت ثوراتهم على عبد الرحمن من كل ناحية، لكنه تمكن من قمع هذه الثورات فى "الجزيرة الخضراء" و"إِشْبِيلية" و"طُلَيْطلة" و"باجَة" معتمداً على مقاتلى بنى أمية وحشود البربر وأهل البلاد[1].

ولعل من أخطر الثورات التى واجهت عبد الرحمن الداخل هى:

٢- ثورة "العلاء بن مغيث اليحصُبى" فى "باجُّة" بغرب البلاد، (سنة ١٤٦ هـ)، وهو من وجوه أهلها وذوى الرئاسة بها. وكان قد كاتب أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسى) واستصدر منه سجلاً بولاية الأندلس، وقام بالدعوة العباسية بها، وجمع حوله جنداً عظيماً، ورفع الراية السوداء شعار العباسيين وعظم أمره جداً ((إلى أن كادت دولة الأمير أن تتصرم)) كما يقول ابن عذارى فى (البيان المغرب)، ويواصل كلامه قائلاً: ((وخرج إليه عبد الرحمن من قرطبة، وصار بقرْمُونة، فتحصن بها مع مواليه وثقات

---

(١) راجع عن ثورات اليمنية: البيان المغرب ٢/٥٠، ٥٣-٥٤، أخبار مجموعة ص ١٠١ . وراجع معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٦٢، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٧/٢٠).

رجاله، فنازله العلاء بن مغيث منازلة شديدة، وحاصره بها أياما عديدة، فلما طال الحصار هنالك، وتخلخل عسكر العلاء لذلك، وعلم عبد الرحمن ما هم عليه من الانزعاج، وأنهم قد هموا بالإلجام والإسراج، أمر بنار فأوقدت، ثم أمر بأغمدة سيوف أصحابه فأحرقت، وقال لهم: اخرجوا معى لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع. وكانوا نحو سبعمائة من الرجال ومشاهير الأبطال، فأخذوا معه سيوفهم بأيديهم، وخرجوا مفحصين إلى أعاديهم، فدارت الحرب بينهم طويلا، إلى أن صنع الله جميلا، وزلزل قوم العلاء وأصحابه، فولوا منهزمين، وقتل العلاء فيمن قتل من أولئك الأقوام، وطيف برأسه فى ذلك المقام))[1].

٣- ثورة "شقيا بن عبد الواحد المكناسى البربرى" فى منطقة "شنتبرية". وكانت من أخطر الثورات التى هددت عبد الرحمن الداخل وأطولها، إذ استمرت من (سنة ١٥١هـ) إلى (سنة ١٦٠هـ) (٧٦٨-٧٧٧م)، وامتدت ما بين "ماردة" و"قورية" غربا، إلى ثغور "وادى الحجارة" و"كونكة" شرقا، أى فى جميع الهضبة التى تتوسط شبه الجزيرة. وكان هذا الثائر فقيها معلم صبيان، وكانت أمه تسمى "فاطمة"، فادعى أنه من ولد فاطمة رضى الله عنها، ثم من ولد الحسين بن على رضى الله عنه، وتسمى بعبد الله بن محمد، وقد سير عبد الرحمن الداخل جيوشا كثيرة لمحاربته، ولم يتمكن من القضاء عليه إلا بتدبير دبره بعض أصحاب له فاغتالوه (سنة ١٦٠هـ). ولعل هذه الثورة هى أول محاولة لإقامة دولة شيعية فى الغرب الإسلامى، إذ أنها سبقت تكوين دولة الأدارسة العلوية بالمغرب بنحو عشرين سنة، ولسنا نعلم شيئا مفصلا عن تعاليم هذا الثائر، إلا أن ابن عذارى يسميه "الداعى الفاطمى". ويذكر صاحب "أخبار مجموعة" أن القائد الأموى "دحية الغسانى" – وهو الذى بعثه عبد الرحمن لمحاربة الثار البربرى – اقتنع بدعوته وآمن بها وصار من أكابر أعوانه، وظل مخلصا له حتى بعد قتله، إذ هرب إلى جبال "إلبيرة" وما زال يقاتل جيوش عبد الرحمن باستبسال حتى قتل[2].

---

(١) البيان المغرب ٢/٥١-٥٢، وراجع: نفح الطيب ١/٣٣٢.

(٢) البيان المغرب ٢/٥٤-٥٥، أخبار مجموعة ص ١١١، الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٥/٢٠٠، وراجع د. محمود على مكى: التشيع فى الأندلس (مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد الثانى (١٩٥٤م) ص ٩٨-٩٩، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ١/١٦٤-١٦٧).

(ب) فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م):

خلف هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أباه على حكم الأندلس، وكان اختياره له لا لأنه أكبر أبنائه، بل لما توسَّمه فيه من المزايا الخاصة. وقد كان هذا الأمير ليناً ورعاً، حسن السياسة، بصيراً بالأمور، وجذب الناس إليه بإقامته للحق، وتحريه للعدل، ومعاقبته للولاة المقصرين. وفى ذلك يقول المقَّرى: ((كان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وكان يبعث بقوم ثقات إلى الكُور فيسألون الناس عن سِيَر عماله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حَيْف من أحدهم أوقع به، وأسقطه وأنصف منه، ولم يستعمله بعد))[١]. ووصفه ابن عذارى بقوله: ((كان رحمه الله بَسْط البنان، فصيح اللسان، وسيع الجناب، حاكماً بالسنة والكتاب، قبض الزكوات من طرقها، ووضعها فى حقها، لم يأخذه فى الله لوم، ولا تعلق به ظلم))[٢].

ومن هنا كانت أيام هشام – كما يقول أحد القضاة الأندلسيين – ((من الدَّعة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثيل))[٣]. ولم يعكر صفوها إلا بعض الثورات التى من أهمها:

ثورة "سليمان بن عبد الرحمن" على أخيه هشام. وكان الأمير عبد الرحمن قد عقد العهد لابنيه "سليمان" و"هشام" ، وكان هشام عند وفاة أبيه "بماردة"، بينما كان سليمان بطليطلة. وذكر المؤرخون أن عبد الرحمن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه "عبد الله" المعروف بالبلنسى – وكان موجوداً بالقصر يومئذٍ – بأن يسلم خاتم الإمارة لمن يسبق من ولديه هشام وسليمان فى الوصول إلى قرطبة، وكان يرى أن كلاهما جديراً بالإمارة، فهشام لأن له ((فضل دينه وعفافه، واجتماع الكلمة عليه))، وسليمان لأن له ((فضل سِنِّه ونجدته وحب الشاميين له)). فلما علم هشام بوفاة أبيه أسرع فى العودة إلى قرطبة فوصلها بعد ستة أيام قبل وصول أخيه سليمان، فبايعه الخاصة والعامة[٤]. فلما علم سليمان بذلك (وكانت بينه وبين هشام جفوة ومباعدة من أجل تفضيل عبد الرحمن لهشام)[٥] حشد

---

(١) نفح الطيب للمقرى ٣٣٦/١-٣٣٧. وراجع البيان المغرب ٦٦/٢.
(٢) البيان المغرب ٦٥/٢.
(٣) البيان المغرب ٦٦/٢
(٤) البيان المغرب ٦١/٢.
(٥) راجع بعض المواقف التى تدل على أن عبد الرحمن كان يميل إلى هشام ويفضله على سليمان (نفح الطيب ٣٣٤/١).

الحشود. وجنَّد الأجناد، وبايعه أهل طليطلة وما جاورها، ثم زحف نحو قرطبة، والتقى مع أخيه هشام فى "جيَّان"، فانهزم سليمان، وعاد إلى "طليطلة"، ثم انضم إليه أخـوه "عبـد الله البلسى"، حيث طمع هوَ الآخر فى الإمارة بعد سبعة أشهر من وفاة أبيهم. وهنا غيَّر هشـام من سياسته اللينة إزاء أخويه الثائرين، على الرغم من بغضه لسياسة العنف، فخرج علـى رأس جيش كثيف لمحاربة أخويه، وحاصر طليطلة، ففر منها سليمان إلى "مـاردة"، ثـم اضطر إلى طلب الأمان، فاشترط عليه الأمير الرحيل عن الأندلس، وأعطاه سـتين ألـف دينار، فنزل بأولاده وأهله ببلاد المغرب، ثم اتبعه هشام بأخيه عبد الله بعـد أن عوضـه مالاً جزيلاً[1].

ج) فى عهد الأمير الحكَم بن هشام المعروف بالربَضى (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م) :

وفى عهد الحكم بن هشام – (الحكم الأول) المعروف بالربَضى – كثرت الثورات والفتن، واختلفت أنواعها،ولكنها كانت فى الغالب ثورات اجتماعيـة أو إقليميـة، لا فتـن عشائرية أو قبائلية كان يقوم بها هذا الفريق أو ذاك من العرب أو من البربر، بغية خلـع طاعة الأمير والتخلص من النظام[2].

وقد كان (الحكَم) – كما وصفته المصادر – أميراً شديد الحزم، مـاضى العـزم، عظيم الصَولَة، حسن التدبير فى سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل فى رعيتـه. ومـن كلامه الذى ينسب إليه: "ما تحلى الخلفاء بمثل العدل". وكان أفحـل أمـراء بنـى أميـة، وأشدهم إقداماً ونجدةً وصرامةً وأَنفةً وأُبَّهةَ وعزةً . وهو أول من جنَّد بـالأندلس الأجنـاد والمرتزقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشى، وارتبط الخيول علـى بابه، واتخذ المماليك (الصقالبة)، وكان يسميهم "الخُرْس" لعُجمتهم، وبلغت عدتهم خمسـة آلاف، وكان يباشر الأمور بنفسه، وهو الذى وطَّأ الملك، لعَقِبِه بالأندلس . ويُشبِّهونه بـأبى جعفر المنصور (الخليفة العباسى) فى شدة الملك، وتوطيد الدولـة، وقمـع الأعـداء[3] .

---

(١) البيان المغرب ٦٢/٢ – ٦٣. وراجع: تاريخ المسلمين وآثـارهم فـى الأندلـس للسـيد عبـد العزيـز سـالم ص ٢١٤-٢١٥٪

(٢) راجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٧٣.

(٣) البيان المغرب ٧٨/٢ ، ٧٩ . نفح الطيب ٣٤٠/١، ٣٤١، ٣٤٢. أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤.

ويروى ابن عذارى أن "الحكم" كان له ألف فرس مرتبطة بباب قصره الجنوبي المطل على نهر الوادى الكبير بقرطبة ((عليها عشرة من العُرفاء، تحت يد كل عَرِّيف مائة فرس، فإذا بلغه عن ثائرٍ ثار فى أطرافه عاجله قبل استفحال أمره، فلا يشعر حتى يُحاط به"[1].

وبهذه الصفات جميعاً استطاع "الحكم" أن يطفئ نيران الفتن والثورات بالأندلس وحمايتها من الأخطار الخارجية. ولعل أهم الفتن التى واجهها بحزم:

١- <u>ثورة عمه "سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية"</u> الذى كان منفياً بالمغرب فى زمن أخيه "هشام". وقد عاد إلى الأندلس (سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م)، أى بعد أن تولى "الحكم" الإمارة بسنتين، واستطاع أن يجمع جيشاً ليهاجم به قرطبة . وفى شوال من السنة نفسها انهزم سليمان بعد معركة شديدة، ومع ذلك عاود القتال من جديد عدة مرات فى (سنة ١٨٣هـ) . وفى كل مرة يبوء بالفشل والهزيمة . وفى سنة (١٨٤هـ) حشد سليمان جيشاً كبيراً من شرق الأندلس، واستولى به على "جيَّان" ثم "إلبيرة"، وانضم إليه جَمْعٌ من أهل المدينتين، فلما التقى بجيش الأمير، ودام القتال أياماً، انهزم سليمان، وقتل فى الموقعة عدد كبير من أنصاره، وتمكن هو من الفرار، فأرسل "الحكم" وراءه من يطلبه، فقُبض عليه فى "ماردة" وجيء به إلى "الحكم" فأمر بقتله[2].

٢- <u>فتنة "المولَّدين" فى طليطلة[3] (سنة ١٨١هـ/٧٩٧م)</u> : وقد كانت هذه المدينة مركزاً لإثارة الفتن، وملاذاً للزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل، وفى عهد "الحكم" عادت إلى سابق سيرتها. وكان بين أهلها كثرة من "المولَّدين" و"المُستَعْربين" (المعاهدين النصارى)، وهؤلاء كانوا يَسْتَخِفُّون بولاتهم، ويميلون إلى الاستقلال عن حكم بنى أمية، معتمدين على حصانة مدينتهم . وقد حدث أن ثار فيها "عُبيْدة بن حُميد، فوجّه "الحكم" قائده "عمروس بن يوسف" لمحاربته، فالتقى بالثوار فى عدة وقائع، ولما رأى ثباتهم لجأ إلى سلاح الغيلة، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والوعود، ودفعهم إلى اغتيال "عُبيدة بن حُميد"، وبذلك أُخمدت الثورة إلى حين . ولكن بعد عدة أعوام عادت طليطلة إلى الثورة، فلم ير "الحكم" وسيلة لإخضاعها سوى تعيين

---

(١) البيان المغرب ٧٩/٢.

(٢) البيان المغرب ٧٠/٢.

(٣) راجع ما ذكرناه عن التعريف بالمولَّدين (ص٣٢-٣٣).



"عمروس بن يوسف" حاكما لها . وكان عمروس (مولدا) من أهل "وشقة"، ذا وجاهة وبأس، وكان قد ظهر بالثغر الأعلى، وأظهر طاعة "الحكم" ودعا له، خلافا لكثير من زعماء الثغر الخوارج، فاختصه الأمير وقربه إليه، وولاه على "طليطلة" حتى يطمئن إليه سكانها "المولدون"، فعمل "عمروس" على استمالتهم، وتظاهر أمامهم بكراهية بنى أمية، حتى أنسوا إليه وأمنوا جانبه، ثم إنه عمل على نكبتهم والإيقاع بهم، وأنشأ قصرا خارج المدينة – بالقرب من الجسر – وأقام فيه مأدبة دعا إليها الكبراء والأعيان، ورتب الدخول من باب، والخروج من باب آخر، ووقف السيافون على شفير حفرة فى مؤخرة القصر، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه، فقتل فى هذه المذبحة المروعة عدد كبير من وجوه "طليطلة" وخيرة رجالها، وبلغ عدد القتلى سبعمائة على أقل تقدير (وقيل : خمسة آلاف وثلاثمائة رجل).وسميت هذه الوقعة بوقعة "الحفرة" .وقد ضعفت بعدها شوكة أهل "طليطلة" طوال عهد "الحكم بن هشام" وعهد ابنه "عبد الرحمن" من بعده[1].

ولا نستطيع أن نحكم على هذه الحادثة (إذا صحت الروايات التى جاءت بشأنها، والغالب أنها صحيحة) إلا بأنها حادثة نكراء، وغَدْرٌ بَيِّن، ومهما قيل من أن المسئول عنها هو "عمروس" أو هى من تدبير "الحكم" وأوعز بتنفيذها إلى "عمروس " فى خطاب أرسله إليه سرا مع ولده "عبد الرحمن بن الحكم". ومهما قيل أيضا عن الأسباب التى دفعت بالسلطة إلى اتخاذ هذه الوسيلة للتخلص من المعارضين فإن "الحكم" لا يُعْفَى من المسئولية، وكان بالإمكان – بدلا من اللجوء إلى العنف والحيلة – أن يتعقل الأمور، ويتعرف الأسباب التى دفعت بأهل طليطلة إلى التمرد، ويسعى إلى التفاهم معهم ليقف على الظروف التى أدت إلى القلق والتوتر، لكنه أساء إلى نفسه وحكمه إساءة بالغة، وفقد الناس الثقة به[2].

---

(١) البيان المغرب ٢/٦٩-٧٠، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤-١٥. وراجع: دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ١/٢٣٩-٢٤٠، تارخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد سالم ص ٢٢٢.

(٢) راجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٨، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القسم الأندلسى للدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح) ص ٢٢١.

٣- وقعة (هَيْج) الرَّبَض (سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م):

وقد لجأ "الحكم بن هشام" إلى القسوة والعنف في إخماد فتنة أخرى وقعت في الربض الجنوبي من قرطبة المسمى "ربض شقندة" على الضفة الأخرى من الوادي الكبير[1] وذلك في (١٣ رمضان ٢٠٢هـ/ ٢٥ مارس ٨١٨م)، وكانت سببا في تلقيبه "بالحكم الرَّبَضِي".

كان "الحكم" قد صلب اثنين وسبعين رجلًا من أهل قرطبة (سنة١٨٩هـ/٨٠٥م). والسبب في ذلك كما يقول ابن الفرضي- (أنهم أرادوا خلع الحكم بن هشام)[2] . وقال ابن عذارى): ((أرادوا الغدر به، وهموا بالخلاف عليه، وطلبوا رئيسا يقومون به))[3]، فلما علم "الحكم" بأمرهم وتثبت من شأنهم أخذهم وصلبهم جميعا على جذوع منصوبة بطول الرصيف الممتد بين جدار الجامع (جامع قرطبة) والنهر حتى القنطرة. وعددها مائة وأربعون جذعا . وكان من بينهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسي، وهو أحد الرواة عن الإمام مالك بن أنس[4]. وسميت هذه الحادثة بـ "هيج الربض الأول" تمييزا له عن "هيج الربض الثاني" الذي وقع بربض شقندة في جنوب العاصمة (سنة ٢٠٢هـ/٨١٨م) وسيأتي الحديث عنه في هذا السياق.

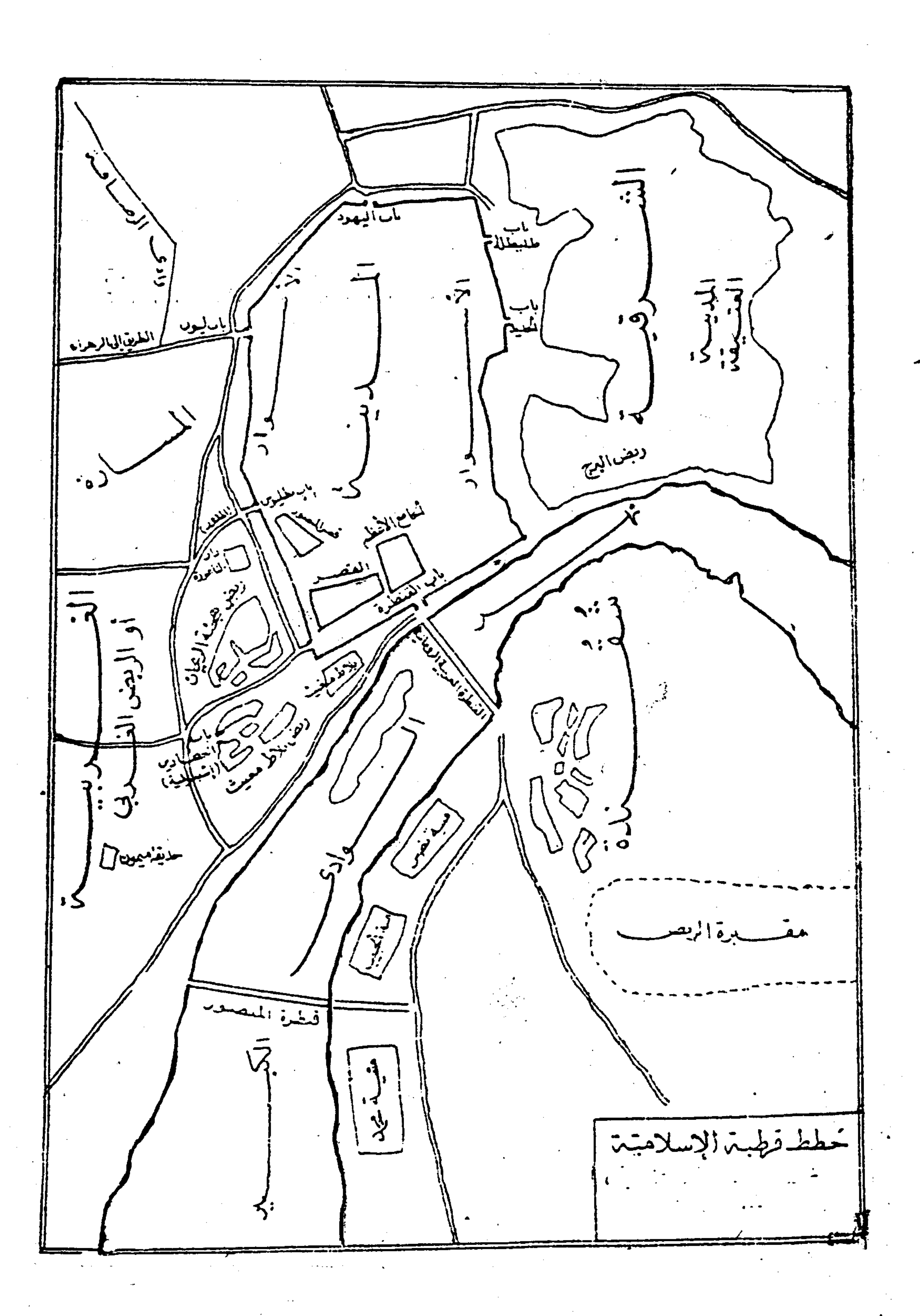
---

(١) الرَّبَض: كلمة تطلق على ما حول المدينة.وقيل: هو الفضاء حول المدينة. وتطلق على الضاحية أو الحي. وجمعها (أرباض). وقد بلغت مدينة قرطبة من الاتساع إلى أن كانت أرباضها إحدى وعشرين ربضًا كل ربض منها يعد مدينة من المدائن، وفي كل منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره، وكانت تلك الأرباض تحيط بقصبة قرطبة المسورة (المدينة القديمة)، وهي: عدوة النهر، وربض شقندة، وربض منية عجب (وكلها في الجنوب). أما الجهة الغربية فتشتمل على تسعة أرباض: هي: ربض حوانيت الريحان، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشفاء، وربض حمام الإلبيري، وربض مسجد مسرور، وربض مسجد الروضة، وربض السجن القديم. وفي الجهة الشمالية ثلاثة أرباض هي: ربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة. وفي الجهة الشرقية سبعة هي: ربض شبلار، وربض فرن بريل، وربض البرج، وربض منية المغيرة، وربض الزاهري، وربض المدينة العتيقة، وفي وسط هذه الأرباض كلها (قصبة قرطبة) التي تختص بالسور دونها (راجع: أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٠٣، قرطبة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف ص ١٨-٢٠).

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ١٧٤/٢.

(٣) البيان المغرب ٧١/٢.

(٤) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ١٧٤/٢.



باب اليهود
باب طليطلة
باب ليون
الطريق إلى الزهراء
المدينة العتيقة
ربض البرج
الجامع الأعظم
القصر
باب القنطرة
ربض بلاط مغيث
حديقة ميمون
قبة نصر
مقبرة الربض
قنطرة المنصور
خطط قرطبة الإسلامية

وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب أدت إلى وقوع هيج السكان فى هذه الضاحية، وكان أكثرهم من "المولدين" أى الأسبان المسلمين . فبينما يذكر ابن عذارى قول من يقول ((إن ذلك الهيج كان أصله الأَثَر والبَطَر، إذْ لم يكن ثَمَّ ضرورة من إجحافٍ فى مال، ولا انتهاكٍ لحرمة... ولم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سُخْرة ولا شئ يكون سببا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أثرًا وبطرًا، وملالاً للعافية، وطبعًا جافيًا، وعقلاً غبيًا، وسعيًا فى هلاك أنفسهم))[1] : نجد لسان الدين بن الخطيب يذكر فى كتابه (أعمال الأعلام) أن الناس ((أنكروا على الحَكَم أمورًا، منها إطلاق يد ربيع القُومِس – متولى المعاهدين من النصارى بالأندلس – وكان حظيًا فى رجاله، سوغه افتراض المغارم على المسلمين، فثار به أهل الربض ونابذوه وجاهروا بخلعه"[2] . ويشير المقرى فى (نفح الطيب) إلى أن "الحكم" انهمك فى لذاته، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى (وهو أحد من رووا الموطأ عن الإمام مالك) وطالوت بن عبد الجبار الفقيه وغيرهما، فثاروا به وخلعوه[3].

يضاف إلى ذلك ما عرف عن الحَكَم من العنف والقسوة والاعتداد بنفسه، وهى صفات تصطدم مع طبيعة الشعب الأندلسى الذى تولى أمره، وهى طبيعة عنيدة صلبة، وتحرص على أن يكون للدين مكان ظاهر فى سلوك الحاكم . وقد بانت قسوته فى الإيقاع بأهل طليطلة سنة ١٨١هـ لإرغامهم على الطاعة (حادثة الحُفْرة) وفى حروبه الطويلة مع عميه سليمان وعبد الله، وسجنه عميه "مسلمة " (الملقب بكليب) "وأمية" ابنى عبد الرحمن الداخل، ثم فى صلبه لاثنين وسبعين رجلا على قارعة الطريق (وفيهم فقهاء) فيما يعرف بهيج الربض الأول.كل ذلك – وغيره – أثار عليه غضب الناس.

وكان السبب المباشر – وهو القشة التى قصمت ظهر البعير أو الشرارة التى أشعلت الحريق – مشادة وقعت بين أحد المماليك الذين استجلبهم الحكم واستكثر منهم ورجل من العامة يعمل (صيقل سيوف)، وأدت إلى قتل العامى،

---

(١) البيان المغرب ٧٦/٢.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٥.

(٣) نفح الطيب ٣٣٩/١. وراجع تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى ١٧٧/٢ (ترجمة يحيى بن يحيى الليثى.

فثار الناس وهبُّوا مرة واحدة، وتجمعوا على المملوك فقتلوه، وخرجوا إلى قصر الإمارة يهتفون بخلع الأمير . وأول من شهر السلاح ضده أهل الربض الجنوبي – شُقُنْدة – ثم ثار أهل المدينة والأرباض، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة، جميعا، لولا أن تنبه "الحكم" إلى حيلة تجمع بين الدهاء والقسوة معا، فقد أرسل بعض أعوانه على رأس فرقة من الفرسان إلى الربض، فأشعلوا فيه النيران، فبادر الثوار بالعودة لإنقاذ أولادهم ونسائهم وذويهم، فأخذتهم السيوف من أمامهم، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم، وقتلوا منهم عددا كبيرا، وتتبعوا الفارين في الأَزِقَّة والطرق، وتمكنوا من القبض على ثلاثمائة، فصلبوا على نهر الوادي الكبير صفًّا واحدًا، ثم أمر "الحَكَم" بالربض فهُدِم وصيَّره مزرعة، ثم أمر بطرد أهله من قرطبة، فتفرقوا في الثغور، وخصوصا في طليطلة وعبر بعضهم إلى المغرب ونزلوا في "فاس"، كما ركب نحو خمسة عشر ألفا منهم سفنا رست بهم في ميناء الإسكندرية، حيث قاموا فيها، لكن عبد الله بن طاهر (الوالي) على مصر أجبرهم على الرحيل سنة ٢١٢هـ، فتوجهوا إلى جزيرة إقريطش (كريت)، حيث أسسوا دولة دامت نحو (١٣٥) سنة، إلى أن استولى عليها البيزنطيون (سنة٣٥٠هـ / ٩٦١ م)[١].

هكذا كانت ثورة الربض، وهي ثورة أدرك "الحكم" خطورتها، ولم تأخذه في إخمادها هوادة ولا رأفة، وأصدر عقب إخمادها كتابا إلى الأقاليم[٢] يشرح فيها الوقعة وظروفها، وقيل: إن الحكم ندم بعد ذلك أشد الندم على ما وقع منه، وجعل يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو، ويذكر الرواة أنه قد أصيب بعد هذا الحادث بعلة طاولته أربعة أعوام، أي حتى وفاته (سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢ م). ويقول ابن عذاري : ((ولما دنت وفاته عتب نفسه فيما تقدم منه عتابا، وتاب إلى الله متابا، ورجع إلى الطريقة المثلى، وقال : إن الآخرة هي

---

(١) راجع أحداث هيج الربض في البيان المغرب ٧٥/٢-٧٧، نفح الطيب ٣٣٩/١، أعمال الأعلام ص ١٥-١٦، المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الرحمن المراكشي ص ١٢ وما بعدها (مطبعة السعادة – القاهرة ١٣٢٤هـ).

(٢) راجع نص الكتاب في: دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٢٤٥/١-٢٤٦. وقد نقله من قطعة مخطوطة من (المقتبس في تاريخ الأندلس) لابن حيان الأندلسي.

الأبقى والأولى، فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى، وأقر بذنوبه واعترف))[1].

د - فى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م).

تولى عبد الرحمن بن الحكم الإمارة فى الحادية والثلاثين من عمره، وعرف بعبد الرحمن الأوسط، لأنه ثانى ثلاثة سموا بهذا الاسم وقاموا بأمر الأندلس , وقد اكتسب عبد الرحمن كثيرا من صفات أبيه وجده، لكنه كان وسطا بين اللين والشدة، ولم يكن فيه غدر أو قسوة، ولكنه كان فيه حزم وقدرة على اتخاذ القرار المناسب وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى فى تكوين شخصيته، فكان رجلا على مستوى عال من الثقافة والعلم، متبحرا فى علوم الشريعة والأدب واللغة، وضم العلماء إليه واستقدم كثيرا منهم من المشرق، وكان فوق ذلك أميرا رفيع الخلال والكفاية، وافر الخبرة بشئون الحرب والإدارة، يحسن اختيار الرجال للمناصب، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة، ولذا كانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكان عهده عهد سلم ورخاء بعد عهد فتن وثورات، وكثرت الأموال لديه، فاتخذ القصور والمتنزهات، وبنى فى ربوع الأندلس مساجد كثيرة، وهو الذى أسس مدينة "مرسية" فى شرق الأندلس، وأول من أحدث فى قرطبة دار السِّكَّة وضرب النقود باسمه، ورتب رسوم المملكة، وكسا الإمارة أبهة الجلالة، واستجلب إليها روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد عند قتل الأمين بن هارون الرشيد (سنة ١٩٨هـ). وفى الجملة أصبحت الأندلس فى عهده فى عداد الدول العظمى آنذاك فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء[2].

ولم يقطع الهدوء الذى كان يسود عصر عبد الرحمن سوى بعض الفتن والثورات الداخلية، أهمها:

---

(١) البيان المغرب ٢/٨٠. وراجع: تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٥، وراجع: الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ١٥٢/٤، الحلة السيراء لابن الأبار ٤٦/١.

(٢) راجع نفح الطيب ٣٤٧/١-٣٤٨، البيان المغرب ٢/٩٠-٩١، أعمال الأعلام لابن الخطيب. ٢٠. وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٢٨-٢٢٩.

١- **فتنة بين المضرية واليمنية فى مدينة "تدمير"** دامت سبع سنين، بداية من (سنة ٢٠٧هـ/٨٢٣م) إلى (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م)وكان سببها المباشر أن يمنيا قتل مضريا، فاستفحل الشر بين العصبيتين، وقتل كثير من الفريقين، واستمرت الفتنة على أشدها، وغلب على "تدمير" أبو الشماخ زعيم اليمنية، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة، والبعوث تتردد إليه فى كل عام دون أن تنال منه شيئا، ولم تهدأ الفتنة إلا فى (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م) حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء، وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة. ثم عمد عبد الرحمن بن الحكم إلى هدم مدينة (أَلُهْ) حاضرة "تُدْمير" التى انبعثت منها الفتنة، وأمر ببناء مدينة "مرسية" (سنة ٢١٦هـ/٨٣١م)(١).

٢- **ثورة أهل "ماردة" (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م)** بقيادة محمود بن عبد الجبار (من البربر) ومعه أحد المولدين يسمى "سليمان بن مارتين" ويعرف بابن قعنب. وانضم إليهم النصارى المعاهدون. وقد توالت الحملات العسكرية على "ماردة" حتى تمكنت من إخماد ثورتها وقتل زعيم الثورة (سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م)(٢).

٣- **فتنة المُسْتَعربين (النصارى) بقرطبة:**

وفى أواخر عهد عبد الرحمن بن الحكم وقعت فى قرطبة حادثة تعرف عند المؤرخين الأوربيين القدامى والمحدثين "بحركة الشهداء". ولم تتحدث عنها المصادر الإسلامية، ومنها المصادر الأندلسية. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن هذه الحادثة لم تكن ذات خطر كبير كما ذهبت المصادر الأوربية، بل اعتبرها الأندلسيون حادثة عارضة ومن ثَمَّ أغفلوها.

ويطول المقام بذكر التفاصيل التى أوردتها المصادر النصرانية عن حادثة "الشهداء" كما يسمونها(٣). ومجمل القول فيما حدث أن جماعة من غلاة النصارى كانوا ينقمون على الإسلام سيادته على الأندلس، فكانوا يَسُبُّون رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(١) راجع أحداث هذه الفتنة فى البيان المغرب ٨١/٢. وانظر دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٢٥٥/١.

(٢) البيان المغرب ٨٣/٢ (أحداث سنة ٢١٧هـ)، ثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية للدكتور حمدى عبد المنعم حسين ص ٣٥-٣٧.

(٣) ذكرنا تعبير "الشهداء" هنا – رغما عن تحفظاتنا عليه – لأنه صار تعبيرا اصطلاحيا فى الكتابات التاريخية، وبخاصة الغربية منها. ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها إلى كتاب (دولة الإسلام فى الأندلس) لمحمد عبد الله عنان =

وينكرون عليه نبوته ويطعنون فى دين الإسلام ويَسْتَخِفُّونَ به، ويفعلون ذلك علنا عند أبواب المساجد وفى الطرقات العامة، طلبا للاستشهاد، حيث كانت العقوبة التى يلقاها أمثال هؤلاء هى الموت بعد أن يطلب منهم – أمام القضاء – ترك أقوالهم، لكنهم يرفضون ويكررون السب والتجريح، وقد كثر عدد هؤلاء الغلاة، خاصة من الشباب والفتيات. وكان يؤجج من حماستهم نفر من النصارى المتعصبين مثل (سان إيولوخيو/ San Eulogio) و(ألبرو القرطبى/ أو ألفارو Alvaro de Cordoba).

وقد أثارت هذه الأحداث استياء غالبية النصارى المستعربين، وقالوا: ((إن السلطان يسمح لنا بمزاولة شعائر ديننا ولا يضطهدنا، فلماذا – إذن – هذا المسعى التعصبى، إن هؤلاء الذين تدعونهم شهداء ليسوا كذلك، إنما هم انتحاريون، يحفزهم الزهو، وهو أصل الخطايا كلها)).

والواقع أن طائفة النصارى بالأندلس الذين أقاموا فى ظل المسلمين وتأثروا بالثقافات العربية، وتعربوا تعريبا أنساهم لغتهم اللاتينية تمتعوا فى عصر بنى أمية بحرية العقيدة وعدم التدخل فى شئونهم التعبدية وأحوالهم الشخصية، وعاشوا فى ظل سياسة تقوم على العدل والإنصاف كما أوضحنا من قبل.

ولكى تحسم هذه الفتنة أمر عبد الرحمن بن الحكم بعقد مجمع دينى كنسى (فى حدود سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م) يحضره أساقفة الأندلس، برئاسة مطران إشبيلية (ريكافريدو Recafredo) وناب عن الأمير عبد الرحمن فى حضور المجمع كاتبه (قومس أنتينان النصرانى) – أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه[1] – تحدث فيه داعيا المستعربين إلى التزام الهدوء والطاعة، وإلى عدم جدوى ما يقوم به بعض متطرفى النصارى. وانتهى الأمر

= ١/٢٦٧-٢٧٣. وكتاب (تاريخ النصارى فى الأندلس) للدكتور عبادة كحيلة (أفرد لها الفصل الثامن من الكتاب ص ١٩٩-٢١١)، المسلمون فى الأندلس، لدوزى (ترجمة د. حسن حبشى ج ١ ص ٨٥ وما بعدها). ومن المؤرخين الإسبان القدامى الذين أفاضوا فى التأريخ لهذه الحادثة (سيمونيت) فى كتابه (تاريخ المستعربين). وللقس (إيولوخيو) – وهو أحد المعاصرين لهذه الأحداث والمؤججين لنارها – كتاب مجموع بعنوان "تاريخ الشهداء".

(١) ترجم له ابن حيان فى (المقتبس فى تاريخ الأندلس) –القطعة التى نشرها د. محمود على مكى – ص ١٤٢. وقد وردت معلومات عن قومس بن أنتنيان (أو/ أنطونيان) فى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٢-٨٣، تاريخ قضاة قرطبة للخشنى ص ٧٥ (ط. الهيئة العامة للكتاب). وراجع ما كتبه عنه د. محمود على مكى فى تعليقاته على المقتبس ص ٥٢٢-٥٢٦.



بإصدار قرار كنسي يحرم على النصارى قذف الإسلام أو النبي، والتعرض للموت في غير مبرر.

ويرى الباحثون أن الدافع لإشعال هذه الفتنة هو ضيق بعض القساوسة من اتساع نطاق الإسلام، ((إذ كانوا يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل وأن دولته لن تلبث أن تزول، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوما بعض يوم، وإمارته تزدهر، ومجتمعه يزداد رخاء وثباتا، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها، بينما ينفقون جهدا كبيرا في دراسة العربية ومطالعة آدابها، بل برع الكثيرون منهم في كتابة العربية. فلما وجد أولئك الأحبار المتعصبون أبناء دينهم لا يأبهون لأمرهم، بل يزدادون عنهم انصرافا، ويدخل الكثيرون منهم في خدمة الإمارة القرطبية ويُسْلِمون ويَصِلُون إلى الرتب العالية في المجتمع والإدارة إذا بهم يجاهرون بالعداوة للإسلام ونبيه علنًا أمام الناس ...))[1].

هـ- أبرز الأحداث الداخلية في فترة صراع الإمارة (الفتنة الكبرى):

لقد حافظ الأمراء الثلاثة الأوائل – من أمراء بني أمية بالأندلس بعد عبد الرحمن الداخل – على وحدة الدولة إلى حد كبير، واستطاعوا إخماد الفتن الداخلية ومواجهة الأخطار الخارجية، ونجحوا في أن يوقفوا التوسع المسيحي في مناطق الشمال (كما سيأتي)، وأن يحافظوا على التفوق السياسي والحربي لدولة الإسلام في الأندلس. ولا شك في أن يقظة هؤلاء الأمراء وقوة مراسهم وعلو هممهم قد أتاح للدولة الأندلسية فرصة الحياة والبقاء وسط العواصف المدمرة، فلما توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) وتولى الإمارة أمراء ضعاف – امتد حكمهم ما يقرب من ثلثي قرن من الزمان (٢٣٨-٣٠٠هـ / ٨٥٢-٩١٢م) – تمزقت وحدة الأندلس، وقام الثوار في سائر أنحائها بشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية، واستقلوا بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلص نفوذ أمراء بني أمية، وأصبح سلطانهم (في زمن الأمير عبد الله بن محمد خاصة) لا يتعدى قرطبة ونواحيها، وأتيحت الفرصة لممالك الشمال النصرانية لأن تتوسع على حساب المسلمين[2].

---

(١) د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٣. وراجع: تاريخ النصارى في الأندلس للدكتور عبادة كحيلة ص ٢٠٨، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٢٤١-٢٤٢.

(٢) راجع: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٢٤٣ (بتصرف).

ولم تكن هذه "الفتنة الكبرى"[1] (التى وصلت ذروتها فى إمارة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م) قاصرة على المناطق الجبلية، بل تجاوزتها الى القواعد والمدن الكبيرة، مثل "إشبيلية" و " بَطَلْيُوس " و"جيَّان" و" لُورَقَة " و"مُرْسية " وغيرها. وقد شارك فيها عناصر المجتمع، فلم تكن قاصرة على زعماء " المولّدين " ، ولكنها امتدت إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم، إذْ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم وتدعيم سلطانهم، وظهر البربر فى ساحة الفتنة، فاستعصم كثير من زعمائهم إلى الحصون النائية، ونشبت المعارك بين العرب والمولّدين حينما التقت حشودهم، كما حدث فى كُورة " ريُّه " و"إشبيلية"، كما نشبت مثل هذه الخصومات بين العرب والبربر، وفيما بين العرب أنفسهم.

وهكذا كانت جزيرة الأندلس تضم عناصر مختلفة لم يندمج بعضها ببعض بصورة كافية، فإذا قويت الحكومة المركزية بقرطبة أمكن لهذه العناصر أو الأجناس أن تعيش إلى حد كبير فى وئام مع بعضها، وإذا ضعفت السلطة المركزية ظهرت أطماع هذه الأجناس على شكل استقلال محلى فى الجهة التى يعيشون فيها، وكانت طبيعة الأندلس الجغرافية الجبلية تساعدهم على ذلك[2].

أما عن أسباب ذيوع الثورة فى الأندلس فى هذه الفترة فقد انفرد الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) بتوضيحها، وجَمَعَها فى ثلاثة أمور، فيقول: ((والسبب فى كثرة الثوار يومئذٍ ثلاثة وجوه، الأول : مَنَعةُ البلاد، وحَصَانةُ المعاقل، وبأسُ أهلها بمقاربتهم عدوَّ الدين، فهم شوكةٌ وحَدٌّ بخلاف سواهم. والثانى: علوُّ الهمم، وشموخُ الأنوفَ، وقلة الاحتمال لِثِقَل الطاعة، إذْ كان من يُحصَّل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض. والثالث: الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من مَلِك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض"[3].

---

(١) لم يطلق على هذه الفتنة فى مصادرنا تعبير محدود، ولما كانت قد عمت أقطار الأندلس، وشملت عناصر السكان جميعها واستطالت نحو ستين سنة فقد أطلق عليها البعض تعبير "الفتنة الكبرى" (راجع: دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٣٣٥/١، تاريخ النصارى فى الأندلس للدكتور عُبادة كحيلة ص ٢١٥).

(٢) د. العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٦٨.

(٣) أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام لابن الخطيب ص ٣٦.

ومن بين الأسباب التى أدت إلى اشتعال الفتنة – إضافة إلى ما ذكره ابن الخطيب:

١– لم تكن سياسة الدولة تجاه الأزمات الاقتصادية التى واجهتها تَنُمُّ عن الحرص على معالجتها وتخفيف وطأتها، وكان لذلك تأثير بالغ على المولّدين والنصارى المعاهدين، لأنهم كانوا أكثر أفراد المجتمع الأندلسى المنتجين.

وقد شهدت الأندلس خلال القرن الثالث – وبخاصة فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م) سنوات متتالية سادها القحط، مما ترتب عليه هلاك كثير من الناس، أو هجرتهم من البلاد. وكانت المجاعة التى وقعت سنة (٢٦٠هـ / ٨٧٣م) هى أشدها. وفى هذه السنة كان الوالى على مدينة قرطبة هو (وليد بن غانم)، فاستشاره الأمير محمد بن عبد الرحمن فقال له: ((العشور ما ترى فيها ؟ . قال: إنما يؤخذ العشور بسبب الزراعة والرفع، ولم تزرع رعيتك ولا رفعت (أى: ولا جنيت)، فأنْفِقْ من أَهْرائِك[1] وبيوت أموالك، فلعل الله أن يأتى فى العام المستقبل بخير، فزأمه (أى: نهره) وقال: لا والله لا تقلدتَ تحريك حبه واحدة منه))[2]. فلما ذاع الخبر بين الناس تقدم "حمدون بن بسيل " المعروف بالأشهب إلى الأمير وسأله أن يوليه على المدينة، على أن يضمن له إيراد العشور. وقد كان حمدون من البغاة ((فهتك الستور، وضرب الظهور، وقتل الأنفس، ففر الناس إلى الله عز وجل منه، وأماته الله بغتة وقبضه إلى سخطه))[3]. وأراد الأمير أن يستعين مرة أخرى بوليد بن غانم ليصلح ما أفسده ابن بسيلَ فرفض العودة، فولى الأمير غيره " فاضطربت الأحوال فى آخر أيامه... "[4].

٢– سوء سيرة بعض الوزراء فى تدبير شئون الدولة ومعاملة الثائرين. وأوضح مثال لذلك الوزير " هاشم بن عبد العزيز " فى زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن. وتتفق النصوص التاريخية على إدانته، وتذهب إلى سوء سيرته، ومن ذلك ما ذكره عمدة المؤرخين الأندلسيين ابن حيان نقلاً عن ابن القوطية حيث قال: ((كان الأمير محمد من

---

(١) الأهراء: مفردها (هُرْىُ) وهو البيت الكبير الضخم، يجمع فيه طعام السلطان (لسان العرب: هرى).

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٠٠.

(٣) ابن القوطية ص ١٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ونفس الصفحة. وراجع: تاريخ النصارى فى الأندلس للدكتور عبادة كحيلة ص ٢١٥-٢١٦.

أهل الأناة والحلم، واليقظة والفهم، وقلة العجلة والتنزه عن العقوبة، مكرمًا لأعلام النـــاس من أهل العلم والموالى والأجناد، متخيرًا لعماله ورجال خدمته من أهل الحزم والنُّصْفـــة، شديد المذاهب فى السيرة السلطانية، قطع بذلك مدة من دولته فى انتظام، واستقام إلـــى أن ألقى بأمره إلى هاشم بن عبد العزيز أَثيرِه (أى المفضل لديه) من الوزراء، فلم يلبـــث أن أفسد عليه أمره بشَرَهِهِ وصَلَفِه، وحَمَلَه على غير المنهج من محمود طُرُقِه، وعـــدل عـــن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول وأولى السوابق والأصول إلى الأحداث واللاحقين من أولى الشَّرَهِ والخيانة ودناءة الأصول والبراءة من عهدة الحياء والمروءة ... فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك، حالاً بعد حال، فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر فى الأرض الفســـاد، فما إن هلك الأمير محمد إلا وأكثرُ الأرضِ من الأندلس مضطرمة نارًا»[1] .

وإذا تحدثنا عن الثورات والفتن التى ظهرت فى فترة صراع الإمـــارة (دويـــلات الطوائف الأولى) فإن المجال لا يتسع، لكن نذكر منها أهم ما يمثل العناصر الثلاثة الكبيرة فى المجتمع الأندلسى، وهى "المولدون" ، و "العرب" و" البربر"[2].

١ - فالمولدون: كونوا عدة دويلات مستقلة عن قرطبة نذكر منهم :

(أ) بنو قِسِيّ (أو بنو موسى). وقد استقلوا بمنطقة "سَرَقُسْطة" فى "الثغر الأعلـــى" التى كانت ثغرا على "أَرَاجون" و "قَطَالُونيا" فى شمال شرق الأندلس[3].

(ب) بنو مروان الجِلِّيقى. وقد استقلوا بولاية "بَطَلْيَوس" و "مـــارِدة" فـــى غـــرب البلاد، وتقع حاليا على الحدود البرتغالية[4].

(ج) بنو حفصون، وزعيمهم عمر بن حفصون. وحركته كانت أخطر الحركـــات فى فترة الفتنة الكبرى. وقد استقلوا بالمرتفعات الجنوبية الممتدة بين مدينتى "رُنْدة" غربـــًا و"مالقة" شرقًا. وكانت قاعدتهم قلعة "بُبشْتَر" (Bobastro).

---

(١) المقتبس من أخبار الأندلس – لابن حيان (القطعة التى نشرها الدكتور محمود على مكى – ص ١٣١-١٣٢).

(٢) ذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه (تاريخ المسلمين وآثارهم فـــى الأندلـــس ص ٢٥٣-٢٥٩) قائمـــة بأسماء الثوار ومناطق نفوذهم، وقد بلغ عددهم فى زمن الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ) فقط، خمســـة وعشرين ثائرا. وراجع المقتبس (القطعة التى نشرها د. إسماعيل العربى) من ص (٢٤) إلى ص (٥٣)، البيـــان المغرب لابن عذارى ١٣٣/٢-١٣٨.

(٣) راجع المقتبس ص ٣٢-٣٣.

(٤) المقتبس، ص ٣٦-٣٩.



٢- أما زعماء البربر الذين استقلوا عن قرطبة نذكر منهم:

أ- (بنو ذى النون) فى الثغر الأدنى (طليطلة) الذى كان ثغراً على بلاد الجَلالقة ومنطقة القِلاع (قَشْتالة) فى الشمال الغربى.

ب- بنو الملاّخ الذين استقلوا بمدينةٌ "جيَّان".

٣- أما الزعماء العرب الذين استقلوا عن قرطبة فى تلك الفترة فنذكر منهم:

أ- بنو حجاج فى "إشبيلية" و "قَرْمُونة". وكان بلاطهم فى إشبيلية لا يقل عن بلاط بنى أمية فى قرطبة، حيث أحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والمجد، واستقدموا إلى مدينتهم الشعراء والعلماء[١].

ب- سعيد بن سليمان بن جُودِى السعدى فى "غرناطة" و"إلبيرة". وكان عدواً لعمر بن حفصون وأتباعه المولدين، وله معهم وقائع حربية كثيرة[٢].

حركة عمر بن حفصون (المرتد) [٢٦٥-٣٠٥هـ / ٨٨١-٩١٧م]:

وأهم الشخصيات التى شاركت فى إضرام نيران الفتنة، وأخطرها جميعاً هى شخصية زعيم المولدين: عمر بن حفصون[٣]. قال عنه ابن حيان فى سياق حديثه عن أسماء المخالفين على الأمير عبد الله بن محمد، الخارجين على الجماعة، المضرمين لنار الفتنة. ((أولهم: إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون، أعلاهم ذكراً فى الباطل، وأضخمهم بصيرة فى الخلاف، وأشدهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم مدة، وأخباره لا تُحصى كثرةً. وكان ابتداء خروجه فى مدة الأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ)، فمُدَّ له فى غَيِّهِ إلى أن هلك فى صدر أيام الخليفة الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ)))[٤].

وينتمى عمر بن حفصون إلى أسرة من أصل قوطى اعتنقت الإسلام منذ أيام جده (جعفر بن هيثم) الذى عرف بجعفر الإسلامى[٥] فى عهد الحكم الرَّبضى

---

(١) المقتبس ص ٢٧-٣٢، البيان المغرب ١٢٥/٢، ١٣٥، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٤-٣٥.

(٢) المقتبس ص ٥٠، البيان المغرب ١٣٤/٢، ١٣٦.

(٣) اسم (حفصون) هو صيغة تكبير لاسم (حفص). وهناك أسماء أندلسية كثيرة تأثرت بهذه الصيغة الإسبانية، مثل (غلبون) بزيادة الواو والنون على "غالب". و(زرقون) على "أزرق" . و(عبدون) على "عبد" أو "عابد". و(خلدون) على "خالد". و"زيدون" علّى (زيد). وهكذا (راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور العبادى – ص ١٧٠).

(٤) المقتبس ص ٢٤.

(٥) يذكر ابن عذارى نسبه – نقلاً عن ابن حيان – فيقول: هو عمر بن حفص – المعروف بحفصون – بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان (أو – دميان) بن فَرْغَلُوش بن إِذْفُونش (البيان المغرب ١٠٦/٢).

(١٨٠-٢٠٦هـ). وقد بدأت حركته من ولاية "ريّة" (Rejio) (بمحافظة مالقة الآن). وكانت هذه المدينة تضطرم بالثورة ضد الحكومة (سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م) بسبب تعسف عاملها فى مطالبة أهلها ببقايا الخراج وتشدده فى ذلك، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، وحاول الأمير محمد بن عبد الرحمن إخماد حركتهم بالقوة فلم يصل إلى ما يريد، وعمت الفوضى إقليم (ريُه) كله، وانتشرت الفوضى[١]. وفى وسط هذه الظروف ظهر عمر بن حفصون وناب عن الناس فى تقديم مطالبهم للحكومة المركزية، لكنه لم يصل إلى شئ. فارتحل إلى جبل "بُبَشْتَر" (Bobastro) شمال شرق "رُنْدة" وهو حصن رومانى قديم يقع على مقربة من السهل الكبير الذى يمتد حتى مدينة قرطبة، ولا يُخشى على من أقام فيه إلا من الأجل كما يقول ابن سعيد المغربى[٢]. ومن هناك أخذ يوسع حدود سلطانه بالإغارة على الجهات المقابلة حتى بلغ حصن "بُلاى" (Poley) المطل على قرطبة نفسها.

وقد استغرقت هذه الحركة وحدها من جُهد الدولة أربعين عاماً (٢٦٥-٣٠٥هـ/٨٨١-٩١٧م). ولم يستطيع واحد من الأمراء الأمويين الثلاثة – محمد بن عبد الرحمن، وولديه المنذر وعبد الله – القضاء عليها رغم ما حققوه من انتصارات عديدة، إذ كان لابن حفصون من المناعة وكثرة الأتباع وحصانة الموقع ما أمكنه الوقوف كل هذه المدة فى وجه جيوش الدولة، ولم تنته ثورته إلا فى بداية عهد عبد الرحمن الناصر، (سنة ٣٠٢هـ/٩١٥م)، حيث أظهر ميله إلى السلم، وطلب الأمان، ((فأسعفه الناصر، وكتب عهداً بذلك، له ولِعقِبه ما وفُّوا)). وقد وفَّى ابن حفصون بعهوده لأول مرة، وظل على ذلك إلى أن توفى سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً"[٣]. فهدأت الفتن، وانقطع شرها، وعادت الوحدة للأندلس تحت سلطان بنى أمية من جديد.

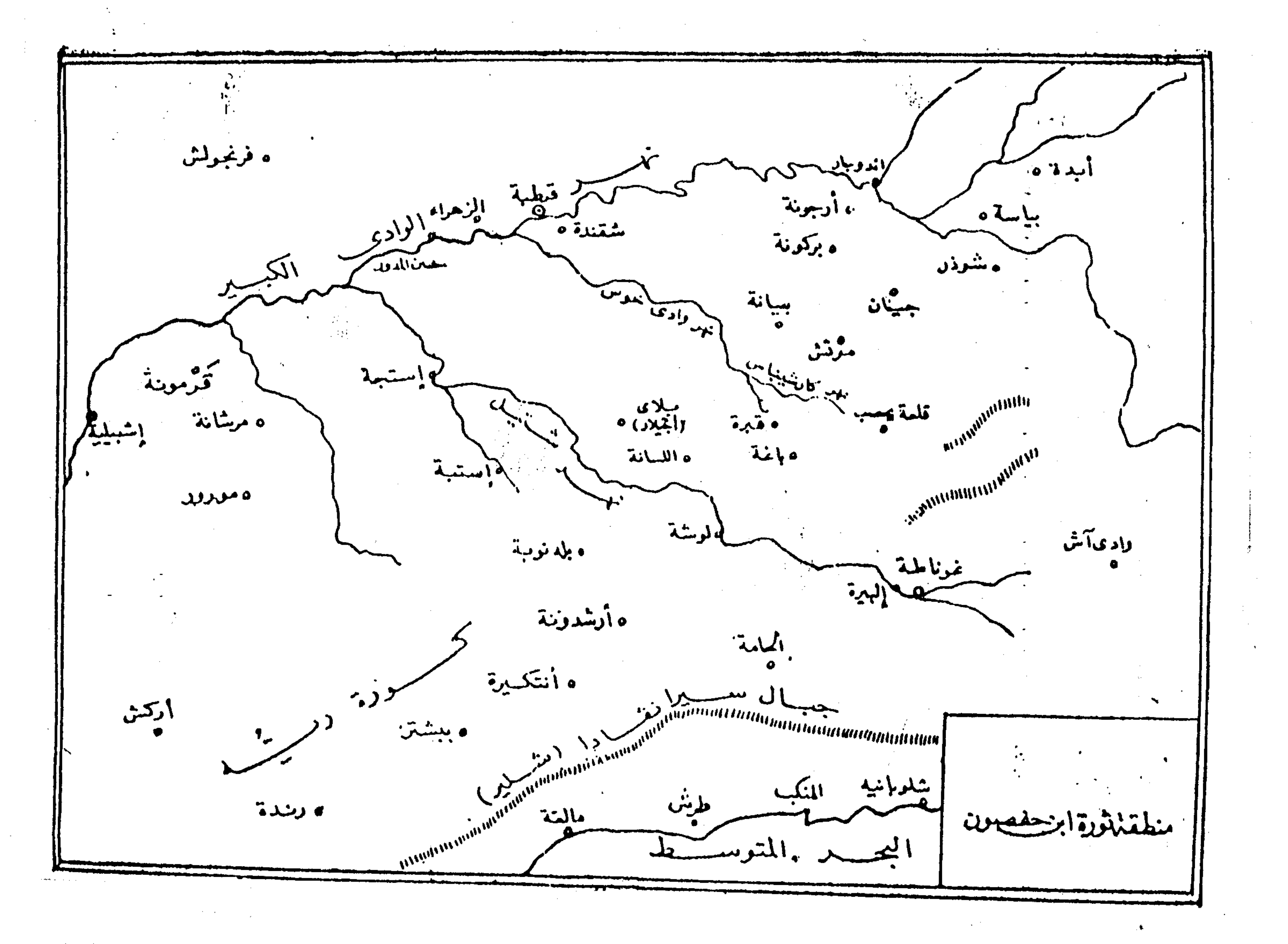
هذا، وقد شاع فى المصادر الأندلسية أن عمر بن حفصون قد تنصَّر وارتد عن الإسلام (سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م). وكان يريد من وراء ذلك أن يضم إلى جانبه جميع العناصر المستعربة ، غير أن هذا الارتداد أضره، فانصرف عنه كثير من المولّدين

---

(١) المقتبس لابن حيان ص ٣٩٣ – ٣٩٥ (قطعة منه من تحقيق د. محمود مكى).

(٢) المغرب فى حُلى المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٥٣.

(٣) راجع المقتبس لابن حيان (نشرة شالميتا) ص ١١٢-١١٥، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢.


منطقة ثورة ابن حفصون
البحر المتوسط
الوادي الكبير
قرطبة
الزهراء
شقندة
أندوجار
أبدة
بياسة
أرجونة
بركونة
شوذر
جيان
بيانة
إستجة
إستبة
قرمونة
إشبيلية
مرشانة
فرنجولش
أركش
رندة
ببشتر
أنتكيرة
أرشدونة
لوشة
غرناطة
إلبيرة
الحامة
وادي آش
جبال سييرا نفادا (الشلير)
مالقة
طرش
المنكب
شلوبانية
قبرة
باغة
اللسانة

المسلمين، فضعف أمره وتفرق عنه كثير من القادة. يقول ابن حيان فـــى أحـــداث الســـنة المذكورة ((وفيها أظهر اللعين عمر بن حفصون النصرانية، وباطَنَ العجمَ نصارى الذمـــة، واستخلصهم (أى اختارهم) بالكلمة، وأيدهم وفضلهم، وتعصب علـــى المســـلمين، وأســـاء الظن بهم، فنابذه عن ذلك عوسج بن الخليع التاكرونى (ظهيرُه)، وانحرف عنه ... وصار حربًا له وإلْباً عليه. وخرج عليه أيضا يحيى بن (زكريا) بـــن أَنتلُّـــه (Anatotio) فـــى جماعة من المسلمين، فتمرس منه، وانكشف للناسِ ردته، ورأوا فرضـــا عليـــهم حربـــه، واطردت مغازى السلطان عليه وعلى أشياعه صوائف وشواتى، فجرت له وعليـــه معـــه أمور طويلة"[1].

إن ردة ابن حفصون جعلت من المؤرخين الأوربيين يذهبون إلـــى القـــول بـــأن ثورته كانت ثورة دينية ضد غزاة عملوا على اســـتعباد الشـــعب الإســـبانى، بمعنـــى أن المصادر الأوربية بالغت فى تصوير عمر بن حفصون، وقدمته على أنه بطل قومى سـعى إلى غاية نبيلة، وهى تحرير وطنه من المتغلبين عليه ورده إلى ديانته النصرانية[2].

والحق أن هذا القول غير صحيح، فإن هذه الثورة – وغيرها من الثورات التـــى اندلعت فى الفتنة الكبرى – نتجت عن أسباب طارئة لا تعود أصولها إلـــى قيـــام الدولـــة العربية الإسلامية فى إسبانيا، وإنما تعود إلى أسباب اجتماعية تتصل كلها بنظـــام الحكـــم الأموى ووجود جماعات كبيرة من العرب فى كُور تُدْمير والمَرِيَّة وغرناطة فى (الجنوب) وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى فى تلك النواحى، ومعظمهم مُوَلَّـدون ومستعربون. كما كانت شخصية ابن حفصون ذاته عنصرًا من عناصر إضرام نار الفتنـــة. وقد عَبَّر هو عن نزعته للاستقلال، وبغضه للعرب، فقال موجهًا كلامـــه إلـــى المُوَلَّديـــن والمعاهدين: ((طال ما عَنَّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكـــم فـــوق طـــاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم، وأنا أريد أن أقوم بثـــأركم، وأخرجكـــم مـــن عبوديتكـــم))[3].

---

(١) المقتبس لابن حيان ص ١٥-١٥١ (القطعة التى نشرها د. إسماعيل العربى). وراجع: تـــاريخ النصـــارى فـــى الأندلس للدكتور عبادة كحيلة من ٢٢١، ص-٢٣١.

(٢) راجع تاريخ النصارى فى الأندلس ص ٢١٨، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الديـــن (موســـوعة سفير ج ٧ص ٤٧).

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ١١٤/٢.

فكان – كما نقل المؤرخ ابن عذارى – "لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره، وكانت طاعة أهل الحصون له بهذا الوجه))[1].

ثانيا: أبرز الأحداث الخارجية فى عصر الإمارة[2]:

أما الأحداث الخارجية فى عصر الإمارة فقد كانت متنوعة أيضا، فبعضها أخطار هددت شبه الجزيرة الأندلسية من خارجها، وبعضها نشاط أندلسى تمثل فى رد اعتداءات إسبانيا النصرانية المتكررة فى المنطقة الشمالية. وفيما يلى نعطى نبذة عن أهم هذه الأحداث.

(أ) هجوم شارلمان (ملك الدولة الفرنجية) على دولة الإسلام فى الأندلس:

كان الفرنج سلطة قوية قريبة من الأندلس ومجاورة له. وكانوا يتخوفون من الدولة الإسلامية النامية، لا سيما بعد أن رأول حاكمها الجديد (عبد الرحمن الداخل) قضى على كل المقاومة، وظهرت الأندلس مرة أخرى قوية متماسكة. ومنذ السنوات التى سبقت عبد الرحمن الداخل مباشرة كانت سياسة الفرنج نحو الأندلس عدائية، لا يتركون فرصة إلا واستغلوها فى إضعاف قوة المسلمين، واتخذوا عدة وسائل لمهاجمة المدن الإسلامية فى الشمال الشرقى، كتحريض العصاة الخارجين على الدولة، أو تأييدهم ومدهم بوسائل القوة الممكنة، هذا إلى جانب المحاولات العديدة لتقليص حكم الإسلام وطرد المسلمين من المناطق الجنوبية فى إقليم "غالة" خلف جبال "ألبرت".

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شئ إلى تأمين "غاله" (جنوب فرنسا) من الغزو الإسلامى فقد رأت أن تنشئ فى أقصى الشمال الشرقى من الأندلس–مما يلى جبال "ألبرت"–ولاية فرنجية جديدة تكون سدا بين المسلمين وبين مملكة الفرنج، وأنشئت هذه الولاية–فى البداية–من مدن "جيرونة" و "أوزونة" و "سولسونة" وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضى الأندلس الإسلامية. ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى–فى "طليطلة" وغيرها–وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية وجد الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب. وكان "شارلمان" ملك الفرنجة يطمح بالأخص إلى افتتاح مدينة "برشلونة" المنيعة لتكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية، فعمد قبل البدء

---

(١) البيان المغرب ١١٤/٢. وراجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٠٣.

(٢) كان بند (أولا) بعنوان: (أهم الأحداث الداخلية) – راجع عنه (ص ٦٣).

فى تنفيذ مشروعه إلى التحالف بينه وبين أمير "جليقيه"-ألفونسو الثانى-لكى يكتسب ولاء "البشكنس" ومعاونتهم. وفى (سنة١٨٥هـ / ٨٠١م) – فى إمارة الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م) – سير "شارلمان" إلى الأندلس جيشا ضخما لغزو "برشلونة" بقيادة ولده "لويس"، وكان "الحكم" مشغولا-يومئذ-بمطاردة الخارجين عليه، وفى مقدمتهم عماه "سليمان" و "عبد الله"(١). وقد حاصر جيش الفرنج المدينة، وثبت حاكمها القائد العربى "سعدون الرعينى" مدافعا عنها، ومصمما على المقاومة، دون أن يصله مدد أو عون. وأخيرا اضطرت "برشلونة" إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر، وأنشأ "شارلمان" فيها ولاية ثغرية أصبحت من ذلك الحين شوكة فى جنب المسلمين، لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت إمارة نصرانية مستقلة تابعة للنصارى الإسبان، هى إمارة "قطلونية"(٢) التى اندمجت فيما بعد -أثناء القرن الثالث الهجرى-مع مملكة "أراغون" (أراجون) القوية، وغزت الجانب الشرقى من دولة الإسلام فى الأندلس(٣).

(ب) التصدى للممالك النصرانية الناشئة فى الشمال:

وقد عرفنا فى موضع سابق أن النصارى الإسبان استطاعوا أن يستفيدوا مما وقع بين المسلمين (العرب والبربر) من فرقة وحروب طاحنة فى أواخر عصر الولاة، إضافة إلى المجاعة التى عمت البلاد وأدت بكثير من سكان المناطق الشمالية إلى هجرها، واستغلوا ذلك أحسن إستغلال فى أن يكونوا دولة فى الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة، عرفت بمملكة (جليقيه) و (أشتوريس) وعرفت بعد ذلك "بمملكة ليون" منذ عهد الملك ألفونسو الثالث (٢٥٢-٢٩٧هـ / ٨٦٦-٩١٠م) وهى أول مملكة نصرانية تقوم بعد انتهاء الفتح العربى للبلاد، وأصبحت حائلا بين الجلالقة وبين المسلمين(٤).

وقد أدى عدم التفرغ تماما لمقاومة نصارى الشمال الإسبانى إلى ظهور ممالك نصرانية أخرى إلى جانب مملكة "جليقية" و "أشتوريش"، مثل مملكة "نبارة " (نافار) فى الشمال الشرقى . (غرب جبال البرتات، وإلى الشرق من جبال كنتبرية) وتقع هذه المملكة

---

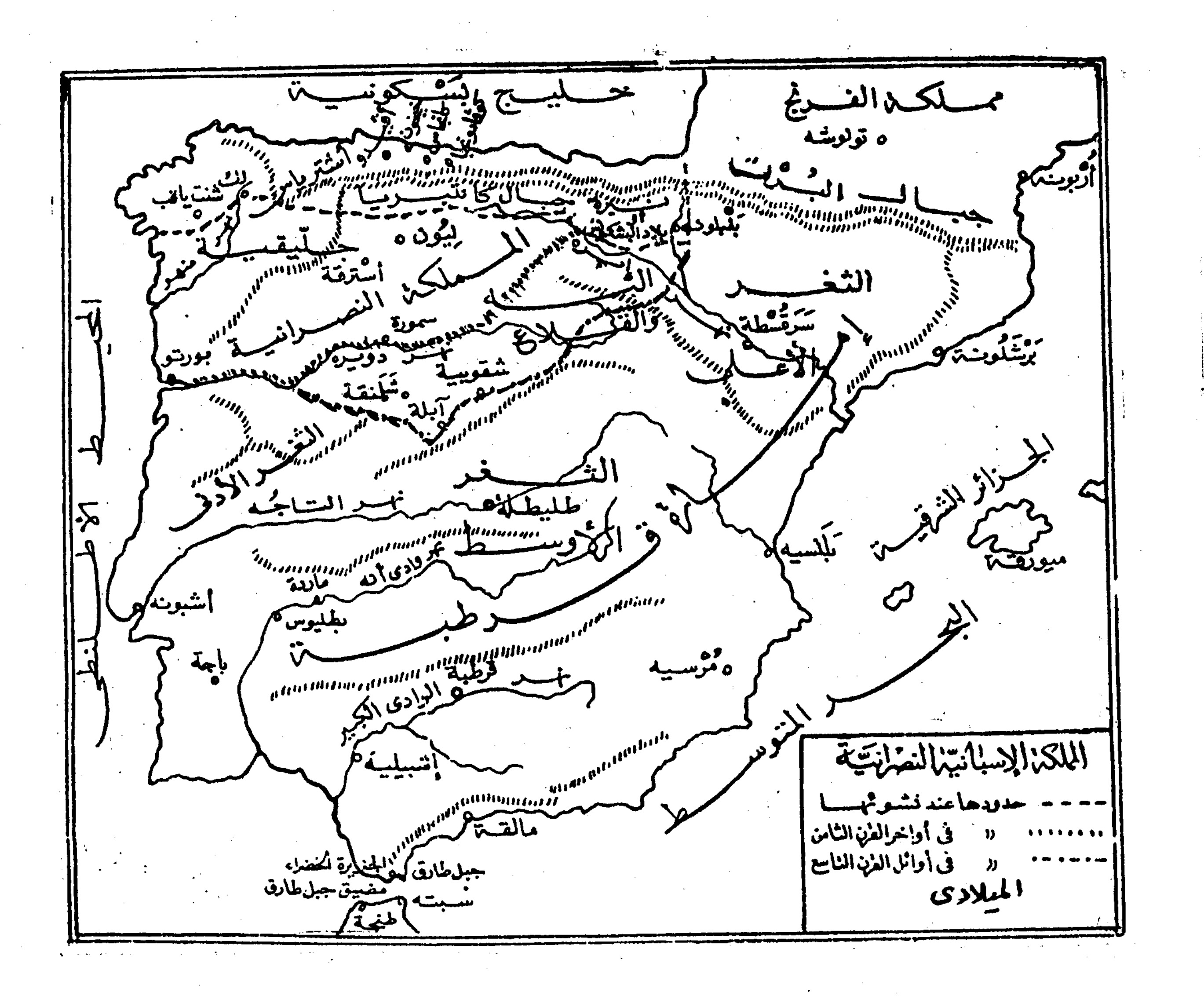
(١) راجع عن الفتن والثورات التى ولجهها الأمير الحكم بن هشام – (ص ٦٦ وما بعدها).

(٢) راجع حديثنا عن الثغور فى الأندلس – ص ٦.

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٣٢٢/٥-٣٢٣، دولة الإسلام فى الأندلس، لمحمد عبد الله عنان ٢٣٥/١-٢٣٦، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٧٤.

(٤) راجع عن ذلك ما ذكرناه (ص ٥٧-٥٨).




مملكة الفرنج
تولوشه
خليج بسكونية
جبال البرت
أربونه
جبال كانتبريا
بنبلونة
جليقية
ليون
أسترقة
المملكة النصرانية
سمورة
نهر دويره
بورتو
شقوبية
شلمنقة
آبلة
سرقسطة
برشلونة
الثغر الأعلى
الثغر الأدنى
الثغر الأوسط
طليطلة
نهر التاجه
وادى آنه
ماردة
بطليوس
اشبونه
باجة
قرطبة
نهر قرطبة
الوادى الكبير
إشبيلية
مرسيه
بلنسيه
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
مالقة
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة
الممالك الإسبانية النصرانية
حدودها عند نشوئها
في أواخر القرن الثامن
في أوائل القرن التاسع
الميلادى

فى بلاد البشكونس، وقاعدتهم "بنبلونة" التى حكمها المسلمون فترة من الزمن، ثم فقدوها فى أواخر القرن الثانى الهجرى أمام غزوات الفرنج للمنطقة الشمالية من إسبانيا. وهؤلاء كانوا يسكنون شرق "أشتوريس"، وحول خليج "بَسْكاى"، وربما امتد وجودهم إلى البلاد التى تقع وراء جبال "البُرتات" إلى جهة فرنسا. وهم أمة مستقلة، ولهم لغتهم الخاصة حتى الآن. وقد قام أمراء "جِلِّيقية" بمحاولة غزوها غير مرة وضمها إلى مملكتهم، لكنها استقلت بنفسها قرب نهاية القرن الثانى الهجرى[1].

وبين مملكتى "ليون" و "نبارة" تكونت مملكة "قشتالة". وتضم "ألبة" و "القلاع". وكان حاكمها-الذى يتخذ من مدينة "بَرْغَش" مقرًا-خاضعًا لملك "ليون"، ثم انفصلت هذه المملكة فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى.

هذه هى التجمعات النصرانية الرئيسية فى الشمال الإسبانى فى عصر إمارة بنى أمية، وما يلى ذلك من عصور. وقد كانت مملكة "جليقية" و "أشتوريس" هى أول دولة قامت فى الشمال الإسبانى وما هى إلا استمرار لدولة القوط الزائلة. ولم يقم بجانبها مملكة ذات شأن إلا "نبارة" التى ظهرت فى وقت متأخر، ولم يكن لها دور إلا فى النصف الثانى من عصر الإمارة الأموية. أما "قطلونية" فكانت إمارة تابعة للفرنجة، ولم يكن لها شأن كبير فى تاريخ إسبانيا فى تلك الفترة.

وقد واجهت السلطات الأندلسية فى عصر الإمارة هذه الممالك، ولم يتخلف جميع أمراء بنى أمية عن التصدى لها والوقوف أمام توسعاتها، حتى فى فترات الانشغال بالفتن الداخلية التى كان يقوم بها العرب والبربر والمُولَّدون والمستعربون، مما أجبر نصارى الشمال على احترامهم والحرص على مسالمتهم بقدر الإمكان.

وليس من المناسب – فى هذا الموجز – تتبع الحملات العسكرية الجهادية التى قادها الأمراء الأمويون بأنفسهم – أو قادتهم – إلى تلك المناطق، فهى كثيرة جدا. ونكتفى هنا بذكر بعض الملاحظات العامة التى توضح لنا طبيعة الصراع بين نصارى الشمال الإسبانى ومسلمى الأندلس فى عصر أمراء بنى أمية،وهى[2]:

---

(١) راجع: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٤٢، ٥٠، ٩١، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٦٧/١.

(٢) اعتمدنا فى استخلاص هذه الملاحظات على كتاب الدكتور رجب محمد عبد الحليم (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) مع شئ من الإضافة والتصرف (راجع فيه ص ١١٢-١٦٠).

١- اختلف الصدام العسكرى بين الجنوب المسلم والشمال النصرانى شدة وضعفا حسب الأحوال الداخلية لكل من الجانبين؛ فإذا انشغل الجنوب بمشاكله الداخلية تجرأ الشمال وشدد هجومه على الأراضى الإسلامية، والعكس صحيح. وبذلك تبادل الفريقان النصر والهزيمة، وإن كان النصر حليف المسلمين فى أكثر الأحيان. لكن لم ينل أحدهما من الآخر بما يقضى عليه ويزيله من الوجود.

٢- كانت معظم الحملات التى قام بها مسلمو الأندلس فى عصر الإمارة تتجه أول ما تتجه إلى المنطقة الوسطى من الشمال النصرانى، وهى التى تسمى "ألبة" و"القلاع - (قشتالة) - ثم تتجه: إما إلى الشرق-أى إلى الثغر الأعلى (سرقسطة)(١) للقضاء على المتمردين من بنى قسى" وغيرهم من المولدين الذين أعلنوا العصيان والتمرد بعد عام (٢٢٧هـ /٨٤١م) وتحالفوا مع أمراء "نبارة" - فى مناطق "البشكونس" - وإما الاتجاه شمالا إلى أهل "نبارة" لعقابهم على ذلك، أو الاتجاه غربا لمهاجمة مملكة "جليقية".

٣- وإدراكا لخطورة الوضع فى مناطق الثغور-أو الحدود-مع الشمال النصرانى كان أمراء بنى أمية ينظمون إرسال الحملات التى كانت تسمى بالصوائف والشواتى. وقد حفلت عهود معظم أفراد بنى أمية بإرسال هذه الغزوات، إما هجوما، أو دفاعا، أو ردا على هجوم وقع بالفعل أو يرتقب حدوثه.

٤- كانت الأوضاع الداخلية تفرض على طرفى الصراع - أحيانا - عقد معاهدات الهدنة والصلح كما حدث فى عهد عبد الرحمن الربضى (٢٠٦-٢٣٨هـ) حينما هاجم النورمانديون الأندلس(٢) - فعقد عبد الرحمن صلحا مع حكام "نبارة". وكما حدث أيضا بين الأمير عبد الله (٢٧٥-٣٠٠هـ) و "ألفونسو الثالث" ملك "جليقية" من أجل التفرغ لمحاربة عمر بن حفصون فى الجنوب. لكن لا تلبث دوافع الصراع أن تتحرك عند أحد الطرفين، فتنشب الحرب من جديد، وكان النصارى - غالبا - هم الناقضون للعهد.

٥- وإذا توقفت الحملات العسكرية الموجهة إلى الممالك النصرانية بسبب كثرة الثورات والفتن ولم يكن ثمة معاهدة بين الدولة الإسلامية وهذه الممالك تركت الدولة مهمة

---

(١) راجع حديثنا عن الثغور فى الأندلس - ص ٦.

(٢) سيأتى الحديث عن هجوم النورمانديين على الأندلس (ص ٩٠-٩٢).

المقاومة لأمراء الثغور من "بنى قسى" المولدين حكام "سرقسطة"، "وبنى تجيب" العـــرب، ولم يكن لقرطبة سلطان على هؤلاء فى كثير من الفترات.

٦- لم يكن هدف مسلمى الأندلس من جهاد نصارى الشمال الإسبانى إبادة هـؤلاء النصارى أو تحطيم دولهم وإزالتها من الوجود، فلم يكن ذلك ممكنا بعد أن قـــامت دولـــة "جليقية" ودولة "نبارة"، ومن ورائهما الفرنجة يمدونهما وقت الحاجة، كما كـــانوا يمـــدون أيضا إمارة "قطالونيا"، تلك الشوكة التى زرعها الفرنجة فى ظهر الثغر الأعلى الأندلســـى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن معظم الحملات التى قام بها مسلمو الأندلس لم تكـــن إلا رد فعل لاعتداءات النصارى على الثغور الإسلامية أو مناطق الحدود المجاورة لـــهم. صحيح أن حملات المسلمين اتخذت شكلاً تقليديًا وزمنيًا ثابتاً، وهو إرسال "صائفـــة" كـــل سنة تقريبا، وربما كانت هناك شاتية، لكن لم يكن ذلك إلا دفعا لخطر النصارى أو تأديبـــا لهم وإجبارهم على التعايش، وتأمينا للحدود التى لم تكن حدودا ثابتة على الـــدوام، وهـــذا النوع من الحرب يسمى الآن-فى المصطلح الحديث-بالحرب الوقائية.

ولعل من أهم العوامل التى تؤكد ما ذهبنا إليه انشغال الأمويين بتثبيـــت الدولـــة، والقضاء على الفتن وحركات التمرد الداخلية التى لم يخل منها عصر أى أمير من أمـــراء بنى أمية. زد على ذلك هذا الانقسام الواضح فى كيان المجتمع نفسه (فى أواخـــر عصـــر الإمارة) إلى بربر وعرب ومولدين ومعاهدين (مستعربين) وقيام كل فئة من هذه الفئـــات بتثبيت سلطانه وإعلاء استقلاله ومحاربته للسلطة المركزية فى قرطبـــة بـــهدف القضـــاء عليها.

أما دول الشمال النصرانى في الأندلس فقد وجد معها - منذ قيامها - الحافز على قتال المسلمين، وكان هدفها أولا الدفاع عما تبقى لها من أرض فى شبه الجزيرة، وتطـــور الدفاع إلى الهجوم المُـتَّـئِد فى النصف الأخير من عصر الإمارة، بغية إجـــهاد مســـلمى الأندلس وخلق المشاكل أمامهم سواء فى داخل الأندلس نفسها أم على حدودها، حتى يحيـــن الوقت المناسب لتوجيه هجمات عاتية تقتلعهم من الأرض. وقد حدث هـــذا بـــالفعل بعـــد سقوط الخلافة الأموية فى قرطبة (سنة ٤٢٢هـ /١٠٣٠م) وأصبحت الأندلـــس طوائـــف ودولا ممزقة.

وقد اتبع نصارى الشمال أساليب مختلفة لتحقيق هذا الغرض. اتبعوا أسلوب الحرب وجهاً لوجه، وتحريض المولّدين، وإثارة الفتنة بين النصارى والمسلمين، واستعداء الفرنجة (فى الثغر الأعلى) على المسلمين، وحرب الاستنزاف والإنهاك. وكانت معظم حروب النصارى الشماليين من هذا النوع الأخير، يضربون ضربةً هنا وأخرى هناك، حتى إذا قام الأمير الأموى وجنّد آلاف الجند، وسار بجيشه بنفسه، أو بواسطة أحد أولاده أو قواده، ووصل إلى منطقة الثغور وجد النصارى قد هاجموا أحد الحصون الحدودية ودمروه ونهبوا ما فيه وما حوله من قرىً وأسروا العدو من أهله، ثم لاذوا بالفرار.

كان هذا هو هدف الإسبان من حربهم ضد مسلمى الأندلس، وهذا هو أسلوبهم فى فترة الإمارة (١٣٨- ٣٠٠هـ /٧٥٦ – ٩١٢م). أما القول بأن الحروب التى يشنها النصارى الإسبان فى تلك الفترة كانت حروبا صليبية – بالمعنى الاصطلاحى – فأمر لا يُسلَّم به؛ إذ إن الحرب الصليبية لا يعلنها إلا البابا، فهو الرئيس الأعلى للمسيحية، فى حين أن نظام الحكم فى إسبانيا الشمالية لم يعترف بسلطة البابوية وإشرافها على الكنيسة الإسبانية إلا (عام ٤٦٨هـ /١٠٧٥م). لكن ينطبق هذا على تلك الحروب فى عصورها الأخيرة، بدءاً من القرن الخامس الهجرى حينما صار الصراع بين مسلمى إسبانيا ونصاراها صراع حياة أو موت، وخاصة بعد أن تدفق على شبه الجزيرة "المرابطون" (٤٨٤-٥٣٩هـ / ١٠٩١-١١٤٤م) و "الموحدون" (٥٣٩-٦٢٠هـ / ١١٤٤-١٢٢٣م) الذين أثاروا الحماس الدينى فى هذه المنطقة، فى الوقت الذى أثارت فيه البابوية فى روما الحماس الدينى المسيحى فى أوربا، وقامت بأولى حملاتها " الصليبية" فى المشرق فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى.

(ج) غارات النورمانديين على الأندلس (٢٢٩هـ – ٢٣٠هـ / ٨٤٤م):

والنورمانديون أو الفايكنج "vikingos" هم سكان المناطق الشمالية من أوروبا وموطنهم الأصلى شبه الجزيرة الإسكندنافية، وكانوا شعباً شرساً غير متحضر، وبسبب قسوة المناخ وجدب الأرض فى بلادهم وأن الزراعة وتربية الماشية صعبة وعسيرة اتجهوا إلى البحر طلباً للرزق، لذا أصبحوا ملّاحين مهرة ذوى براعة فائقة فى جوب البحار على متن ظهور سفنهم الطويلة ذات الأشرعة السوداء والمجاديف الخفيفة. وفى بداية القرن التاسع الميلادى (الثانى الهجرى)، بدأت غزواتهم فى اتجاه الجنوب نحو

السواحل والشواطئ الأوربية، فكانوا يهبطون إلى مدن السواحل فيقتلون الناس وينـــهبون ويسلبون ما تقع عليه أيديهم، ثم يعودون إلى سفنهم محملين بالغنائم . وقد وصلت غاراتــهم إلى روسيا وإلى جزيرة "أيسلنده" ومنها اتجهوا إلى جزيرة "جرينلند" وأحدثت هجماتهم فــى كل من "إنكلترة" و"فرنسا" أضرارًا فادحة. وقد استقروا فى المنطقة الشمالية مـــن فرنســا التى حملت اسمهم "منطقة نورماندى " واتصلوا بالحضـــارة الفرنسـية، وتحولـوا إلـى المسيحية، واستبدلوا بلغتهم الإسكندنافية لغة الأقاليم الشمالية من فرنسا[1].

ويطلق المؤرخون المسلمون على النورمانديين تسمية "المجـوس الأُرْدُمـانيون"، بسبب أن النورمانديين كانوا وثنيين قبل اعتناقهم المسيحية فكانوا يوقدون النار فـــى كـل مكان يحلون فيه، بل إنهم كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم، فظن العـــرب أن هؤلاء من المجوس عبدة النار " الزَّرَادِشْتيون"[2].

وقد كانت الغارة الأولى على الأندلس فى عهد عبد الرحمـــن الأوسـط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) فى مستهل ذى الحجة (ســنة ٢٢٩هــ / ٨٤٤م). والنورمـــان الدنماركيون هم الذين قاموا بهذا الهجوم، قد بدأوا بهجومهم على سواحل إسبانيا الشـمالية عند الإقليم الذى يعرف باسم "جِلِّيقِيَّة"، ولكن الملك (روميرو الأول) ملـك مملكـة "لِيُـون" تمكن من ردهم[3] فاتجهوا إلى سواحل الأندلس الغربية والجنوبية فى أربع وخمسين مركبًا ومعها أربع وخمسون قاربًا فنزلوا فى ثغر أُشْبونة (لِشْبونة عاصمة البرتغـال الحاليـة)، فكتب عامل المدينة وهب الله بن حزم إلى الأمير عبد الرحمن الأوسـط ينبئـه بـالخطر، فكتب إليه الأمير أن يأخذ للأمر أهبته ويحتاط. وقد تمكن الوالى من الحد مـن هجماتــهم فعلا، مما اضطرهم إلى الاتجاه جنوبا إلى مدينة (قادش) ثم مدينة (شَـذُونة) ثـم اتجـهوا بسفنهم نحو نهر الوادى الكبير إلى مدينة (إشبيلية) وذلك فى ١٢ محرم سنة ٢٣٠هـــ /

---

(١) راجع تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط (القسم الأول: البحرية الإسلامية فى المغـرب والأندلس) للدكتور السيد عبد العزيز سالم، والدكتور أحمد مختار العبادى – ص ١٥٢-١٥٣، البحرية العربيـة فى الأندلس منذ بداية تأسيسها إلى عهد الخليفة الناصر (بحث لمحمد عبدالعزيز عثمان – منشور بمجلة المورد – المجلد الثانى عشر، العدد الرابع ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣م – ص ٦٥. وكلمة (الفايكنج) المذكورة مشتقة من الكلمـة النرويجية (Vik) وتعنى ساكنى الخليج، ولهذا أطلقت على سكان شبه الجزيرة الإسكندنافية لكثرة خلجانـها. أو هى بمعنى المحاربين فى اللغة الإسبانية).

(٢) التاريخ الأندلسى للحجى ص ٢٢٧ – ٢٢٨، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ٢٦١.

(٣) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنانا ٢٦٢/١.

٨٤٣م، وكان عدد مراكبهم نحو من ثمانين مركبا هذه المرة، ويصفها ابن عذارى بقوله «كأنما ملأت البحر طيرا جونا كما ملأت القلوب شجوا وشجونا»[١] أي أنها تشبه الطيور السوداء فى السماء لسواد أشرعتها . وعند مدخل الوادى الكبير تمكنوا من السيطرة على جزيرة صغيرة يقال لها جزيرة (قبطيل) وكانت مليئة بالخيول والماشية، فقتلوا أهلها واستولوا على كل ما فيها، واتخذوها قاعدة لهم لكى تحمى ظهورهم فى حالة الانسحاب بعد الهجوم، ثم تقدموا نحو (إشبيلية) التى كانت غير مسورة، فتصدت لهم بعض السفن، لكن النورمانديون استقبلوها بوابل من الأسهم النارية فاشتعلت النيران فيها وغرقت[٢] ثم واصلوا تقدمهم ودخلوا المدينة وأعملوا فى أهلها القتل مدة سبعة أيام متتالية[٣]، مما أدى إلى فرار من استطاع النجاة بنفسه من أهل إشبيلية إلى الجبال المجاورة، وإلى مدينة "قرمونة" ثم انسحب النورمان بسفنهم بعد ذلك إلى جزيرة (قبطيل) لكى يضعوا فيها ما غنموه، ورجعوا إلى المدينة ثانية فوجدوها خالية من الناس ما عدا بعض الشيوخ الذين تجمعوا فى أحد مساجد المدينة ليحتموا به، فقتلوهم عن آخرهم، ولذا سمى هذا المسجد باسم مسجد الشهداء. وقد وحاول النورمانديون الاتجاه بعد ذلك شمالا فى نهر الوادى الكبير نحو قرطبة العاصمة، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لصعوبة الملاحة فى هذا الجزء من النهر لشدة التيار، ولهذا استخدموا الخيول التى غنموها فى مهاجمة المناطق المجاورة لمدينة إشبيلية[٤].

وفى هذه الظروف ولمواجهة الخطر المحدق بالأندلس دعا الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى الجهاد (تحشيد الجيوش) فأرسل على عجل فرقة من الفرسان يقودها عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم، وجعل على قيادة قوات قرطبة عيسى بن شهيد، كما استنجد بقوات الثغر الأعلى المتمرسة على القتال ضد الممالك المسيحية فى الشمال وكانت بقيادة بنى قسى. وقد حاول النورمانديون الانسحاب من إشبيلية نحو سفنهم يريدون الخروج بها إلى عرض المحيط الأطلسي، غير أن الجيوش الأندلسية اقتفت أثرهم، وبدأت بضرب

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ٢/٨٧.

(٢) الأمويون أمراء الأندلس الأول، للدكتور أحمد إبراهيم الشعراوى ص ٣٢٠.

(٣) البيان المغرب ٢/٨٧.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٤.

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٢٣٦.

سفنهم بالمجانيق المنصوبة على ضفتى النهر، مما اضطر النورمان إلى النزول من سفنهم إلى البر لمجابهة الجيوش الأندلسية، ودارت المعركة الحاسمة قرب إشبيلية في قرية طَلْياطَة (Tobada) (فى ٢٥ صفر سنة ٢٣٠هـ) انتهت بهزيمة النورمانديين، ومقتل قائدهم وعدد كبير منهم نحو الخمسمائة. وعلى أثر هذه الهزيمة تراجع من بقى منهم إلى الجنوب وأبحروا باتجاه جزيرة (قُبْطيل)، إحدى جزر إشبيلية القريبة منها، وكانت الجيوش الإسلامية ترميهم اثناء ذلك بوابل من الحجارة .ولما رأوا الخطر المحدق بهم طلبوا الصلح وأطلقوا الأسرى المسلمين عندهم «ولم يأخذوا فدائهم ذهباً ولا فضة، وإنما أخذوا الثياب والمأكول» ووقع عدد كبير منهم ممن لم يستطع اللحاق بالسفن أسرى بأيدى المسلمين. وقد أقام هؤلاء بصفة دائمة فى الأندلس، واعتنقوا الإسلام، واشتغلوا بتربية الماشية وصناعة الألبان، وكونوا طبقة من المولدين من ذوى الأصل النورماندى. وقد عمد النورمانديون أثناء انسحابهم من ثغور الأندلس إلى مهاجمة مدينة (لَبْلَه) و(باجه) ثم ثغر (إشْبُونة) ثم غادروا مياه الأندلس نهائياً مع باقى سفنهم فى غزوتهم الأولى هذه[1].

تركت الغزوة التى قام بها النورمانديون على ثغور ومدن الأندلس أثراً كبيراً فى نفوس أهل الأندلس، لما بثته من رعب وخوف وقلق، مما دفع الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى أخذ الأهبة والاستعداد لصد أى هجوم مقبل من جهة البحر، فأمر ببناء سور إشبيلية لحمايتها، وعمل على وضع نقاط الحراسة على طول الساحل الغربى من الأندلس، عرفت بالرُبط يقيم فيها المتطوعون للدفاع عن الثغور، مزودين بوسائل الدفاع العسكرى.

كما أمر الأمير عبد الرحمن ببناء دار لصناعة السفن فى إشبيلية، وزودها برجال البحر المدربين، وبآلات وقوارير النفط لاستعمالها فى الدفاع، كما أنشأ داراً لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن فى مدينة "قَرْمونة" وكان من أثر ذلك أن كان للأندلس أسطول ضخم يضم عدداً كبيراً من السفن الحربية يقدر بما يزيد على (٣٠٠) سفينة، إذا أخذنا برواية ابن حيان وابن الخطيب عند ذكرهما غزو الأسطول فى زمن عبد الرحمن الأوسط لجزيرتى "مَيُورقة" و"مَنُورقة" «وفيها (أى فى سنة ٢٣٤هـ) أغزا الأمير عبد الرحمن أسطولاً من (٣٠٠) مركب إلى أهل جزيرتى ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد بمن يمر

---

(١) من المصادر التى اعتمدنا عليها فى التأريخ لغارة النورمانديين الأولى على الأندلس: البيان المغرب ٢/٨٧-٨٨، نفح الطيب ١/٣٤٥-٣٤٦، أعمال الأعلام ص ٢٠، الكامل لابن الأثير ٦/٨٣-٨٤، المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب لابن سعيد ١/٤٩.

إليهم من مراكب المسلمين، ففتح الله للمسلمين عليهم وأظفر بهم))[1] مما دفع سكان هذه الجزيرة إلى طلب الصلح والدخول فى طاعة الدولة الأموية.

هذا، وقد قام النورمانديون بهجمات أخرى على الأندلس بعد عهد الأمير عبد الله الأوسط (على الرغم من أنهم فى عهده سعوا إلى طلب الصلح، وتبادلوا السفارات الدبلوماسية مع حكومة قرطبة) إلا أن هجماتهم هذه لم تستطع أن تحقق أهدافها بسبب الاستعداد الذى اتخذ من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط ومن جاء بعده، بحيث يصف ابن عذارى الاستعدادات البحرية فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط عند حديثه عن غارات النورمانديين فى سنة ٢٤٥هـ – ومعهم اثنان وستون مركبا – فيقول: ((وجدوا البحر محروسًا، ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط الإفرنجة (أى فى الشرق والشمال الشرقى) إلى حائط جليقية فى الغرب الأقصى))[2].

ثالثا: أهم الخصائص والملامح الحضارية العامة التى يتميز بها عصر الإمارة:

التاريخ الإسلامى ليس تاريخا سياسيا وعسكريا فحسب ، وإنما هو تاريخ شامل لكل ما أثمرته الحضارة الإسلامية فى مجالاتها المتعددة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وإذا قلنا إن التاريخ السياسى هو القاعدة التى ينبغى أن تبنى عليها كل دراسة للحضارة فانه ليس كل شئ، ((فما هو إلا بمثابة هيكل عظمى ينبغى أن يكتسى لحما وعصبا حتى نستطيع أن نراه جسدا سويا. والذى يكفل اكتمال هذا الجسد هو التعرف على نبض المجتمع وأحواله الاجتماعية والثقافية))[3].

ولا شك فى أن هناك علاقة بين الظروف السياسية القائمة ومظاهر الاستقرار وعدمه من جهة ،وبين التطورات الاجتماعية والفكرية من جهة أخرى، ((ومن ثَـمَّ تلتحم السياسة بالثقافة، ويتلاحم رجال الإدارة والحكم مع رعاة الفكر والعلم فى وحدة وثيقة تبرز روح العصر وطبيعته ،ومدى تقدمه وتطوره))[4].

---

(١) المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود على مكى) ص ٢-٣، أعمال الأعمال لابن الخطيب ص ١٨، البيان المغرب ٨٩/٢.

(٢) البيان المغرب ٩٦/٢-٩٧.

(٣) من تقديم الدكتور محمود على مكى لكتاب "قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى" للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف – ص ٧ (بتصرف يسير).

(٤) د.عبد الفتاح فتحى: الحياة الثقافية فى العالم العربى فى القرنين الأول والثانى الهجريين – الجزء الأول ص ١٧.

ومن هنا رأينا أن نعطى نبذة سريعة (لقطـــات) لأهـم الخصـــائص والملامـــح الحضارية العامة التى يتميز بها عصر الإمارة الأمويـــة بـــالأندلس، دون الدخـــول فـــى التفاصيل.

(أ) من الناحية الاجتماعية :

١- كان عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ)عهد انتقال إلى حياة جديدة قائمة على أســس إسلامية فى السلوك الاجتماعى والحياة اليومية ،وقد بذل العديد من الولاة – ومعهم العلماء والدعاة –الجهود لتوفير هذه الحياة، ومدّ رحابها وتهيئة الجو الملائـــم لــها. وبذلــك زاد دخول الكثير من أبناء البلاد فى الإسلام، وبدأ المجتمع يسير فى طريق التحضر الحقيقـــى والخط الإنسانى الرفيع. ونتيجة للاستمرار فى هذا الاتجاه وتعميقه بدأ الغرس يؤتى ثمـــاره مع تقدم الزمن، وبدأ الكثير من مظاهر السلوك والأخلاق والقيم الإسلامية تبرز بصـــورة واضحة جلية فى فترة الإمارة ،نتيجة لدخول هذه البلاد فـــى رحـــاب الإســـلام والـــتزام أهله به.

إن أهم ما كان يميز هذا المجتمع فى عصر الإمارة شيوع مجموعة مـــن القيـــم والمبادئ المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن أهمها: العدل والمســـاواة والشورى والحرية والتكافل الاجتماعى – على مســـتوى الأفـــراد والدولـــة – والتـــآلف والترابط بين عامة الناس، والرحمة والتسامح، والأمر بالمعرف والنـــهى عـــن المنكـــر ومراعاة الصالح العام، وغير ذلك من القيم التى صبغت المجتمع الأندلسى بصبغة إيمانيـــة جعلت منه فى مجمله مجتمعاً صالحاً ومتحضراً.

وقد لاحظنا من خلال الإطلاع على النصوص والمرويات الأندلسية الكثـــيرة أن المجتمع الأندلسى كان يقوم فى مجملة على ما ذكرنا من مبادىء وقيم أخلاقية يتعامل بـــها الناس على اختلاف مستوياتهم وثقافاتهم، ويعيشون فى إطارها. وكان المعيار الذى يقـــاس به صلاح هذا المجتمع وسموه هو تقوى الله، وهى تعنى الالتزام بالمنهج الربـــانى الـــذى يستمد الناس منه قيمهم وأخلاقهم.

وهذا لا يعنى أن المجتمع الأندلسى لم يخلُ من بعض صور السلبية والانحـــراف التى تخرج عن الطابع الأخلاقى العام أو أنه خلا من أفراد ساءت سيرتهم وانحرفوا عـــن الأخلاق العامة، فقد كان الناس – بميزان الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلـــة – فئتيـــن؛ فئة صالحة لا تستغنى عن العلم وحلقاته، وهى الكثرة الغالبـــة، وفئـــة أخـــرى لا تبـــالى

بالتمسك بالفضيلة وحسن السلوك، ولكنها الفئة القليلة. ولا ينبغى أن نقلـــل دور الســلطة المتمثل فى "جهاز الشرطة"وجماعة "الحسبة" فى التصـــدى للمفســدين وللخـــارجين عـــن السلوك العام والمحافظة على الأمن فى الطرقات والأسواق.

وفى هذا السياق نذكر ما قاله المقَّرى واصفاً أهل الأندلس فى تمسكهم بالشــريعة: ((والأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة فى ذلك وإنكــاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان...)). وقال أيضا مشيرا إلـــى خلـق اجتمــاعى امتــاز بـــه الأندلسيون: "وأما طريقة الفقراء على مذهب أهـــل الشــرق فـــى الــدَّرْوَزة (أى الكديـــة والشحاذة) التى تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب (أى للشحاذة) فى الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصًا صحيحًا قادرًا على الخدمة يطلب سبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر))[1].

٢- وليس من شك فى أن المجتمع الأندلسى قد أُوذِى كثيرًا، ولاقى ألوانـــًا مـــن الضرر فى أواخر عصر الإمارة (فترة الفتنة الكبرى) حين تـــألبت كـــثرة مـــن الفتـــن والشرور الداخلية والخارجية أدت إلى انحسار الدولة الإسلامية فـــى المنطقـــة الشـــمالية وفقدها قريبًا من ربع شبه الجزيرة .لكن تلك الأحداث كانت فى الوقت نفسه - من الناحيـــة الاجتماعية - سببا من أسباب الاحتكاك بين عناصر المجتمع فى الداخـــل، وعـــاملاً مـــن عوامل صَهْره؛ ذلك أن النزاع بين الإمارة وجماعة ابن حفصون، وبين العرب والمولَّدين، وما كان من حركات انفصالية قد أتاح لعناصر المجتمع الأندلسى احتكاكاً أكثر، واتصـــالاً أشد، وانعكس ذلك على الحياة اليومية والمظاهر المعيشية[2].

(ب) النظم والإدارة :

١- أصبح الأندلس - منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) - بلدا إســلامياً مستقلاً عن الخلافة الإسلامية، بعد أن كان خاضعًا لمركز هـــذه الخلافـــة، ولـــم تحـــاول الخلافة العباسية إعادته بصورة جدية لأن استقلاله سياسيًا - على مـــا يبـــدو - لا يمثـــل خطرًا على الكيان الإسلامى، وبقى يحمل رسالة الإسلام فى الداخل والخارج، ولا يدعـــو

---

(١) نفح الطيب ٢٢٠/١.

(٢) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ١١٢ (بتصرف).

ذلك بالضرورة للخصومة والمواجهة. ويذكر المؤرخون محاولة عابرة - أو أكثر - لإعادة الأندلس إلى الخلافة، لكنها لم تأت بشئ. وقد ظل الأمويون يحتفظون بلقب "الأمير"، ((لأنهم كانوا يشعرون بأن الخلافة واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشرعى هو حامى حِمى الحرمين الشريفين، أى المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة، وهو الخليفة العباسى فى ذلك الوقت))[1] إلى أن جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) فأصدر مرسوماً بتحويل "الأمارة" إلى خلافة.

٢- وأهم منصب بعد منصب "الإمارة" هو "الوزارة" وقد وجدت خطة "الوزارة" فى الأندلس مع بداية حكم الأمويين ،ويشهد بذلك ابن عذارى الذى أورد فى ترجمة كل أمير أموى عدد وزرائه، وغالباً ما يذكر أسمائهم.

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) أعيد ترتيب الجهاز الحكومى فى الأندلس، وهذا الأمير هو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسية فى مجال تنظيم الحكم وضبط قواعده، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة التى كانت الوزارة واحدة منها، فقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، واتخذ مجلس وزراء جعل له رئيساً باسم "الحاجب"، وجعل له ولمرءوسيه من الوزراء بيتاً فى قصره يجلسون فيه على فُرُشٍ مُنَضَّدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كلٌ منهم بشأن من شؤون الدولة، فوزير للمال، ووزير للمظالم، ووزير للثغور أو الحرب. ويقول ابن حيان المؤرخ الأندلسى: ((والأمير عبد الرحمن أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم فى الرأى، والمشورة لهم فى النوازل، وأفراد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره مخصوصا بهم، يقصدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نُضِّدت لهم، فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتاً، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأى فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا فى بيتهم (أى بيت الوزارة) أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨، ٦٨، ٨٠، ٩٣-٩٤، ١١٣ وغيرها.

(٢) العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٣.

يصدر إليهم من عزائمه... وجرى على ذلك من تلاهم"[1]. ثم قال ابن حيان – بعد أن عدَّ وزراء عبد الرحمن بن الحكم وذكر أسماءهم –((وكان قد اجتمع للأمير عبد الرحمن من سُراة الوزْراءَ أولى الحُلُوم والنهى والمعرفة والذكاء عِصابة (جماعة) لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم))[2].

ويقول ابن خلدون : ((وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً[3]، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال (أى الإشراف على الشئون المالية) وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً ،... وأفرد للتردد بينهم وبين الأمير واحداً منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخَصُّوه "باسم الحاجب" ،ولم يزل الشأن هذا إلى أخر دولتهم))[4] .

إن هذا التعدد فى مناصب الوزراء لا نجده فى نظام الوزارة بالمشرق العربى، حيث كانت السلطة مركزة فى يد وزير واحد، وقلَّما وجد وزيران. أما فى الأندلس فكل ناحية من نواحى الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة وهى "الحجابة"، وبيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فى بيت الأمير (أو الخليفة فيما بعد). وهذا النظام قريب الشبه بنظم الوزارات الحديثة[5].

ومن الجدير بالذكر هنا أن مناصب الوزارة فى المجتمع الأندلسى كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم فى البيوت والعائلات المعروفة، مثل "بنى حُدَيْر" و"بنى أبى عَبْدة" و"بنى شُهَيْد"، و"بنى فُطَيس"، وكلهم من موالى الأمويين الأندلسيين والمشرقيين[6].

---

(١) المقتبس لابن حيان ص ٢٩ (تحقيق د. محمود على مكى).

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) أى أن منصب الوزير كان موجوداً فى الدولة الأموية منذ قيامها فى الأندلس، ثم أدخلت عليه تعديلات اقتضت تقسيمه على عدد من الوزراء.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٩-٢٤٠ . وراجع نفح الطيب للمقرى ٢١٦/١.

(٥) راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ١٦٠، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (للمؤلف نفسه) ص ١٤٥-١٤٦.

(٦) راجع نفح الطيب ٢١٦/١، الحلة السيراء لابن الأبار ج ١ ص ١٢٠.

٣- وقد اهتم أمراء بنى أمية بالأمن الداخلى ومشاكله فى قرطبة العاصمة، وكان المسئول عن ذلك يدعى "بصاحب السوق". وبعد أن كانت سلطة الأمن الداخلى مركزة كلها فى يد شخص واحد أصبحت - فى عهد عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) مقسمة على عدة أشخاص، هم:

أ- صاحب السوق: وقد اقتصر عمله على مراقبة الأسواق والنظر فى مشاكلها. وهذه هى وظيفة المحتسب فيما بعد .

ب- صاحب الشرطة العليا (الكبرى). وينظر فى قضايا الخاصة (أصحاب المناصب والجاه).

ج- صاحب الشرطة السفلى(الصغرى). وينظر فى قضايا عامة الناس .

د- صاحب المدينة. ويشرف على المرافق العامة فى المدينة. وهو الذى يشرف على إقامة الحدود الشرعية.

هـ- صاحب الليل، وهو الذى يطوف بالليل، ويتتبع اللصوص، ويطلق عليهم "الدرَّابون"، ((لأن مدن الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه، له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد))[1].

وهذه الوظائف كانت تتغير فى اختصاصاتها أحيانا، ولكنها تتفق جميعا فى الإشراف على الأمن الداخلى، أو ما يسمى بالقضاء المدنى .

وبذلك كله أحكم الأمير عبد الرحمن بن الحكم النظام الإدارى للدولة الأموية بالأندلس، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها كما ذكر ابن خلدون وغيره من المؤرخين الأندلسيين والمغاربة. وكان يقال لأيامه "أيام العروس" لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء.

٤- وعُنِى الأمراء الأمويون بخطة القضاء أيما عناية، وهى من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان يمثل أمام القاضى عند الضرورة. وقد حرصوا على أن يكون القضاة من خيرة العلماء ونجبائهم، يجمعون بين العلم والأخلاق الطيبة والسيرة الحسنة .

---

(١) نفح الطيب ٢١٩/١، فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ١٦١.

ومن يطلع على سيرة القضاة فى عصر الإمارة بالأندلس – وما يليه – يجد أن معظم هؤلاء القضاة عُرفوا بحزمهم وعزة نفوسهم، وثباتهم فى مسألة النطق بالحق، والحكم به على كلِ مستَحق، لا فرق بين أحد فى المكانة أوِ المرتبة أو الجاه، وتسلحوا بشمائل الخير من صدق ونزاهة وتواضع وشجاعة وجرأة فى إصدار الأحكام(١).

وكان الكثيرون من القضاة فى فترتنا هذه لا يقبلون القضاء إلا بعد أن يفرضوا شروطهم التى كانت تشكل برنامج عملهم القضائى، ولا سيما قضية استقلال القضاء، ونذكر من هؤلاء: محمد بن بشير المعافرى الذى رفض قبول منصب القضاء فى عهد الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ) حتى يوافق الأمير على تنفيذ عدد من الشروط، منها نفاذ حكمه على الجميع من الأمير إلى حارس السوق، وأنه إذا ظهر له العجز من نفسه أُعْفِى، وأن يكون رزقه (راتبه) كفافاً من المال الفَئ(٢).

ولم يكن القاضى هو الوحيد الذى ينفرد فى الحكم على المتخاصمين، بل كان إلى جانبه هيئة شورى تتألف من الفقهاء المتمكنين من مسائل الفقه والشرع يسمون المشاورون، ومهمتهم الرئيسية النظر فى المسائل الصعبة التى يتعذر على القاضى إيجاد حل لها، وبالتالى إصدار حكم بشأنها. ولم يقتصر وجود هذه الهيئة على العاصمة قرطبة، بل وجدت فى كل المدن والبلدان الأندلسية التى كان يعين لها قاضٍ(٣).

وفى أوائل حكم الإمارة الأموية بالأندلس حصل تطور حضارى مهم فى ميدان تسمية كبير القضاة، ففى حين كان يسمى فى عصر الولاة (قاضى الجند) فإنه فى هذا العصر أصبح يسمى (قاضى الجماعة) الذى يوازى (قاضى القضاة) فى المشرق على عهد العباسيين، ويوازى فى عصرنا (وزير العدل). وقد ظهر هذا المنصب فى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨ هـ) وأول من تسمى به فى الأندلس هو

---

(١) يُراجع فى ذلك كتاب (قضاة قرطبة) لأبى عبد الله محمد بن حارث الخُشَنى (المتوفى ٣٦١هـ) [ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م] وعلى سبيل المثال الصفحات ٢، ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٣٤، ٣٧، ٤٥-٤٦، ٦١ ومواضع أخرى كثيرة.

(٢) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (المعروف بتاريخ قضاة الأندلس). لأبى الحسن النباهى المالقى الأندلسى – ص ٤٧-٤٨.

(٣) راجع كتاب الصلة لابن بشكوال ج٢ ص ٤٧٦، ٥٠٧، ٥٤٧، ٥٧١. وكتاب: الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى – القسم الخامس/ الجزء الأول ص ١٠٠.

سليمان بن أسود البلُّوطى[1]. وكان من اختصاصات قاضى الجماعة – ومقره فى قرطبة – اختيار قضاة الأقاليم وتعيينهم[2]، وأسندت إليه صلاحيات واسعة شملت عدداً مهماً من قضايا المجتمع والدولة[3].

(ج) الإنشاء والتعمير:

وكان العمران أحد الجوانب الحضارية التى أولاها الأمراء الأمويون عنايتهم، وقام العمران على أسس هندسية وفنية غاية فى الدقة والذوق والأناقة، وشمل المنشآت العامة – كالمساجد والقناصر والجسور ودور الصناعة وبناء مدن جديدة – والمنشآت الخاصة كالدُّور والقصور والحمامات وغيرها. والمنشآت الحربية، كالأسور والحصون والقلاع. ومن أمثلة الإنشاءات والإصلاحات الكثيرة فى فترة الإمارة:

١- بناء المسجد الجامع بقرطبة. بناه عبد الرحمن الداخل فى الجهة المقابلة لقصر الإمارة (سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م)، وبلغ ما أنفق عليه ثمانين ألف دينار[4]، ثم توالى أمراء بنى أمية وخلفاؤهم على الزيادة فيه وتوسعته حتى صار أعظم مساجد الأندلس بل لم يكن فى بلاد الإسلام أعظم منه كما يقول المؤرخون، وصار يُضرب به المثل فى العظمة والاتساع، وفى كثرة الزخارف والجمال. وقد بالغ المؤرخون العرب فى وصفه، واختصوه بعنايتهم، وكتبوا فى تاريخه ووصفه فصولاً طوالاً تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الجليل[5]. وكان هذا المسجد من الوجهة العلمية بمثابة أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية، ويفد إليه الطلاب من كل الجهات للدرس والتحصيل.

وقد أنشئت فى عهد عبد الرحمن (الداخل) وفى عهد بنيه كثير من المساجد فى أقاليم مختلفة من الأندلس، وكان فى قرطبة وحدها أيام (الداخل) فقط أربعمائة وتسعون مسجداً، ثم زادت بعد ذلك كثيراً حتى صار عددها فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر (٣٦٨هـ) فى قرطبة ألف وستمائة مسجد، ومن الحمامات تسعمائة حمام[3].

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٩٣-٩٤ (تحقيق عبد الله أنيس الطباع / ط بيروت ١٩٥٧م).

(٢) راجع : قضاة قرطبة للخشنى ص ٣٨.

(٣) راجع: القضاء فى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى – للدكتور على أحمد ص ٤٠-٤٣.

(٤) نفح الطيب ٣٢٩/١. البيان المغرب ٥٨/٢.

(٥) راجع: نفح الكيب ٥٤٥/١-٥٥٥، وراجع ما كتبه عنه الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٧٧.

(٦) نفح الطيب ٥٤٠/١.

٢- واهتم الأمراء الأمويون بتحصين مدن الأندلس، فأقاموا حولها الأسوار والحصون، وأول هذه المدن قرطبة، فقد قام عبد الرحمن الداخل بترميم سورها القديم (سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م)، وظل هذا السور موضع رعاية الأمراء. وحينما ضاقت المدينة بسكانها تكونت أرباض خارجها[١]، وأحيطت بالأسوار، وخصوصا بعد ثورة الربض في زمن الحكم بن هشام (الربضى) (سنة ٢٠٣هـ).

وعندما أغار النورمانديون على "إشبيلية" في إمارة عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) (سنة ٢٩٩هـ/٨٤٨م)[٢] تمكنوا من الدخول إليها دون أن تعترضهم أسوار منيعة، فاضطر عبد الرحمن إلى تحصينها، وأحاطها بسور حجرى كبير[٣].

٣- ومن المدن التى شيدها بنو أمية فى فترة الإمارة مدينة "الرصافة" وقصرها العظيم، أنشأها عبد الرحمن الداخل فى أول عهده، وتقع هذه المدينة إلى الشمال الغربى من قرطبة على بعد (٤ كم) منها، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة ونقل إليها غرائب الغروس والأشجار من الشام ومن كل ناحية، حتى أثمرت بأنواع الزروع والفواكه التى انتشرت فى أنحاء الأندلس كلها. وأطلق عليها هذا الاسم تخليدا لذكرى "الرصافة" التى أنشأها جده "هشام بن عبد الملك" خارج دمشق فى بادية الشام سنة١١٠هـ. واتخذ عبد الرحمن من ميدانها الفسيح المسمى "فحص السرادق" منازل للجند والقادة، ومكانا لتدريب الجنود بصورة مستمرة ومنتظمة[٤].

٤- أنشأ عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) فى قرطبة دارا جديدة للسكة (العملة)[٥]، وهو أول من ضرب نقودا أندلسية مستقلة وثابتة،كما أنه أقام على الضفة اليمنى لنهر الوادى الجديد طريقا ساحليا عرف بالرصيف، وذلك (سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م)، وبنى لنفسه قصرا بجوار قصر الإمارة القديم، وجلب إليه الماء العذب من قمم الجبال المحيطة بقرطبة. وأسس مدينة "مرسية" (سنة ٢١٦هـ/٨٣١م) وكانت قبل ذلك قرية خاملة فى كورة "تدمير" على الساحل الشرقى الأندلسى، ثم لم تلبث أن صارت قاعدة للكورة ثم سميت الكورة كلها باسمها[٦].

---

(١) راجع عن أرباض قرطبة (ص ٦٩).

(٢) راجع حديثنا عن هذا الهجوم (ص ٩٠-٩٣).

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥.

(٤) نفح الطيب ١/٤٦٦-٤٦٧.

(٥) البيان المغرب ٢/٩١.

(٦) راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ١٦٢، وانظر نفح الطيب ١/٣٤٧.

(د) الثقافة:

وقد خطت الأندلس فى فترة الإمارة خطوات واسعة نحو الثقافة الإسلامية الحقة، وكان هناك من العوامل والدوافع ما ساعد على تطور الحركة العلمية والحياة الثقافية فى تلك الفترة، من أهمها:

١- هجرة الأندلسيين إلى الحواضر المشرقية للأخذ عن علمائها والسعى إلى لقائهم ورواية الأصول العلمية عنهم. فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم، ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهليهم وفى أرجاء وطنهم. وقد كانت الرحلة من الأندلس إلى بغداد ومصر وبلاد الشام - وغيرها من المراكز العلمية بالمشرق- من الكثرة بحيث أصبحت ظاهرة من ظواهر الحياة العلمية بالأندلس وحاضرتها قرطبة.

ومن الطبيعى أن تكون الرغبات العلمية لدى هؤلاء الراحلين الأندلسيين متنوعة، فمنهم من يؤثر رواية الحديث، أو يطلب الفقة، ومنهم من يحصل اللغة والأدب، وكثير منهم يجمع عددا من هذه الفروع. ومنهم من رحل إلى بغداد لتعلم الطب والصيدلة والفلك. وهذا يعنى أن الأندلسيين كانوا حريصين على تعلم ونقل جميع العلوم والمعارف التى برع فيها المشارقة.

ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق فى فترة الإمارة[1]:

- **الغازى بن قيس القرطبى (ت١٩٩هـ/ ٨١٤م)** وهو أول من أدخل "قراءة" نافع المدنى إلى قرطبة، وهو نفسه أول من أدخل (موطأ) الإمام مالك إلى الأندلس، سمعه منه وعاصر تأليفه. وقد كان لدخول قراءة نافع البداية الحقيقية لدراسة علم القراءات فى الأندلس.
- **محمد بن وضاح بن بزيع القرطبى (ت٢٨٧هـ / ٩٠٠م)**. رحل إلى المشرق رحلتين وتتلمذ على يد علماء كثيرين: بغداديين ومكيين وشاميين ومصريين. وهو من الشخصيات العلمية الهامة فى تاريخ الحركة العلمية بالأندلس، وذلك بإسهامه الكبير فى

(١) راجع الباب الأول من القسم الثانى من رسالتى العلمية لنيل درجة الدكتوراة بعنوان (الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين – دراسة فى الحياة العلمية). وهذا الباب مخصص لدراسة انتقال العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتجريبية من المشرق إلى الأندلس (الصفحات من ٤٦٦ إلى ٦٦٧) وتناولت فيه دور الأندلسيين والمشارقة فى إمداد الأندلس بهذه العلوم، والوسائل الكبرى التى عملت على تحقيق ذلك، وأهمية الرحلات العلمية فى دعم الأندلس بكل جديد فىالعلم والحضارة.

فروع العلم المختلفة، وأبرزها القراءات والحديث، واشتهر عنه وعن عالم آخر كبير يسمى "بقِيّ بن مَخْلَد القرطبى (ت٢٧٦هـ / ٨٨٩م) أنه بجهودهما ((صار الأندلس دار حديث)). وهذا العالم الأخير (بقى بن مَخْلد) كانت له رحلة طويلة إلى المشرق أيضا، وانفرد بإدخال بعض الكتب المشرقية المهمة إلى قرطبة فى مجال علم الحديث والفقه والتاريخ والسِّيَر، مثل كتاب (الأم) للشافعى، و(مصنف) ابن أبى شيبة فى الحديث والأثر، وكتاب (الطبقات) لخليفة بن خياط البصرى، وغيرها. وألف هو من الكتب: (المسند) الكبير الذى ذاع صيته فى المشرق والمغرب، ويقع فى نحو مائتى جزء. وله أيضا كتاب (التفسير) الذى يعد مفخرة للأندلسيين، وفضلوه على "تفسير" ابن جرير الطبرى البغدادى شيخ المفسرين (ت٣١٠هـ).

<u>ومن الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه فى تلك الفترة:</u>

- **محمد بن عبد السلام ين ثعلبة الخُشَنى القرطبى (ت٢٨٦هـ / ٨٩٩م)** رحل إلى المشرق قبيل (سنة ٢٤٠هـ) ودخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستانى والرياشى والمازنى وغيرهم من علماء اللغة، وروى عنهم كثيرًا من اللغة ، ودخل بغداد، وكتب بها كتب بها كتب أبى عُبيد القاسم بن سَلّام الجُمَحى (ت٢٣١هـ) مثل كتاب "غريب الحديث"، كما أنه أدخل إلى الأندلس كثيرا من كتب اللغة ودواوين الشعر الجاهلى.
- ومنهم أيضا: فرج بن سلّام القرطبى. كان معتنيا بالأخبار والأشعار والآداب: ورحل إلى بغداد، ولقى عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فأخذ عنه كتاب (البيان والتبيين) وكتب كثيرا من مصنفاته وأدخلها الأندلس.

٢- ومن أهم الدوافع التى ساعدت على وثبة الثقافة الأسلامية فى الأندلس فى فترة الإمارة تعلق بعض الأمراء بالمعرفة، ومشاركتهم فى ميادين الثقافة، والعمل- بدأب- من أجل الحصول على المؤلفات العلمية من كافة البلاد الإسلامية، وخاصة من بغداد. ويأتى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) فى مقدمة الأمراء الحريصين على ذلك، حيث كان هذا الأمير يطمح لأن تتقن قرطبة العلوم التجريبية كالطب والصيدلة والفلك والرياضيات ... الخ، ورأى أن يرسل "عباس بن فِرْناس الجريرى" على رأس بعثة إلى بغداد لالتماس كتب هذه العلوم، فأتاه بعدد منها، ومن بينها "السِّند هِند" وهو كتاب فى الفلك، تُرجِم فى بغداد من الهندية إلى العربية.

ومن أهم الظواهر الثقافية التى شهدها عصر الإمارة، وكان لها شأن كبير فـــى حياة الأندلسيين كافة هى تحولهم من مذهب الإمام الأوزاعـــى (ت١٥٧هـــ / ٧٧٣م)- إمام أهل الشام- إلى مذهب الإمام مالك (ت١٧٩هـ / ٧٩٥م) ثم بقاؤهم عليه وتمســكهم الشديد به إلى نهاية دولة الإسلام بالأندلس. وقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعييـن، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام، وهؤلاء كـــانوا علـــى المذهـــب الأوزاعى، فكان طبيعيا أن ينتقل الشاميون بمذهبهم، فلما جاء عهد الإمارة دخل المذهـــب المالكى، وكان أوائل ذلك فى زمن عبد الرحمن (الداخل) ثم بدأ فى الانتشار فى عهد ابنـــه هشام، حتى أصبح المذهب الرسمى للدولة أولا، والمذهب الغالب الشائع العام بين النــــاس ثانيا.

والفضل الأكبر فى شيوع المذهب المالكى فى الأندلس يرجع إلـــى طائفـــة مـــن العلماء الأندلسيين الذين درسوا المذهب فى المشرق، ثم عادوا إلى بلادهم وتمتعوا بمكانـــة كبيرة مكنتهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمى. ونذكر منهم:

يحيى بن يحيى الليثى القرطبى (ت٢٣٤هـ / ٨٤٨م) وهو بربـــرى الأصـــل، ((وبه- وبعيسى بن دينار الغافقى (ت ٢١٢) – انتشر علم مالك بـــالأندلس)). وقـــد سـمع يحيى الليثى من مالك (الموطأ)، وتفقه على تلميذيه عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بـــن القاسم فى مصر، ورجع إلى قرطبة بعلم وفير، وحاز مكانة مرموقة لدى الأمير الحكم بـن هشام، وابنه عبد الرحمن، فلم يقطعا فى أمر من أمور الديانة إلا بمشورته، خاصـــة مـــا يتعلق بأمور القضاء، وصار المرجع الأول فى تعيين القضاة وعزلهم، وقد مـــهدت هـــذه المكانة التى حظى بها يحيى بن يحيى الليثى السبيل إلى نشرالمذهب المالكى وإقبال طلاب الفقه على دراسته، حتى تكونت جماعة رسمية سميت "بجماعة الفقهاء" كـــان لـــها اليـــد الطولى فى التمكين لهذا المذهب.

***

الفصل الرابع

عصر الخلافة الأموية بالأندلس

(٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٩-١٠٣١م)

يمكن تقسيم هذا العصر إلى ثلاث فترات رئيسية، هى:

١- فترة حكم عبد الرحمن الناصر، وولده الحكَم المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ/٩٢٩-٩٧٦م).

٢- فترة حكم بنى عامر (الدولة العامرية فى ظل الخلافة) (٣٦٨-٣٩٩هـ/٩٧٨-١٠٠٩م).

٣- فترة انهيار الخلافة الأموية بالأندلس (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م).

أولاً: عبد الرحمن الناصر وولده المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ/٩٢٩-٩٧٦م):

- **عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م):**

(١) التغلب على الاضطرابات الداخلية (توحيد الأندلس الإسلامية):

تولى عبد الرحمن الثالث (الملقب بالناصر لدين الله)[١] أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله بن محمد (٣٠٠هـ/٩١٢م) فى فترة مليئة بالأخطار؛ إذ كانت البلاد فى عهد الأمير عبد الله نهباً للطامعين والطامحين من عرب وبربر وإسبان، حتى أصبح كثير من أقاليمها مستقلاً عن إمارة قرطبة، أو كالمستقل عنها. هذا بالإضافة إلى التهديدات الخارجية من قِبل الممالك النصرانية فى الشمال، مما أوشك أن يذهب بالإمارة الأموية، وربما بالحكم الإسلامى فى الأندلس[٢]. ولعل هذا يفسر لنا – كما قيل – انصراف أعمام عبد الرحمن (الناصر) عن منافسته فى تحمل مسئولية الإمارة، فقد كان منصباً مثقلاً

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (الربضى) بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل). ولد (سنة ٢٧٧هـ)، وكان عمره يوم قتل أبوه (محمد) ثلاثة أسابيع، فكفله جده وأحسن تنشئته وأولاه عناية خاصة، لما كان يراه فيه من علامات النجابة والذكاء، وعمل على إعداده لحمل المهمة الثقيلة. وقد أهلته كفاءته أن يلى الإمارة بعد جده (عبد الله)، وكان عمره حينَ بويع بالإمرة ثلاثًا وعشرين سنة.

(٢) راجع البيان المغرب ١٥٧/٢، نفح الطيب ٣٥٣/١، الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ١٧٧.

بالمتاعب والأخطار والمسئوليات، وأصبح لا خير فيه فى مثل هذه المحنة العصيبة التى تعيشها الدولة، ومن ثمَّ زهدوا فيه واتفقوا على البيعة لعبد الرحمن رغم صغر سنه، لِمَا آنسوا فيه من مواهب وخصال حميدة تجعله أليق بالحكم منهم.

كان الحال فى الأندلس الإسلامية يستلزم الحزم والعزم لجمع كلمة البلاد وتوحيدها. ولهذا بدأ عبد الرحمن (الناصر) عهده بإصدار منشور عام إلى جميع كُوَر الأندلس، وإلى الثوار الخارجين المستقلين فى نواحيهم يدعوهم إلى البيعة، ويعدهم بكل أنواع الوعود الطيبة، من مال وسلطان وعفو إذا عادوا إلى الجماعة والوحدة والطاعة. وفى الوقت نفسه هدَّد من أعرض عن ذلك بالحرب والتنكيل.

ولما رأى الناس أن الحروب الطويلة الطاحنة أضرت بأمنهم، وأوقعت البلاد فى فوضى حقيقية سارع الكثيرون إلى الخضوع لعبد الرحمن (الناصر)، وتتابعت البيعة له من جميع مدن الأندلس، واستبشر الناس بهذا الأمير، ودخلت محبته نفوسهم، لما أبداه من ضروب التسامح للخارجين على السلطة بعد استسلامهم له. لكن بقيت بقية من الثوار تمادوا فى العصيان والاستقلال، فأعد عبد الرحمن - بعد شهر من توليه الإمارة - حملةً كبيرة للقضاء على بقية الثوار، فسار إلى الجنوب والجنوب الشرقى، وافتتح ما قارب الثلاثمائة من الحصون والمعاقل التى تدين بالطاعة لعمر بن حفصون فى كل من "جيان"، و"ريُّة". وسميت هذه الغزوة بـ "غزوة المُنْتِلُون"[1].

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الكفاح المرير الذى كان على عبد الرحمن (الناصر) أن يضطلع به ليعيد إلى البلاد وحدتها. وقد استطاع تحقيق هذا الهدف الأسمى بعد اثنتين وثلاثين سنة من الجهد والكفاح. ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها، بل عن طريق الأخلاق القويمة والسياسة الرشيدة التى اتبعها.

ومن الثوار الذين عُنى (الناصر) بالقضاء على ثوراتهم وإرغامهم على الانصياع للطاعة والاستسلام للجماعة:

١- عمر بن حفصون (رأس الفتنة كلها) وأولاده من بعده. وانتهت فتنتهم (سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م).

٢- بنو حجاج، وبنو خلدون فى إشبيلية وإقليمها (سنة ٣٠١هـ/٩١٤م).

---

[1] راجع عن هذه الغزوة : البيان المغرب ١٦٠/٢-١٦٣.

٣- عبد الرحمن بن مروان الجِلِّيقى (من المولَّدين) فى غرب الأندلس، وخاصة فى نواحى "ماردة" و"بَطَلْيُوس" (سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م).

٤- بنو "تُجِّيب" فى "سرقسطة" (٣١٨هـ/٩٣٠م).

٥- بنو "قِسِيّ" أصحاب "تُطيلة" بالثغر الأعلى (من سنة ٣٠٣هـ - ٣١٢هـ).

(٢) التغلب على الأخطار الخارجية:

أولاً: الممالك النصرانية فى الشمال:

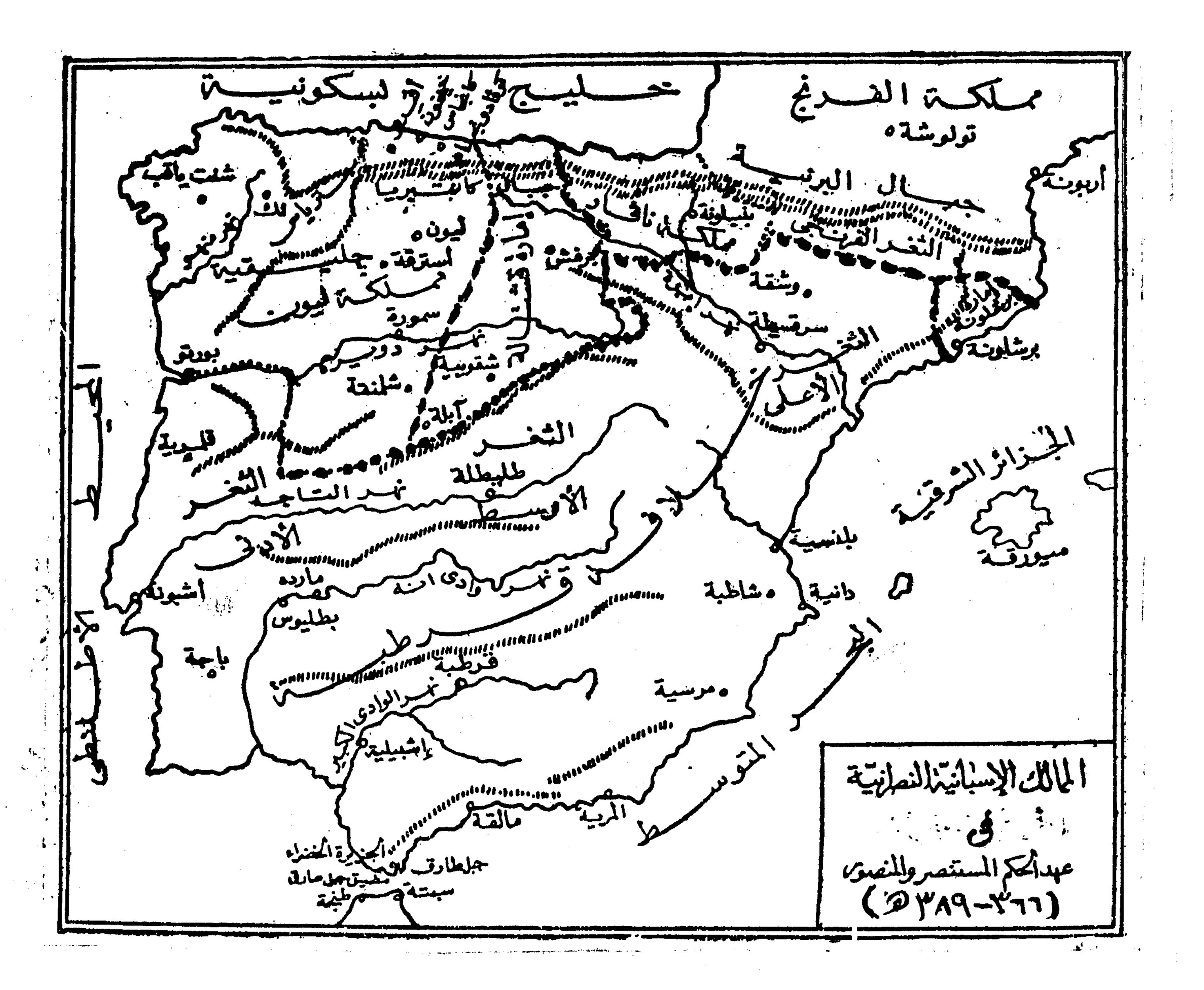
تعرضت الحدود الشمالية من الأندلس لأخطار جسيمة قبل أن يتولى "عبد الرحمن الناصر"، وفى الأيام الأولى للناصر تمكن "ألفونسو الثالث" ملك "أشتورياس" من الاستيلاء على حصون "قُلُمْرية" - فى البرتغال حالياً - كما سيطر على حصون (ليون) و(أشْتُرقة) و(أماية) و(سَمُّورة) منتهزاً فرصة انشغال الأمير فى المشاكل والثورات الداخلية، وقام بتسكين أعداد كبيرة من نصارى الأندلس المستعربين الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا فى الممالك النصرانية، وعقب موت "ألفونسو" الكبير هذا استولى خليفته على حصن "أرماج" - الذى سيكون له شأن فى الصراع بين الإسلام والنصرانية زمن الناصر - ومعنى ذلك أن مملكة "أشتورياس" توسعت وتضاعفت مساحتها وأصبحت تسمى مملكة (ليون) فى الأيام الأولى لحكم الناصر، بل تجرأ بعض قواد النصارى ووصلوا إلى ضفاف نهر "دُوَيْرة".

وقد انتهز أمراء (بنبلونة) - عاصمة (مملكة نَبَرَّة) - وغيرها من الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوبى جبال "ألبرت" الفرصة، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسى من تهديد المعاقل الإسلامية فى "تُطيلة" وغيرها، ونجح ملك (قشتالة) الجديد فى مد حدود دولته لتشمل أراضى قشتالة الجديدة، التى كانت أراضى إسلامية وبها عدد قليل من المسلمين فى ذلك الوقت، كذلك أمكن لإمارة "قَطَلُونية" التى تمكن ملوك الإفرنجة من إنشائها فى عهد "عبد الرحمن الداخل"، أن تتوسع أيضاً على حساب أراضى المسلمين[١].

كان على (عبد الرحمن الناصر) أن يواجه هذه الأخطار على الحدود الشمالية، وكان يؤثر فى أول الأمر غض الطرف عن محاربة النصارى إلى أن يتمكن من توحيد

---

(١) راجع: المسلمون فى الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٤٨/٧).


الممالك الإسبانية النصرانية
في
عهد الحكم المستنصر والمنصور
(٣٦٦-٣٨٩هـ)
مملكة الفرنج
تولوشة
أربونة
جبال البرينية
خليج بسكونية
الثغر الفرنجي
بنبلونة
مملكة نافار
وشقة
سرقسطة
برشلونة
الثغر الأعلى
جبال كانتبريا
شنت ياقب
لك
ليون
استرقة
جليقية
مملكة ليون
سمورة
نهر دويره
شقوبية
شلمنجة
بورتو
قلمرية
آبلة
الثغر الأوسط
طليطلة
الثغر الأدنى
نهر التاجه
ماردة
نهر وادي انة
بطليوس
اشبونة
باجة
قرطبة
نهر الوادي الكبير
إشبيلية
مرسية
شاطبة
بلنسية
دانية
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
المرية
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة

الأندلس وتطهيرها من الثائرين، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبهم جعل (الناصر) يتخلى عن خطته، وبدأ بإرسال الجيوش إلى الشمال سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م)[١]، ثم تتابعت هذه الجيوش سنة بعد أخرى وقاد هو بعضها بنفسه ، وخاصةً بعد أن تحالف ملك "ليون" مع ملك "نبرّة"، وسارت قواتهما معاً للهجوم على الدولة الإسلامية.

وهذه الحملات وإن أخفق بعضها فقد نجح أكثرها[٢]، وأحرز (الناصر) بها انتصارات عظيمة، وأذعن له أعداؤه بالطاعة وهادنوه، وتعهد له بعضهم بدفع الجزية، واستعان به بعض آخر على تولى عرش مملكته[٣]، كما سعوا إليه بالسفارات يقدمون بين يديه فى قرطبة الولاء والخضوع[٤].

(ب): خطر العبيديين (الفاطميين) ببلاد المغرب:

تطلع العبيديون (الفاطميون) للسيطرة على المغرب الأوسط والأقصى، تمهيداً للعبور إلى بلاد الأندلس ونشر التشيع بها. وفى الوقت نفسه تأكد لعبد الرحمن (الناصر) – منذ ادعاء العبيديين الخلافة – خطورتهم الشديدة وتهديدهم القوى لدولته، خاصة وهم يمتلكون أسطولاً بحرياً قوياً يستطيعون به العبور إلى الأندلس[٥].

والواقع أن العبيديين منذ تأسيسهم الدولة الفاطمية فى المغرب كانوا يهدفون إلى غزو الأندلس، ليكون المغرب الإسلامى كله خاضعاً للتشيع الفاطمى، وبهذا ينقسم العالم الإسلامى قسمين: قسم شرقى تابع للخلافة العباسية السنية، وقسم غربى تابع للخلافة الفاطمية الشيعية[٤].

وقد قام عبد الرحمن (الناصر) بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمى نلخصها فيما يلى[٥]:

---

(١) البيان المغرب ١٦٩/٢.

(٢) تفاصيل المعارك التى خاضها المسلمون مع نصارى الشمال فى البيان المغرب ١٦٩/٢، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥-١٨٠، ١٨٥، ١٨٥-١٨٩، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١ ، نفح الطيب ٣٦٣/١-٣٦٤.

(٣) مثل (توتا Tota) الوصية على عرش مملكة (نبرّة)، ويسميها العرب (طوطة). وقد وفدت إلى قرطبة سنة (٣٤٧هـ/٩٥٨م) فى رفقة حفيدها (شانجو – أو سانشو) الذى عزله نبلاء "ليون" و"قشتالة" عن عرش "نبرّة" و"ليون"، وولوا مكانه (أردون) الرابع (تاريخ المسلمين وآثارهم فىالأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٩٠).

(٤) تفاصيل الوفود التى سعت إلى بلاط الناصر بقرطبة فى (نفح الطيب) للمقرى ٣٦٤/١- ٣٧١، البيان المغرب ٢١٣/٢، ٢١٥.

(٥) راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادى ص ١٩٩ وما بعدها.

١- أعلن عبد الرحمن نفسه خليفة، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين، (سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م)(١). وكان الدافع الأساسى لهذه الخلافة السنية الجديدة هو توطيد مركزه فى داخل الأندلس وخارجه، ومقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية فى الغرب. وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم، ولهذا فرضوا قتاله، واستحلوا دمه(٢).

٢- اهتم الناصر منذ بداية حكمه بإعداد أسطول بحرى قوى كامل الإعداد، ينازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أى هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميون أو غيرهم.

٣- وعمل الناصر على تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، لا سيما فى المنطقة التى كانت عرضة لأى غزو فاطمى مفاجئ على بلاده. وأشرف بنفسه على الأعمال الدفاعية فى منطقة "طَرِيف" و"الجزيرة الخضراء".

٤- استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربى المواجهة لساحل الأندلس، ففى سنة (٣١٤هـ/٩٢٧م) استولى على مدينة "مليلة" وبنا سورها، وجعلها معقلا للزعيم المكناسى موسى بن أبى العافية حاكم هذه المناطق الشمالية الذى انضم إلى الناصر وخلع طاعة الفاطميين. وفى (سنة ٣١٩هـ/٩٣١م) احتل عبد الرحمن الناصر مدينة "سبتة". وعمل على تحصينها لأهمية موقعها، وألزم فيها من رضيه من قواده وجنده، ثم احتل "طنجة" المجاورة لها وأقام بها أيضا تحصيناته ودفاعاته(٣). وبذلك استطاع الناصر السيطرة على الملاحة فى مضيق جبل طارق، وأن يتدخل فى سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمى.

٥- عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التى كانت قائمة وقتذاك فى شمال المغرب الأقصى، مثل دولة الأدارسة التى كان نفوذها بعد الغزو الفاطمى قد انحصر فى المناطق الجبلية الشمالية بين قبائل "غمارة". كما أنه عمل على تحريض قبيلة "زناتة" البربرية، ودفعها إلى قتال "صنهاجة" حليفة الفاطميين. ولم يتردد خليفة قرطبة فى

---

(١) البيان المغرب ١٩٨/٢

(٢) العبادى: الكتاب المذكور ص ١٩٩

(٣) البيان المغرب ٢٠٤/٢، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى ص ١٠٤.

تأييد وإمداد زعيم الخوارج فى القيروان وغيرها (أبى يزيد مخلد بن كيداد الزناتى الخارجى) ضد الدولة الفاطمية. وفى مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجى بالسيادة الأموية، ودعا للناصر فى البلاد التى خضعت له[1].

وهكذا أدت سياسة الخليفة عبد الرحمن (الناصر) إلى انصراف الفاطميين عن غزو الأندلس إلى غزو مصر.

وبهذه السياسة التى سار عليها الناصر فى محاربة نصارى الشمال والتصدى لخطر العبيديين استطاع أن يؤمن الأندلس من الخارج، كما وحدها من الداخل، وأن يوسع رقعة الدولة الأندلسية ويبسط نفوذها، ويقيم فى قرطبة أعظم حكومة عرفتها الأندلس فى عهده المديد[2]، وقد صدق القاضى منذر بن سعيد البلوطى (المتوفى ٣٥٥هـ/٩٦٦م) حينما قال فى خطبة له بين يدى الناصر: ((ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها، والبلاد خرابا فعمرها، والثغور مهتضمة فحماها ونصرها؟))[3].

هذا، ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة، وفى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية، وبلغت قرطبة العاصمة فى عهده أوج العظمة والازدهار، وأصبحت تفوق بغداد (منافستها فى المشرق) بهاء وفخامة وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب، وشمل الأمن سائر أطراف البلاد الأندلسية. وعنى عبد الرحمن بتنظيم إدارات الدولة، والتدقيق فى اختيار المسئولين من وزراء وقواد، فحظيت الأندلس فى عهده بنظم إدارية راقية[4]، وكان شديد الحرص على تحقيق العدل، فاهتم بخطة (ديوان) المظالم، وبتولية القادة وتوجيههم.

- **الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م):**

توفى الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد عمر مديد بلغ ثلاثا وسبعين سنة، بعد أن قضى فى حكم الأندلس ما يزيد على نصف قرن، حقق خلالها إنجازات طيبة على

---

(١) البيان المغرب ٢١٢/٢، ٢١٤ (أحداث سنة ٣٣٣ هـ ، ٣٣٥هـ).

(٢) د. أحمد هيكل: الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١٧٩.

(٣) نفح الطيب للمقرى ٣٦٩/١.

(٤) تراجع هذه النظم من كتاب (نظم وإدارة بنى أمية فى الأندلس من خلال المقتبس لابن حيان) للدكتور التهامى الراجحى (مجلة المناهل – الرباط – العدد ١٩٨٤/٢٩م).

المستوى الداخلى والخارجى. وعلى الرغم مما عيب على الناصر من حكم مطلق إلا أنـــه أحسن إعداد ابنه وولى عهده (الحكم)، ودربه على تحمل مسئوليات الحُكـــم، والنـــهوض بأعبائه الضخمة. ولا شك فى أن طول عمر الناصر أعطى الفرصة كاملة لنضج شخصية الحكم (المستنصر) وتراكم خبراته، وبالإضافة إلى ذلك فقد تسلم بعد وفـــاة والـــده دولـــة مستقرة قوية مهيبة الجانب موحدة، ومن هنا فإن عهد المستنصر يُعدُّ امتداداً لعـــهد أبيـــه، وقطف لثمرات كفاحه الطويل. وعلى الجملة فقد كانت سياسة الابن كأبيـــه بوجـــه عـــام. وبعبارة المقّرى ((جرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه إلا شَخْصَه))[1].

١- السياسة الداخلية:

وقد كان الهدوء والرفق أحد السمات البارزة فى عهد الحكم (المستنصر)، حيـــث مرَّ عهده فى أمن وسلام، واستمرت الأندلس على وحدتها الداخليـــة كمـــا تركـــها والـــده (الناصر). ولعل ذلك يرجع إلى جهود أبيه من قبل توحيد البلاد، إضافة إلى ما عُرف عـــن المستنصر من الحرص الشديد على إقامة شرع الله بين رعيته، واهتمامه بأحوالها وتفقـــده لها، ومراقبة عماله ومتابعة سيرتهم، وتوجيه قضاته للحكم بالعدل وإعطاء كـــل ذى حـــق حقه[2].

٢- السياسة الخارجية:

وعلى الرغم مما عُرف عن (الحكم المستنصر) من عنايته البالغة بالكتب العلميـــة، وانشغاله بجمعها ودرسها، وشغفه بالعلم والعلماء، وكلَفه بالعلوم والآداب فإنه لم يقصر فى المحافظة على هيبة الدولة السياسية وعظمتها الحربية، وتأمينها من الأخطار الخارجية.

(أ) علاقة الحكم المستنصر بالممالك النصرانية فى الشمال[3]:

وقد تابع المستنصر سياسة أبيه إزاء نصارى الشمال، فعمل على الوقـــوف أمـــام توسعاتهم، وفرض هيبته وهيبة الدولة على تلك الأقاليم.

---

(١) راجع: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس – بالاشتراك (قسم الأندلس – للدكتور عبد الفتاح فتحى) ص ٢٥٠.
وقال لسان الدين بن الخطيب: "وفى أيامه – أى المستنصر– سكنت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة، واســـتظهاره علـــى الثوار بحسن السيرة، وطول العمر" (أعمال الأعلام ص ٤١).

(٢) نفح الطيب للمقرى ٣٨٢/١.

(٣) راجع علاقة المستنصر بالممالك النصرانية والحروب التى خاضها ضدهم: نفح الطيـــب ٣٨٢/١-٢٨٣، البيـــان المغرب ٢٣٥/٢، ٢٣٦، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٩٠، العلاقات بيـــن الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٢٢٨-٢٣٠، المسلمون فى الأندلـــس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٦٣/٧).

وكان الناصر قبل وفاته قد اتفق مع ملك (ليون) على هدم بعض الحصون وتسليم بعضها الآخر إلى المسلمين، فلما مات الناصر رفض ملك النصارى تنفيذ ما وعـــد بــه. ومن ناحية أخرى كانت (قشتالة) تابعة لملك (ليون) لكن أميرها استقل وأخذ يغـير علـى أراضى المسلمين المجاورة، ثم حدثت تطورات انتهت بتحالف ملوك (ليــون) و(قشــتالة) و(نبرة) وكونت (برشلونة) جميعاً ضد المسلمين، ونظر هؤلاء فوجدوا انشــغال "الحكَــم" بالعلوم والآداب وإيثاره السلم، فأرادوا استغلال هذا فى شن الغـــارات علــى الأراضــى الإسلامية.

لكن "الحكَم" واجههم بما ينبغى، وأعلن الجهاد فــى صيــف (٣٥٢هــ/٩٦٣م) واجتمعت إليه الجيوش فى "طليطلة" وسار إلى "قشتالة" واستولى على قلعة "شَنْت أشْــتين" المنيعة، وفرق قوات ملك "قشتالة" حتى اضطر إلى طلب الصلح، ثم نكث عــهده فعــاود المسلمون الهجوم واستولوا على قلاعه الحصينة، ثم أرسل "الحكَم" جيشــاً بقيــادة حــاكم سرقسطة إلى (نبرة) وجاء ملك (ليون) لنجدته وجرت موقعــة انــهزم فيــها النصــارى واعتصموا بالجبال، ثم سارت القوات الإسلامية إلى قواعد (نبرة) الغربية فاستولت علــى حصونها.

كذلك سار حاكم (وَشْقَة) شمالاً على رأس قوات نحو أراضــى نفـس المملكــة واستولى على كل ما فيها من سلاح وحصــون، واســتغرق ذلــك كلــه ســنتى (٣٥٢-٣٥٣هــ/٩٦٣-٩٦٤م)، بالإضافة إلى حملات قام بها المسلمون فيما تلا ذلك من سنوات، وتمكنت قوات قرطبة من الاستيلاء على قلاع كثيرة، أرغمتها على التســليم والاعــتراف بسيادة قرطبة، وبدأت سفارات هذه الدولة تتوافد على العاصمة الإسلامية الأندلسية.

أضحت الأندلس كعبة تأتى إليها ملوك النصرانية وتلتمس ودها. بدأ ذلــك عــام (٣٥٥هــ/٩٦٦م) واستمر بعده، وكان أول الوافدين أمير (جليقيــة) و(أشــتورياس)، ثــم وفدت رسل ملك (نبرة). وفى سنة (٣٦٠هــ/٩٧١م) جاءت سفارة من أمير (برشــلونة) تطلب تجديد الصلح، ووصلت رسل (غرسيه بن شانْجُه) ملك البشْكُنْس فى جماعــة مــن الأساقفة يسألون الصلح، كما تلقى الحكم رسائل من قيصر بيزنطة، ومن إمبراطور ألمانيا وغيرهما[1]، كل ذلك جعل "فنت بيدال" – المستشرق الإسبانى الكبير – يقول: ((وصلــت

---

(١) راجع عن هذه السفارات نفح الطيب ٣٨٤/١-٣٨٥، البيان المغرب ٢٣٥/٢، كتاب: الســفارات بيــن الأندلــس والدول الأجنبية فى العصر الأموى للدكتور حسين يوسف دويدار ص ٤٢-٥٢.

الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة)).

(ب) خطر النورمانديين: ومن الأخطار التى هددت الأندلس فى زمن الخليفة المستنصر خطر النورمانديين[١]. ولقد حصر المؤرخون الأندلسيون الغارات النورماندية فى عهده فى تواريخ ثلاثة، هى (٣٥٥هـ/٩٦٦م)[٢]، وسنة (٣٦٠هـ/٩٧١م)[٣] وسنة (٣٦١هـ/٩٧١م)[٤]. وجميع هذه الغارات الثلاث كانت على غرب الأندلس، وفى مياه المحيط الأطلسى. وينفرد ابن الخطيب بذكرغارة أخرى فاشلة قام بها النورمانديون على حصن "القبطة" (Cabo) وهو من حصون "المرية" فى شرق الأندلس[٥]. وقد اضطر الخليفة (الحكم) إلى الذهاب بنفسه إلى "المرية" (سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م) ليتفقد الأعمال الدفاعية ويشرف عليها ويشاهد رابطة "القبطة"[٦].

وفى غارتهم الأولى (سنة ٣٥٥هـ) هاجم النورمانديون منطقة قصر "أبى دانس" (فى جنوب البرتغال)، وكذلك سهول "أشبونة" فى أسطول مكون من ثمانية وعشرين سفينة، تضم كل منها ثمانين محاربًا. وقد خرج إليهم المسلمون، ووقعت معركة عنيفة قتل فيها عدد كبير من الجانبين، ثم تمكن الأسطول الأندلسى المرابط فى "إشبيلية" من اللحاق بالأسطول النورماندى عند مصب "وادى شلب"، وتحطيم معظمه واسترداد ما كان فيه من أسرى المسلمين[٧].

أما الغارات النورماندية التى تلت ذلك فى سنتى ٣٦٠هـ، ٣٦١هـ فيبدو أنها لم تستطع النزول إلى الشواطئ الأندلسية بفضل يقظة الأسطول الأندلسى الذى استطاع أن يبدد شملها دون عناء كبير.

(ج) علاقة المستنصر بالشمال الإفريقى:

أما الفاطميون فلم يعودوا فى أيام الحكم المستنصر مصدر خطر على الأندلس، فقد غزوا مصر، وأسسوا القاهرة (سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م)، وانتقل إليها المعز لدين الله (سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م)، فشغلوا بذلك عن الأندلس.

---

(١) راجع ما ذكرناه عن التعريف بالنورمانديين (ص٩٠).
(٢) البيان المغرب ٢/٢٣٨-٢٣٩.
(٣) البيان ٢/٢٤١.
(٤) المقتبس لابن حيان ص ٧٨-٧٩ (تحقيق د. عبد الرحمن الحجى).
(٥) أعمال الأعلام (القسم الثانى/ الأندلسى) ص ٤١-٤٢.
(٦) البيان المغرب ٢/٢٢٦.
(٧) البيان ٢/٢٣٨-٢٣٩.

غير أن المعز الفاطمى كان قد ترك نائبًا عنه على إفريقية والمغرب، وكان "الأدارسة" قد دخلوا فى طاعة الفاطميين، وأخذوا يناوشون الأمراء المغاربة الموالين لحكومة الأندلس فى "سبتة" و"طنجة"، فأرسل الخليفة (المستنصر) جيوشه، وولى قيادتها قائده الكبير الملقب بفارس الأندلس، والمسمى بـ "غالب بن عبد الرحمن الناصرى" الصقلبى (صاحب المغارك الناجحة ضد جيوش النصارى فى منطقة الثغر الأوسط وعاصمتها مدينة "سالم") وتم تزويده بكل ما يحتاج إليه، وأمره (الحكم) أن يجد فى قتال الأدارسة، ودارت معارك عدة فى سنتى (٣٦٢هـ/٩٧٣م)، (٣٦٣هـ/٩٧٤م) انتهت بالقضاء على دولة الأدارسة بالمغرب، واستسلام زعمائها، ودخولهم فى طاعة الأمويين[١].

هكذا ظلت الأندلس حتى وفاة الحكم المستنصر (سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م) دولة قوية مهيبة، موحدة الأقاليم، مؤمنة الحدود.

* * *



(١) تفاصيل هذه الأحداث فى البيان المغرب ٢/٢٤٤-٢٤٨، نفح الطيب ١/٣٨٥، أعمال الأعلام ص ٤٢. وراجع: المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٧/٦٤-٦٥).

العصر الذهبى للحكم الإسلامى فى الأندلس

(فترة الناصر والمستنصر)

كان عبد الرحمن (الناصر) وولده: الحكم (المستنصر) (٣٠٠ -٣٦٦ هـ/٩٢٩ - ٩٧٦م) عصر ازدهار فى جميع نواحى الحضارة الإسلامية فى الأندلس، بحيث يمكن القول: إن تلك الفترة التى تولى فيها الناصر والمستنصر استحقت أن تسمى بالعهد الذهبى للحكم الأندلسى. وكانت مدينة قرطبة هى المركزّ الذى تتركز فيه حضارة الأندلس باعتبارها أم المدائن الأندلسية وقطرها الأعظم، ومستقر الأمراء والخلفاء، وكان لها الدور الأكبر فى نشر الفكر والحضارة الإسلامية فى ربوع الأندلس كلها.

ومن أبرز السمات الحضارية التى تتميز بها هذه الفترة التاريخية:

١- **الوحدة السياسية:** لم يعرف المجتمع الأندلسى وحدة كالتى عرفها فى فترة الناصر والمستنصر، فقد كان هذا المجتمع منذ الفتح يتأرجح بين عوامل للتجميع وأخرى للتفريق، حتى كانت الفترة السابقة للخلافة – وهى فترة الأمير عبد الله – فوقعت الفرقة الرهيبة التى أوشكت أن تفصم عرى الوحدة بين أبناء الأندلس جميعا. وكان من مظاهر تلك الفرقة، أن عاد العرب يتكتلون، وانقلب الإسبان يتجمعون، ورجع البربر ينفصلون، وبرزت زعامات لهؤلاء وهؤلاء، تؤيد الفرقة وتذكى نار الفتنة، لتربح هى آخر الأمر الرياسة والسيطرة.

ولكن الحال تبدل فى عهد الخلافة، فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسى وحدته، فقضى على الزعامات العربية التى كان يتكتل وراءها من ينتمون إلى العرب من أبناء الأندلس، وقضى كذلك على الزعامات الإسبانية التى كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمى الإسبان المعروفين بالمولدين. كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التى كانت تثور بسكان الأندلس من أهل شمال إفريقيا، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية[1].

– <u>**الرفاهية الاقتصادية:**</u> وقد أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة، وحكمه المديد إلى شيوع الاستقرار، واستتباب الأمن، وانتشار الطمأنينة. وأدى ذلك كله إلى إقبال الناس على أعمالهم فى جد ونشاط وأمل، كما أنتج هذا جميعه وفرة فى الدخل

---

(١) راجع: الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص١٨١-١٨٢.

القومى، وارتفاعاً فى مستوى المعيشة، ورخاء للدولة والأفراد جميعاً. وقد قيل:إن إيـــراد الدولة زاد زيادة عظيمة حتى بلغ ما يُجبى بالأندلس من الكُور والقُـــرى خمســة ملاييـــن وأربعمائة وثمانين ألف دينار، كما بلغ ما يُجبى من الأسواق ونحوها ســـبعمائة وخمســة وستين ألف وقيل كذلك: إن الناصر قد خلف فى بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف ألــــف (ثلاث مرات)[1] . وكل هذا يدل على ما وصلت إليه الأندلس من الرقى الاقتصادى فـــى ذلك الحين.

٣- **النهضة العمرانية:** ولم تعرف الأندلس نهضة عمرانية كالتى عرفتها فـــى فترة الخلافة، فقد كان الناصر مولعاً بالبناء، محبّاً للتشيد، كما كان يعتقد أن البنيان يخلـــد ذكر الباقين ويبقى أسماءهم على الدهر. ومن هنا تم فى عهده أروع ما عرفــت الأندلــس من قصور ومساجد، ووصلت العاصمة القرطبية فى فترة الخلافة إلى أوْج جمالها وأناقتها وعمرانها، فازدحمت بالقصور المشيدة. وزينت بالحدائق العديـدة، وجُمّلــت بالنـــافورات الكثيرة، وزودت بالحمامات الوفيرة. وقد قيل : إن مبانيها بلغت أكثر من خمســـين ألـــف قصر للعظماء ورجال الدولة، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة. كما قيـــل : إن مســـاجدها بلغت تسعمائة، ووصلت حماماتها سبعمائة[2]، هذا فى وقت كـــانت بعــض دول أوروبـــا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان[3].

وكان أعظم أعمال الناصر الإنشائية مدينة (الزهراء)، التى بناهــــا فـــى شـــمال قرطبة. ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل. بدأ فى بنائها سنة ٣٢٥هـــــ، واســتمر العمل فيها مدة أربعين سنة، اى إلى نهاية حكم المستنصر. وجعل (الناصر) بـــها قصـــراً للخلافة وبيوتاً لرجال الحكومة والبلاط، ومساكن للحـــرس والجنـــد، ومســـجداً للصـــلاة والتعليم.

وكان قصر الخلافة فى هذه الضاحية القرطبية غاية فى الجلال والجمال والفـــن. وقد جلب الناصر أعمدة بنائه ورخامه وتماثيل زينته ومواد زخرفتـــه مـــن القســـطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا، علاوة على ما أنتجته مدن الأندلس.

---

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ج١ ص ٣٧٩، ص٥٢٤-٥٢٥.والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ص٢٣١-٢٣٢.

(٢) انظر نفح الطيب/للمقرى ج١ ص٥٤٠ وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٢٣٢ وقـــد خصـــص المقرى فى (نفح الطيب) صفحات طويلة للحديث عن قرطبة وعمارتها (راجع ج١ – بداية من ص٤٥٥).

(٣) قصة العرب فى إسبانيا – تأليف استانلى لى بول، ترجمة على الجارم ص١١٩-١٢٠.

وكان للخليفة فى قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب، لكون قبته وحيطانه قد صفحت بهذا المعدن النفيس. وقد جُعل فى هذا المجلس حوض عجيب، أقيمت عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب المرصع بالدر النفيس المصنوع "بدار الصنعة" بقرطبة.(١)

وقد مست يد التجميل والتعمير مدناً أندلسية أخرى غير قرطبة، كما شمل الرخاء والأمن والرفاهية غير القرطبيين من الأندلسيين، وعاش المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة (زمن الناصر والمستنصر) عهده الذهبى من الناحية الاجتماعية، كما عاش فى عهده الذهبى أيضاً من الناحية السياسية، حتى لنرى أبرع الصور وأروع الأمثلة عن حضارة الأندلسيين وتقدمهم الاجتماعى، قد أُخذت جميعها أو أُخذ أغلبها على الأقل من حياة أهل الأندلس فى فترة الخلافة(٢).

٤- **النهضة الثقافية:** وقد نهضت الثقافة الأندلسية فى فترة (الناصر والمستنصر) نهضة شاملة، كان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير. وليس من شك فى أن ظروف الأندلس فى تلك الفترة قد ساعدت على هذه النهضة، فالوحدة والاستقلال، والأمن والرخاء، والتحضر والرقى؛ كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة، ويساعد على مستوى علمى رفيع. وقد أتيح للأندلس فى فترة الخلافة خليفتان وفَّرا للناس وحدة واستقراراً، وحققا لهم أمناً ورخاء، ومكناهم من التحضر والرقى، فأتاح لهم كل ما من شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقى بعلمهم. بل إن هذين الخليفتين لم يكتفيا بتهيئة الجو للثقافة والعلم، وإنما دفعا بالأندلس دفعاً إلى نهضتها الثقافية الشاملة، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم، والحث على البحث والتأليف فى شتى الفنون(٣).

---

(١) اقرأ ما كتب عن الزهراء فى نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٥٢٣ – ٥٢٦، ص ٥٦٣ – ٥٧٨، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ – ٢٣٢.

(٢) راجع : د. أحمد هيكل : المرجع السابق ص ١٨٤.

(٣) راجع: د. هيكل : المرجع نفسه ص ١٨٤-١٨٥، الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين (٣، ٤هـ) – رسالة دكتوراه، من إعداد طه عبد المقصود عبد الحميد ص ٦٦٣-٦٦٤.

فالناصر قد أحسن استقبال أبى على القالى وأسند إليه تأديب ابنه الحَكَم، ومكّن له ليعلم الأندلسيين فى قرطبة، وقد وفد القالى على الأندلس (سنة ٣٤٠هـ/٩٤١م) وحمل معه كثيرًا من علم المشرق وأدبه، ونقل بخاصة مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين، مثل امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى والخنساء، ومثل ابن أبى ربيعة والأخطل وجرير والفرزدق، وكثيرَ جداً غير هؤلاء وأولئك. هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة، مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية فى هذه الفترة بشحنة عظيمة من الزاد الدسم(١).

أما الحكم (المستنصر) بن عبد الرحمن، فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ولم يجمع أمير منها مثل الذى جمع. وقد اشتهر بمكتبته الغنية التى بلغت أربعمائة ألف مجلد(٢). وقد كان يحرص على جمع الكتب لها ويدفع فيها أغلى الأثمان، كما فعل مع أبى الفرج الأصفهانى، حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى، فبعث إليه بنسخة تم كتابه قبل أن يظهر فى بغداد(٣).

وقد كان الحكم كذلك يشجع العلماء على التأليف، ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات(٤)، ويفسح لهم مكانا فى القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ما عهد إليهم من مؤلفات، وهكذا كتب باقتراحه وتشجيعه كثير من الكتب فى مختلف العلوم، ولقى العلماء فى ظله كثيرا من الإقبال والتكريم. ولذلك نهضت الأندلس علميا فى شتى الميادين. وتألق فيها نابهون فى كل فروع المعرفة التى تمثل الثقافة فى ذلك الحين.

وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية فى فترة الناصر والمستنصر، من وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع المعرفة، تلك الوفرة التى لم تعرفها الأندلس من قبل والتى اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس واستقلت إلى حد كبير.

---

(١) راجع: الحركة اللغوية فى الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر الطوائف – لإلبير حبيب مطلق ص ١٨٧ – ٢٣٤، د. هيكل: المرجع السابق ص ١٨٤–١٨٥ وانظر ترجمة القالى فى نفح الطيب ٧٠/٢ – ٧٥، تاريخ العلماء والرواة فى الأندلس لابن الفرضى ٨٣/١–٨٤، طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ١٨٥–١٨٨.

(٢) نفح الطيب ٣٨٥/١–٣٨٦، طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٥–٦٦.

(٣) نفح الطيب ٣٨٦/١.

(٤) كما اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة)، واقترح على أبى بكر الزبيدى تأليف كتابه (طبقات النحويين واللغويين).

أ- ففى الميدان اللغوى ، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس، وذلك بعد قدوم أبى على القالى إليها والذى ألف كثيرا فى الدراسات اللغوية، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه "الأمالى".

وفى هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين فى الدراسات اللغوية مثل: أبى بكر الزبيدى الإشبيلى (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م) الذى عمل "مختصر كتاب العين" للخليل بن أحمد وألف كتاب "طبقات النحويين" و"كتاب لحن العامة" وكتاب "الواضح فى العربية" وكتاب "الأبنية فى النحو". وكان مؤدبا للأمير هشام ابن الخليفة الحكم المستنصر[١].

ومن الأندلسين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية فى فترة الخلافة أيضا أبو بكر ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) الذى ألف "كتاب تصاريف الأفعال" وكتاب "المقصور والممدود". وكان ابن القوطية من كبار علماء الأندلس فى فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ[٢].

ب- وفى علم التاريخ، ظهر من علماء الأندلس فى فترة الخلافة، أحمد بن محمد ابن موسى الرازى (ت ٣٤٤هـ/٩٥٥م) الذى كان يلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتاريخ ومما ألفه فى ذلك : كتاب فى "أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم"، وآخر فى "أنساب مشاهير أهل الأندلس"، وثالث عن "كبار الموالى الأندلسيين"، ورابع فى "صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها". وقد ضاعت هذه الكتب كلها، ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة فى صفة الأندلس[٣].

كذلك كان من مؤرخى هذه الفترة. أبو بكر بن القوطية (ت٣٦٧هـ). الذى سبقت الإشارة إليه كلغوى. وقد خلف لنا فى التاريخ كتابه المشهور "تاريخ افتتاح الأندلس" وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله (٣٠٠هـ).

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى ج ١٨ / ١٨١، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧٢/٤، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ٩٢/٢.

(٢) راجع: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ٧٨/٢-٧٩، الديباج المذهب لابن فرحون ٢١٧/٢-٢١٨.

(٣) نفح الطيب ١٧٣/٣، تاريخ ابن الفرضى ٥٤/١، ٨٧/٢، وكتاب تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ٥٦.

وكان من المؤرخين كذلك فى هـذه الفـترة، ((عَرِيـب بـن سَـعْد القرطبـى)) (ت٣٧٠هـ/٩٨٠م) الذي كان فى خدمة الحَكَم المستنصر. ومن أشهر كتبه "صلة تـاريخ الطبرى". وكان هذا المؤرخ الأندلسى طبيبا أيضا، ومن آثاره فى الطب: كتاب فى "خَلْـق الجنين وتدبير الحَبالى والمولودين" وهو مخطوط بمكتبة الإسكوريال[١].

كذلك أشتهر بكتابة التراجم بعض علماء تلك الفترة، مثل أبى عبد الملك أحمد بـن محمد عبد البر القرطبى (ت ٣٣٨هـ/٩٤٩م)، الذى ألف كتابا عن "فقهاء قرطبة"، هو من المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها ابن الفرضى فيما بعد، حين ألف كتابه "تاريخ العلمـاء والرواة للعلم بالأندلس"[٢].

وألمع شخصية بين كتاب التراجم فى فترة الخلافة، هى شخصية أبـى عبـد الله محمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ/٩٧١م)، صاحب كتاب "تاريخ قضاة قرطبة"، الـذى ترجم للقضاة فى العاصمة الأندلسية من الفتح حتى سنة ٣٧٥هـ ، والكتاب يضـم إلـى جانب التراجم العديدة - التى تعرفنا بجمهرة من أهل القضـاء والعلـم فـى الأندلـس - معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية وأخباره مصوغة فى قالب من الواقعية التى لا يبلـغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ والأدب[٣].

ج- <u>وأما التفسير والحديث</u>، فقد نبغ كثيرون مثل ابن محاسن: عثمان بن محمـد (ت٣٥٦هـ) الذى اشتهر بالتفسير[٤]. ومثل ابن القوطية، الذى سبق الحديث عنه كلغـوى ومؤرخ. كذلك اشتهر من علماء الأندلس فى تلك الفترة ابن الحجام يعيش بن سعيد، الـذى ألف (مسند) حديث بأمر الحكم المستنصر[٥].

د- <u>وأما فى الفقه ومذاهبه</u>، فقد برع عديدون، وكان أكثرهم من أعلام المذهـب المالكى الشائع بين الأندلسيين على ما هو معروف. ومن هؤلاء الذين نبغـوا فـى الفقـه

---

(١) الذيل والتكملة للمراكشى، السفر الخامس، القسم الثانى ص ١٤٢، تاريخ الفكر الأندلسى لجنثالث بالنثيا (ترجمـة د. حسين مؤنس) ص ٢٠٦-٢٠٧، ص ٤٦٥.

(٢) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٥١/١، الصلة لابن بشكوال ص ٣٩٦.

(٣) الخشنى أصله من القيروان، ووفد على الأندلس صغيرًا، وتخرج على بعض علمائها، ثـم دخـل فـى خدمـة المستنصر، وألف كثيرًا من الكتب (راجع عنه: تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضـى ١١٤/٢-١١٥، جذوة المقتبس للحَميدى (رقم ٤١)، وراجع: الأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ١٨٩).

(٤) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٣٤٩/١.

(٥) تاريخ ابن الفرضى ١٩٧/٢.

المالكى خلال فترة الخلافة: عبد الله بن أبى دُلَيْم (ت٣٥١هـ) الذى صنف كتاب "الطبقات فيمن روى عن مالك من أهل الأمصار"[١]، ومنهم يحيى بن عبد اله بن يحيى الليثى[٢]. وهو حفيد الفقيه الأندلسى المعروف، يحيى بن يحيى الليثى الذى كان له دور كبير فى تثبيت المذهب المالكى فى الأندلس كما ذكرنا من قبل.

على أن هناك فقهاء آخرين نبغوا فى فقه غير الفقه المالكى؛ وكان من أسباب ذلك، تلك الحرية الفكرية التى أتيحت للعلماء فى فترة الخلافة. فقد عرف بالفقه الشافعى: عثمان بن أبى سعيد الكنانى (ت٣٢٠هـ)، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم (ت ٣١٩هـ)، وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس (ت٣٦٩هـ)، الذى كان من المترددين على الحكم المستنصر[٣]. كذلك عرف من فقهاء الظاهرية: منذر بن سعيد البلُّوطى (ت ٣٥٥هـ)، وكان قد درس فى المشرق على كبار العلماء، وعندما عاد إلى الأندلس، أنكر تقليد مذهب مالك؛ وكان يميل إلى مذهب داود بن خلف الظاهرى[٤]، ويحتج له. ولقد كان يلى قضاء "لاردة" و"طرطوشة"، ثم نال إعجاب الناصر ولفت نظره بخطبته البليغة فى حفل استقبال سفير القسطنطينية، فولاه الخليفة الصلاة والخطابة بمسجد الزهراء، ثم ضم إليه بعد ذلك قضاء قرطبة[٥]. والذى بلغ إليه منذر بن سعيد – على ظاهريته ومخالفته لمذهب المالكى الرسمى – يدل على مدى ما ساد الأندلس فى فترة الخلافة من حرية فكرية، وما تمتع به العلماء من استقلال فى الرأى مهما خالف هذا الرأى مذهب الحاكمين[٦].

<u>هـ– وأما الطب</u>، فقد ازدهر فى تلك الفترة، ونبغ فيه أعلام من الأندلسيين. وقد كان من مهرة الأطباء فى تلك الفترة: سعيد بن عبد ربِّه القرطبى (ت٣٤٢هـ) الذى كانت له طريقة خاصة فى علاج الحميات[٧]، وأحمد بن يونس، وأخوه عمر، اللذان عُرِفا بالمهارة فى تحضير الأدوية والعلاج، وخاصة علاج العين. وقد رحل الأخوان إلى بغداد

---

(١) تاريخ ابن الفرضى ٢٧١/١-٢٧٢.

(٢) ابن الفرضى ٣٤٦/١.

(٣) راجع عن هؤلاء الفقهاء الشافعية تاريخ ابن الفرضى – على التوالى ٣٤٦/١، ١٠٥/١، ٥٩/١-٦٠.

(٤) راجع رسالة الدكتوراه (من تأليفنا) – مذكورة من قبل – ص ٥٤٨.

(٥) نفح الطيب ٣٧٢/١-٣٧٦، ص ٥٧٠-٥٧٦، تاريخ العلماء لابن الفرضى ١٤٢/٢-١٤٣.

(٦) الأدب الأندلسى للدكتور أحمد هيكل ص ١٩١.

(٧) طبقات الأدباء لابن أبى أُصيبعة ص ٤٨٩-٤٩٠.

فى زمن عبد الرحمن الناصر، وتتلمذا على كبار الأطباء بها، وبعد عودتهما استخلصهما الحكم المستنصر لنفسه[1]، وغير هؤلاء كثيرون ممن عرفوا أيام الناصر والمستنصر وذاعت شهرتهم، حتى لقد كان بعض ملوك المسيحيين يلجأون إلى أطباء الأندلس، لعلاج ما يستعصى من أمراضهم[2].

وأما الرياضيات فقد نبغ كثيرون، مثل عبد الله بن محمد المعروف بالسرى والذى كان (الحكم) يعظمه وألف كتاباً فى علم العدد والهندسة. ومثل أبى بكر أحمد بن محمد المعروف بابن أبى عيسى، الذى كان يجلس للتعليم أيام الحكم، وكان مقدماً فى الهندسة والعدد والنجوم[3].

* وهكذا نرى عدة ظواهر للحياة الثقافية فى الأندلس خلال فترة الخلافة[4]:

أولاها: المشاركة الواضحة فى أكثر فروع المعرفة، النبوغ الملموس فى أغلب ألوان الثقافة؛ حتى لنرى من أبناء الأندلس مبرزين فى شتى العلوم والفنون، ونجد لهم مؤلفات فى مختلف فروع المعرفة.

والظاهرة الثانية للحياة الثقافية فى فترة الخلافة: شيوع الحرية الفكرية بصورة واضحة، وتشجيع العلماء وإكبارهم، على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم.

والظاهرة الثالثة المتصلة بالحياة الثقافية لتلك الفترة: إقبال كثير من الأندلسيين على العلوم الفلسفية والطبيعية؛ حتى لتعد تلك الفترة بحق من الفترات المعدودات، التى أتيح فيها للثقافة الأندلسية أن تتصل اتصالا قويا بالفلسفات والطبيعيات .

وهناك بعد ذلك ظاهرة رابعة جديرة بالاعتبار، وهى: الاتصال ببعض المعارف الإغريقية واللاتينية عن طريق الترجمة. فقد ترجمت عن هاتين اللغتين بعض الكتب مثل كتاب "ديسقوريدس" DIOSCORIDES فى الحشائش والأدوية، وكتاب "هروسيس" OROSIUS فى التاريخ. وقد وصل هذان الكتابان إلى الأندلس ضمن هدية بعث بها إمبراطور القسطنطينية "أرمانيوس" إلى عبد الرحمن الناصر وذلك فى سنة

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جُلْجل ص ١١٢-١١٣، طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٠-٨١، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) قصة العرب فى إسبانيا – ترجمة الجارم ص ١٠٩-١١٠. وراجع د. هيكل: المرجع السابق ص ١٩٢.

(٣) راجع: طبقات الأمم ص ٦٧-٦٨.

(٤) راجع د. هيكل : المرجع السابق ص ١٩٢-١٩٣.

(٣٣٧هـ/٩٤٨م) وكان الكتاب الأول مكتوباً بالإغريقية. وقد ترجمه فى الأندلس راهب يسمى "نيقولا" أرسله الامبراطور بناء على طلب الناصر. أما الكتاب الثانى فكان مكتوباً باللاتينية. وقد ترجمه فى الأندلس قاضى النصارى بقرطبة، وقاسم بن أصبغ الأندلسى(1). ولا يبعد أن يكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن هاتين اللغتين كما حصل لهذين الكتابين؛ حيث توفرت لتلك الفترة كل الإمكانيات التى تشجع على ذلك، من حرية فكرية، وتحمس لجلب الكتب، ووجود من يستطيعون الترجمة.

هذا، وقد نهض الأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نهضة عظيمة، ساعد عليها ما كان من رقى سياسي وتفوق اجتماعى ونهوض ثقافى. وقد بدت نهضة الأدب الأندلسى خلال تلك الفترة فى مظاهر عديدة؛ منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر، وبعض الأنواع الجديدة فى النثر بالإضافة إلى تطور الاتجاهات المعروفة وازدهار الأنواع المألوفة، ووفرة الإنتاج الأدبى وخصوبته وتنوعه، وشيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعًا جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية فى ذلك الحين.

وكان من أهم الشخصيات البارزة فى مجال الأدب - فى تلك الفترة - ابن عبد ربه القرطبى (ت ٣٢٨هـ) صاحب كتاب (العِقْد الفريد). والشاعر أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدى (المتوفى ٤٦٢هـ)(2).

***

ثانيا: فترة حكم بنى عامر فى ظل الخلافة الأموية (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٩م):

الحاجب المنصور بن أبى عامر ينتزع السلطة من الخليفة ويصبح الحاكم الفعلى للبلاد.

تتمثل هذه الفترة فى السنين التى حكم الأندلس فيها من الناحية الرسمية الخليفة هشام (المؤيد) الذى بويع بالخلافة بعد أبيه الحكم (المستنصر). أما من الناحية الحقيقية فقد كان الحكم المطلق لمحمد بن أبى عامر الذى عمل حاجبا للخليفة (أى: رئيسا للوزراء)، وتلقب بلقب (المنصور) (٣٦٨-٣٩٢هـ/٩٧٨-١٠٠٢م). ثم لابنه عبد الملك الذى خلف أباه فى منصب الحجابة، وتلقب بالمظفر (٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠٢-١٠٠٨م). ثم لابنه الثانى عبد الرحمن الذى عمل كأبيه وأخيه وتلقب بالمأمون ولم تطل مدته.

---

(١) راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٩٤، وراجع رسالة الدكتوراه المذكورة (من تأليفنا) ص ٦٣٦-٦٣٧.

(٢) راجع د. هيكل : الأدب الأندلسى ص ٩٤.

لقد عهد الحكم المستنصر بالأمر من بعده لابنه الوحيد هشام، وكان هشام حينئذ طفلاً صغيرًا فى الثانية عشرة من عمره، ولا يستطيع أن يلى تدبير الدولة بنفسه، مما أدى إلى تمهيد الطريق أمام تدخل الأوصياء والطامعين من ذوى النفوذ، الأمر الذى أضعف من سلطة الخليفة الجديد، حتى أصبح المنصور محمد بن أبى عامر - الذى تمكن من انتزاع السلطان لنفسه شيئا فشيئا - هو الحاكم الفعلى بعد فترة وجيزة من وفاة المستنصر، ثم سار ابناه (المظفر، والمأمون) على سنته. ولم يبق لهشام مع المنصور وابنيه من بعده إلا اسم الخلافة فقط.

ومحمد بن أبى عامر[1] من نسل عبد الملك المعافرى أحد المحاربين العرب الداخلين مع طارق بن زياد فى سنة الفتح، ويتصل نسبه ببنى عامر إحدى قبائل اليمن، وقد استوطن جده إقليم الجزيرة الخضراء، وكان أبوه(عبد الله) من علماء عصره، ومن أهل الفضل والتقى[2]، أما محمد بن عبد الله بن أبى عامر نفسه فقد انتقل إلى قرطبة شاباً يطلب العلم، فبرع فى علوم الشريعة والأدب. وقد كان فى بداية حياته الوظيفية يجلس عند باب قصر الخلافة يكتب عرائض للمترافعين إلى السلطان، إلى أن طلبت "صبح" زوجة الحكم المستنصر وأم ولده "هشام" من يكتب عنها، فعرفها به بعض "فتيان" القصر، فاستحسنت كتابته، وعيَّنته أميناً لبعض شئونها[3]، ثم زكَّته عند الخليفة المستنصر لما رأت فيه من الذكاء وحسن التدبير، فأسند إليه الإشراف على أموال ابنه الأمير هشام ولى العهد، وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة، فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة، وعلى أمانة "دار السِّكة"، ثم عين للإشراف على "خِطة المواريث" فقاضيًا لكورة "إشبيلية"، ثم مسئولاً عن "الشرطة الوسطى". ثم أصبح فى آخر أيام المستنصر - ناظرًا على الحشم (الخاص) ومنحه لقب "فتى الدولة"[4]. ولما مات الخليفة كان ابن أبى عامر أحد الشخصيات الكبيرة والمرموقة فىالقصر الخلافى والدولة، وقد وصل إلى هذه الرتبة بمساعدة صديقه الوزير جعفر المصحفى، (حاجب المستنصر) والسيدة "صبح" أم هشام ((بما استهواها به من الخدمة والإتحاف والمهاداة))[5].

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر (محمد) بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى .

(٢) نفح الطيب ٣٩٩/١، أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٥٩. (٣) نفح الطيب ٣٩٩/١.

(٤) أعمال الأعلام ص ٥٩، المقتبس (تحقيق د. الحجى) ص ٤٣، ٤٤، ٧٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٩-١٧٠، البيان المغرب ٢٣٩/٢

(٥) أعمال الأعلام ص ٥٩.

ولما بويع "هشام" بالخلافة كانت هناك شخصيات ذات تطلعات متباينة حول مستقبل الخلافة الأموية بالأندلس، فهناك السيدة "صبح" التى تريد أن تحتفظ بالخلافة لابنها هشام والتمكين له، وجعفر المصحفى الذى ظل فى منصب (الحجابة)، ومحمد بن أبى عامر الذى رُقِّى إلى مرتبة الوزارة، وعاون المصحفى فى تدبير شئون الدولة وكان يتطلع إلى حكم الأندلس خلال الوصاية على الخليفة الصغير (هشام المؤيد) الذى كان ميالا بطبعه وسنه إلى اللهو واللعب، ولم يكن له من تلك الخلال الرفيعة التى تهيئ الأمراء للاضطلاع بمهام الملك. وهناك أيضا الفتيان الصقالبة الخدام بالقصر، وكان عددهم ثمانمائة – أو يزيدون – وعلى رأسهم "فائق" و"جؤذر"، وهؤلاء كانوا يرون تولية المغيرة ابن عبد الرحمن (الناصر)، فتصدى لهم ابن أبى عامر وجعفر المصحفى وسعيا فى قتل المغيرة[1].

وقد تاقت نفس ابن أبى عامر إلى انتزاع السلطان، فعمل على تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، ونجح فى التخلص من جميع منافسيه. ويطول المقام بذكر الحديث عن المراحل التى تدرج بها للوصول إلى غايته، ونكتفى هنا بذكر مقتطفات جامعة من كتاب المقرى: (نفح الطيب) إذ يقول: «تجرد لرؤساء الدولة ممن زاحمه فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضا ببعض حتى استأصلهم وفرق جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالبة الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفى على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، ثم أصهر إلى (غالب) مولى الحكم المستنصر – أى تزوج ابنته – وبالغ فى خدمته والتنصح له، واستعان به على المصحفى فنكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على (غالب) بجعفر بن على بن حمدون (الذى ولى المغرب مع أخيه يحيى فى أيام المستنصر)[2] وقائد الشيعة ممدوح بن هانئ (شاعر العبيديين) بمن معه من زناتة والبربر، ثم قتل ابن حمدون بممالأة عبد الودود، وابن جهور، وابن ذى النُّون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم.. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة (المغرب) من زناتة والبرابرة. فرتب منهم جندًا، واصطنع أولياء، وعرَّف عرفاء، وأخَّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٦٠.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٧٨-٢٧٩.

بالملك، والاستبداد بالأمر، وتغلب على هشام (الخليفة) وحجره واستولى على الدولة، وبنى لنفسه مدينة لنزله سماها (الزاهرة)، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء وكتابه اسمه فى السِّكة (العملة) والطُّرُز...»[1].

بعض الملامح العامة لسياسة المنصور بن أبى عامر وإنجازاته الحربية والإدارية[2]:

أ- كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة، وقد وصل إلى مرتبة من السلطان والقوة، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس، حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه، ويمكننا أن نقول: إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ الأندلس المسلمة، من النواحى السياسية والحضارية، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعانا وتألقا، بل ربما امتاز على عهد الناصر، بما أحرزته الأندلس خلاله، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية (فى الشمال) فى مطلع عهد الناصر، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس، وأن توطد قواها العسكرية، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة، أما فى عهد المنصور، فقد انتهت إسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين المتوالية. وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل.

٢- وقد أدرك المنصور منذ البداية، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة، تكفى لإرهاب عدوها، وإعزاز دينها، ومن ثَمَّ فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى، وتقويته، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة. وقد رأى المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص، لما كانوا يتصفون به من البداوة

---

(١) نفح الطيب ٣٩٦/١-٣٩٨ (باختصار).

(٢) راجع التفاصيل فى دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٥٦٨/٢-٥٨٧.

والشجاعة، فاستقدمهم من عُدْوة المغرب، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء[1]. وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان، ومنحهم الأجور والجرايات السخية، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم، ومعاملتهم بالمساواة والرفق. واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية عظيمة، لم تعرفها فى أيه عهد آخر. وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو. ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسى وكفايته أيام المنصور إذا عرفنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن، يقود قواته إلى الغزو المستمر، فى أراضى الممالك النصرانية، كل ربيع وكل صيف. وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها، أن أصدر المنصور فى (سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو، اكتفاء بعدد الجيش المرابط، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس، إثر قراءة كتب الفتح، وعرفوا فيه (بأن من تطوع خيرًا، فهو خير، ومن خف إليه، فمبرور ومأجور، ومن تثاقل فمعذور)[2].

٣- وكان المنصور يضطرم شغفا بالجهاد فى سبيل الله، وكانت غزواته التى زادت على الخمسين، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة، هى تحطيم قوى إسبانيا النصرانية، وردعها بذلك عن العدوان على أراضى المسلمين. وقد تحققت هذه الغاية فى أواخر عهد المنصور على أكمل وجه.

ويرى البعض أن المحصلة النهائية لهذه الغزوات كانت ضعيفةً ولم تقضِ على قوى الممالك الشمالية، ولم تغير أحوالهم، وبقيت حدود دولة الإسلام على ما هى عليه، فهى غزوات دَوِيُّها عظيم، لكن نتائجها قليلة، ولم تحقق هدفًا ثابتًا ولم تقضِ على خصم[3].

وكانت حملته الثامنة والأربعون التى شنها على "جِلِّيقية" فى شمال غرب إسبانيا (سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م) هى أهم غزواته للممالك النصرانية فى الشمال. وكان غرض

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦.

(٢) أعمال الأعلام ص ٦٨.

(٣) د. عبد الله جمال الدين: المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ٧/٧١).

المنصور منها هو غزو مدينة "شانت ياقُب" (سنتياجو SANTIAGO). وهذا الاسم هو اسم (القديس يعقوب) الذى اتخذه الإسبان فى العصر الوسيط رمزًا قوميًا فى حروبهم مع المسلمين، وأقاموا له فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم.

وقد اشترك فى هذه الحملة الأسطول الأندلسى الذى حمل المشاة والأسلحة والأقوات والأطعمة والعدد، وأقلع من ميناء (قصر أبى دانس) على ساحل غرب الأندلس (فى البرتغال) واتجه نحو الشمال. بينما سار المنصور برًا على رأس فرسانه مخترقًا الأراضى الإسبانية شمالاً حتى بلغ (نهر دُوَيْرُ ة) وهناك التقى بأسطوله الذى دخل فى النهر وعقد منه جسرًا لعبور الجنود ثم زحف المنصور بفرسانه ومشاته مخترقًا بلاد العدو، بما فيها من جبال ووهاد حتى بلغ مدينة (شانت ياقوب) فوجد سكانها قد فروا منها، فأمر بهدمها وهدم كنيستها، لكنه حافظ على مقام (القديس يعقوب)، وعاد محملاً بالأسرى والغنائم التى كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها، فاستخدمت الأبواب فى تسقيف الجزء الذى نراه فى جامع قرطبة، كما استعمل النواقيس ثريات للمسجد[١].

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد، أنه كان يتولى القيادة بنفسه فى سائر غزواته الصائفة والشاتية، ولم يقعده شئ عن القيادة، والاشتراك الفعلى فى كثير من المعارك، حتى إننا نراه فى آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه، ويسير محمولاً على محفة، ثم يقضى نحبه عقب الغزو، بين يدى جنده وفى معقل الثغر، بعيدًا عن قصوره، وكان يحرص فى سائر غزواته على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار، أثناء المعارك التى يخوضها، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة، كان يحملها معه دائما حتى إذا وافته المنية ضُمَّت إلى أكفانه ودفنت معه تنفيذًا لوصيته[٢].

٤- وأما عن مقدرة المنصور فى الإدارة والحكم: فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية فائقة لم يبدها أحد من أسلافه، فلم تر الأندلس من قبل استقرارًا كالذى رأته فى عهد المنصور، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به فى عهده من الأمن والطمأنينة والدعة. وكانت أيام المنصور بالأندلس أيام فخار وظفر ورخاء ورغد، لم تعان خلالها من

---

(١) راجع تفاصيل هذه الغزوة فى البيان المغرب ٢/٢٩٤-٢٩٨.

(٢) نفح الطيب ١/٤٠٩..

غزوات العدو المخربة، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة، وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة، وزهت العلوم والآداب، وعم الخصب والرخاء فى جنبات الأندلس، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث، وسوى مال السبى والغنائم.

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس فى هذا العصر ما بين وزراء وكتاب عملوا معه على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة. وكان من وزرائه، أبو مروان عبد الملك بن شُهَيْد، ومحمد بن جَهْور، وعيسى بن فُطَيْس، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة فى أوقات معينة، ويعهد إليه بخاتمة.

٥-ولم يخْلُ عهد المنصور من الإنشاءات العظيمة على الرغم من غزواته المستمرة وقد أنشأ مدينته (الزاهرة) بقصورها وحدائقها، وجعلها مقرًا للحكم والإدارة، وقد انتهى من بنائها فى عامين وبنى بجانبها مُنْية جميلة ازدانت بالحدائق والقصور أسماها "العامرية"، وكان يقصدها عندما يريد الاستجمام[1].

كذلك قام بزيادة المسجد الجامع فى "قرطبة" بعد أن اتسعت المدينة، وضمت واحدًا وعشرين حيًا، الواحد فيها أكبر من أية مدينة أندلسية، وقد حفر حولها خندقًا بلغ (١٦) ميلاً، وزاد سكانها كثيرًا لا سيما البربر، وضاق المسجد الجامع بهؤلاء السكان فأدخل المنصور فى سنة (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) زيادة عليه من الناحية الشرقية، بلغت مقدارها المساحة الأصلية نفسها تقريبًا، وحرص المنصور على الاشتراك فى هذا المشروع بنفسه، واشتغل فيه أسرى النصارى، وتم تعويض أصحاب الدور والأماكن التى أخذت منهم لهذا الغرض[2].

كما جدد المنصور قنطرة قرطبة على نهر الوادى الكبير (سنة ٣٨٧هـ) وكان "السمح بن مالك" فى عصر الولاة قد جددها من قبل، وأنفق المنصور على تجديدها فى سنة (٣٨٧هـ - ٩٨٨م) مائة وأربعين ألف دينار، وبنى أيضا قنطرة "إِسْتَجَّه" على نهر "شنيل" أحد فروع نهر الوادى الكبير[3].

---

(١) البيان المغرب ٢/٢٧٥، أعمال الأعلام ص ٦٢.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٨٧، نفح الطيب ١/٥٧٨.

(٣) البيان المغرب ٢/٢٨٩.

أبناء المنصور محمد بن أبي عامر:

- **عبد الملك (المظفر بالله) وسياسته الداخلية والخارجية (٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠٢-١٠٠٨م):**

ولي الحجابة بعد وفاة المنصور ابنه عبد الملك الذى تلقب بالمظفر سيف الدولة، وأمّره الخليفة هشام على ما كان عليه أبوه معه.

١- وقد افتتح عبد الملك عهده بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد، ثم حرص على إظهار العدل، وحماية الشرع، ونصرة المظلوم، وقمع أعداء الدين، فاجتمع الناس على حبه، ولم يداهنوا فى طاعته، فانشرح قلبه، وخلصه الله من الفتن[1].

٢- وقد سار (المظفر) على سياسة والده الجهادية ضد ممالك إسبانيا النصرانية، فغزا بلادهم سبع غزوات، وأوغل فى أراضى (برشلونة) و(قشتالة) حتى أجبرها على الصلح والمهادنة، ولم يلبث ملوكها أن اعترفوا بسلطانه واحتكموا إليه فيما نشب بينهم من خلافات[2].

٣- كذلك واصل عبد الملك سياسة أبيه فى تعمير البلاد التى غزاها من أراضى العدو المتاخمة لحدود المسلمين، فيقول ابن عذارى فى هذا الصدد: ((وعهد الحاجب المظفر وقت الفتح إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلاً، ولا يهدموا بناء؛ لما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه، فشرع للوقت فى إصلاحه ونادى فى المسلمين: من أراد الإثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر على أن يستوطن فى هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحراث، فرغب فى ذلك خلق عظيم واستقروا به فى حينهم))[3].

٤- كذلك سار عبد الملك على سياسة أبيه الحازمة فى العدوة المغربية مما جعل زعماء (زناتة) يسارعون إلى مبايعته والدعاء له وللخليفة هشام المؤيد على المنابر. وقد كافأهم المظفر بأن استخدمهم فى جيشه، كما كافأ المعز زيرى بن عطية المغراوى بأن ولاه حكم المغرب بدلاً من قائده واضح الصقلبى الذى أمره بالعودة إلى الأندلس.

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٨٤-٨٥.

(٢) تفاصيل غزواته فى البيان المغرب ج ٣ ص ٤-١٥، ص ٢١-٢٣.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٧.

كذلك اصطنع المظفر بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين حكام الدولة الزيرية فى إفريقية على عهد الفاطميين، فانتقل فرع منهم برئاسة (زاوى بن زيرى) إلى الأندلس واستقروا بنواحى غرناطة[1].

على أن حكم عبد الملك المظفر لم يستمر أكثر من سبع سنوات، إذ أصابته ذبحة صدرية أودت بحياته (سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م).

- **عبد الرحمن بن المنصور وسقوط دولة بنى عامر:**

قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بالمأمون وكانت أمه مسيحية بنت رجل يسمى "سانشو" ولذا سمّى الفقهاء عبدَ الرحمن باسم "سانشُول" (أو شانجُول) Sanchuelo أى سانشو الصغير؛ وذلك لأنهم كانوا يكرهونه، كما كان يكرهه كثير من الأندلسيين بسبب استهتاره واتهامه بقتل أخيه عبد الملك. وربما كان نسبه لأم مسيحية من أسباب كراهيته.

وكان ذلك كله بمثابة البارود الذى ينتظر الشرارة لينفجر. وقد انطلقت الشرارة وكان مطلقها (شانجول) نفسه، فقد دعاه طمعه إلى الضغط على الخليفة ليكتب له بولاية العهد، وفعلاً امتثل الخليفة وكتب بالعهد له. وكان مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطانى عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر. وهنا غَلَى مِرْجَلُ الغضب فى نفوس الأندلسيين وانتهزوا فرصة غيابه فى غزو إقليم (ليون) فى أول (سنة ٢٩٩هـ/١٠٠٩م) وثاروا بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الذى انضم إليه الساخطون على العامريين، وخاصة من كانوا على ولاء لبنى أمية، من يمنيين ومضريين. وهاجم الثائرون قصر الخلافة، وقتلوا الحراس، واضطروا الخليفة إلى التنازل عن الخلافة لزعيم الثورة محمد بن هشام، الذى ولى الخلافة، وتلقب بالمهدى.

ولما وصلت أنباء الثورة إلى المأمون أثناء عودته من غزواته. عزم على إخمادها، ولكن جنده البربر انفصلوا عنه، وأخذوا يتسللون أثناء مسيره ويدخلون قرطبة، ويبايعون الخليفة الجديد. ثم قبض على المأمون، وقتل وصلبت جثته. وهكذا دالت دولة بنى عامر، وانتهت فترة الحجابة[2].

---

(١) راجع البيان المغرب ٣/٣٦-٣٧، والعبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨-٥٠، أعمال الأعلام ص ٨٩-٩٧، نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٤-٤٢٦.

ثالثاً: فترة إنهيار الخلافة الأموية (الفتنة) [٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م]:

ليس لهذه الفترة طابع سياسى أصدق مما وصفت به من أنها فترة الفتنة المبيرة. فقد عانت الأندلس منذ نهاية الدولة العامرية إلى سقوط الخلافة الأموية (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م) فتنة طاحنة، كان من آثارها أن قتل كثير من الأندلسيين، وتفككت وحدتهم، وتصدعت قوتهم وأهدرت قيمهم. وذلك لأن الحكم والسلطان ظل موضع نزاع بين الأمراء الأمويين أولاً، ثم بينهم وبين الرؤساء البربر ثانياً[1]، وقد دفع حب الغلبة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى الاستعانة بالأمراء الإسبان النصارى، وكان الثمن هو تسليم بعض المدن والحصون الأندلسية، وإباحة العاصمة قرطبة لجند الإسبان الداخلين مع المتغلبين. وإليك الحديث عن مراحل هذه الفتنة[2]:

١- فقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموى، على عبد الرحمن بن أبى عامر وقوض الدولة العامرية وأنهى فترة الحجابة (سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م) كما ذكرنا

---

(١) تولى الخلافة فى هذه الفترة من الأمويين والبرابرة:

الخليفة	المرة	الهجرى	الميلادى
١- محمد بن هشام المهدى	المرة الأولى	من ٣٩٩ إلى ٤٠٠هـ	(١٠٠٨-١٠٠٩)م
٢- سليمان (المستعين)	المرة الأولى	من ٤٠٠ إلى ٤٠٠هـ	(١٠٠٩-١٠٠٩)
٣- محمد (المهدى)	المرة الثانية	من ٤٠٠ إلى ٤٠٠هـ	(١٠٠٩-١٠١٠)
٤- هشام (المؤيد)	المرة الثانية	من ٤٠٠ إلى ٤٠٣هـ	(١٠١٠-١٠١٣)
٥- سليمان (المستعين)	المرة الثانية	من ٤٠٣ إلى ٤٠٧هـ	(١٠١٣-١٠١٦)
٦- (الناصر) على بن محمد بن حمود		من ٤٠٧ إلى ٤٠٨هـ	(١٠١٦-١٠١٨)
٧- عبد الرحمن (المرتضى)	بشرق الأندلس	من ٤٠٨ إلى ٤٠٩هـ	(١٠١٨-١٠١٨)
٨- (المأمون) القاسم بن حمود	المرة الأولى	من ٤٠٨ إلى ٤١٢هـ	(١٠١٨-١٠٢٢)
٩- (المعتلى) يحيى بن حمود	المرة الأولى	من ٤١٢ إلى ٤١٣هـ	(١٠١٣-١٠١٦)
١٠- (المأمون) القاسم بن حمود	المرة الثانية	من ٤١٣ إلى ٤١٤هـ	(١٠٢٣-١٠٢٣)
١١- عبد الرحمن (المستظهر)		من ٤١٤ إلى ٤١٤	(١٠٢٣-١٠٢٣)
١٢- محمد (المستكفى)		من ٤١٤ إلى ٤١٦	(١٠٢٣-١٠٢٥)
١٣- (المعتلى) يحى بن حمود	المرة الثانية	من ٤١٦ إلى ٤١٧	(١٠٢٥-١٠٢٧)
١٤- هشام (المعتد)		من ٤١٧ إلى ٤٢٢	(١٠٢٧-١٠٣١)

(٢) تفاصيل مراحل الفتنة تجدها فى البيان المغرب ج ٣ ص ٥٠-١٥٢، أعمال الأعلام ص ١٠٩-١٤٠، نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٦-٤٣٨، وراجع أيضاً : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ٣٤٢-٣٤٨، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٤-٣٥٨.

من قبل ولكنه اضطهد البربر لأنهم كانوا أعوان العامريين وخدمهم، وتشدد مع الأندلسيين ونزع السلاح من كثير منهم، لأنه كان يخاف هياجهم. وأعلن كذلك وفاة الخليفة هشام، بعد أن أحضر جثة تشبه جثته، وأشهد على الوفاة بعض الفقهاء ورجال القصر، وشيع جنازة الخليفة وهو حى لا يزال إذ كان قد سجنه فى مكان خفى.

٢- وبالإضافة إلى ذلك كله، عُرف محمد بن هشام – رغم اتخاذه لقب المهدى – بالفسق والفجور والميل إلى الملذات، كما اشتهر بالقسوة والعنف. وقد اثار كل ذلك العامة عليه ونفَّرهم منه، فانتهز الفرصة أمير أموى اسمه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر – وكان المهدى قد سجن أباه – فثار بطائفة من الحانقين على المهدى، وتقدم إلى القصر وطلب من المهدى ترك الخلافة له. وفى أثناء ذلك عبث البربر بقرطبة، وكان كثير منهم ضمن الثائرين، فقام القرطبيون بمطاردة البربر، لا دفاعاً عن المهدى، وإنما دفاعاً عن أنفسهم. وقد استطاعوا أن يجلوهم عن قرطبة. وفى أثناء ذلك قتل الأمير الأموى الثائر على المهدى.

٣- ولم تنته الفتنة عند هذا الحد، فقام أمير أموى آخر، هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وانضم إلى البربر المتحفزين خارج قرطبة، فبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمستعين. وقد أراد المستعين وأعوانه البربر أن يحتشدوا لدخول قرطبة؛ فاتجهوا أولا إلى مدينة سالم، وطلبوا من حاكمها (واضح) أن ينضم إليهم فرفض، فاتجهوا إلى أمير قشتالة (سانشو جَرْثيا) وطلبوا منه المساعدة، وكان قد سبقهم إلى طلب المساعدة نفسها رسل من قِبل المهدى, ولما كان الأمير القشتالى يعرف ضعف المهدى، فإنه آثر مساعدة رسل المستعين، واشترط لذلك الاستيلاء على بعض الحصون والمدن مما فى أيدى المسلمين. ولما أخذوا المؤن والمساعدات زحفوا على قرطبة ونازلوا المهدى وهزموه، وأبيحت قرطبة للبربر والقشتاليين مدة[1]. وكان من نتائج هذه الحرب بين المهدى وجنده والمستعين وأعوانه، قَتْلُ آلاف، وغَرَقُ آلاف، وتدمير الكثير من قصور قرطبة، ونهب العديد من متاجرها، وانتشار الرعب والأسى بين من بقى من سكانها. أما المهدى فقد فر إلى طليطلة،وتتبعه المستعين. وقبل أن تناله يده كان (واضح) حاكم مدينة سالم الموالى للمهدى قد استنجد أميرى "قطلونيا" المسيحيين وهما: (رامون الثالث) أمير

---

(١) كان دخول المستعين على رأس البربر إلى قرطبة سنة ٤٠٠هـ – ١٠٠٩م.

"برشلونة" و(إرمنجول) أمير" أرخيل"، فأنجداه على شروط سخية فى صلح القطلونيين. ولما وصله المدد انضم إلى المهدى، فاضطر المستعين إلى الانسحاب ثانياً إلى قرطبة. ولكن المهدى وواضحاً والقطلونيين تبعوه، واستطاعوا هزيمته واضطراره إلى الفرار خارج قرطبة، ووقعت العاصمة الأندلسية مرة ثانية فريسة لجيش منتصر يعاونه إسبان مسيحيون. وخرج القطلانيون من قرطبة بعد فترة متقلين بالأسلاب [1].

٤- وأخيراً رأى الجنود الأندلسيون التخلص من الأمويين المتنازعين، فثاروا على المهدى وقتلوه (آخر سنة ٤٠٠هـ) وبايعوا من جديد (هشاماً المؤيد) الذى كان قد شيع المهدى منذ حين جنازته الكاذبة، وعمل واضح وزيراً لهشام فى هذه المرة، وقد حاول سليمان استرداد السلطان فطلب العون من حليفه السابق أمير قشتالة، فطلب هذا الحليف حصوناً من (واضح)، وكأنه يهدده بمساعدة المستعين إن لم تسلم الحصون، فاضطر واضح إلى التسليم.

ومع هذا لم يسلم الأمر لهشام فى تلك الخلافة الثانية. فقد كان البربر خارج قرطبة يعيشون وينهبون، حتى لقد دمروا مدينة (الزهراء) (سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م) وحولوها إلى خرائب. ثم حاصروا قرطبة. وكان القرطبيون قد ثاروا على واضح وزير هشام وقتلوه، وجعلوا مكانه فى الوزارة (ابن أبى مضاء) وظلوا يدافعون عن مدينتهم حيناً، ثم اقتحمها عليهم البربر بقيادة سليمان المستعين (سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م) فدمروا ونهبوا وقتلوا فيها الكثير من بينهم عدد من كبار العلماء، ولم يرحموا حتى النساء والأطفال، وأحرقوا الدور وتعرضت قرطبة لمحنة لا تعادلها محنة. وقد استدعى المستعين هشاماً وأنّبه على قبوله الخلافة. ويقال إنه قتله سراً، ويقال إنه سجنه، ففر بعد حين من سجنه وعمل عاملاً عادياً فى الأندلس ثم هاجر إلى المشرق. وبهذا الغموض انتهت قصة هشام[2].

٥- أما المستعين فظل حيناً يحكم، ولكن الميدان لم يخل له بانتهاء هشام والمهدى من بنى أمية، فقد ظهر خطر جديد من غير الأمويين. ذلك أنه كان من قواد البربر الكبار الذين عاونوا المستعين أخوان، أحدهما كُوفِئَ بولاية (سَبْتَة) و(طنجة)،

---

(١) كانت هذه المرة بعد المرة الأولى بستة أشهر..

(٢) تذكر أن هشاماً هذا هو هشام (المؤيد) بن الحكم المستنصر.

وهو على بن حَمُّود، والآخر كُوفئ بولاية (الجزيرة الخضراء) وهو القاسم بن حمُّود. وقد تاقت نفس (على) إلى تولِّى الحُكْم فى الأندلسي؛ فهو بربرى، والبربر هم ذوو القوة حينئذ، وعلى رماحهم قامت دولة المستعين. فتحالف على بن حمود مع صقلبى من أعوان بنى عامر كان يلى (ألمرية)، وهو (خيران العامرى)، واتفق معه على الزحف إلى قرطبة، وانضم البربر إلى ابن حمود. ولما خرج المستعين للقائه قبضوا عليه وسلموه لعلى فقتله. ثم دخل ابن حمود قرطبة، وبويع بالخلافة (سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م)، وأخلص له (خيران العامرى) أول الأمر، ثم ما لبث أن انقلب عليه، وأخذ يدعو فى شرق الأندلس لأمير أموى جديد هو عبد الرحمن بن عبد الملك الناصر الذى بويع فى شرق الأندلس ولقب بالمرتضى.

وقد انتهى أمر (على بن حمود) بأن اغتيل على أيدى بعض خدمه من أعوان الأمويين (سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م)، فخلفه أخوه القاسم بن حمود. وكان حاكم "سرقسطة" قد دخل فى دعوة (المرتضى)، وزحف مع (خيران العامرى) إلى "غرناطة"، ولكن هذا الزحف انتهى بالفشل، لخلاف بين المتحالفين، فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى حيث قتل.

وهكذا تخلص القاسم بن حمود من هذه الدعوة الأموية الجديدة. ولكن الأمر لم يستقر له، فقد طمع ابن أخيه واسمه (يحيى بن على بن حَمُّود)، فى أن يكون الأمر له مكان أبيه، فزحف إلى المغرب وانضم إليه كثير من البربر الناقمين على القاسم استخدامه للعبيد دونهم. ولما اقترب يحيى من قرطبة، فرَّ عمُّه (القاسم) إلى إشبيلية، ودخل يحيى العاصمة الأندلسية، التى وقعت من جديد فى أيدى جنود منتصرين (سنة ٤١٣هـ/١٠٢٣م).

لم يستقر يحيى طويلاً فى قرطبة، فقد انفض أعوانه واضطر إلى اللجوء فى السنة التالية إلى (مالقة). وعاد القاسم بن حمود من جديد إلى قرطبة. ولكنه لم يستقر أيضاً؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطردوه، فهرب إلى إشبيلية، ولكنه لم يستقر أيضاً؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطردوه، فهرب إلى إشبيلية، ولكنه وجدها هذه المرة مغلقة الأبواب فى وجهه، فاضطرب أمره، حتى قبض عليه يحيى ابن أخيه، فكانت نهايته على يديه.

٦- وهنا اختار أهل قرطبة أميراً أموياً جديداً للخلافة، فبويع عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر (سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م) ولُقّب بالمستظهر. ولكن الأمر لم يستقر لهذا الخليفة الجديد؛ فقد شبت ثورة ضده بزعامة أموى آخر، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، ونجحت الثورة وقبض على المستظهر، وقتل بعد أسابيع من مبايعته بالخلافة. وبويع الأمير الأموى الجديد، ولقب بالمستكفى[1]. ولكن هذا الخليفة الجديد لم يحسن الحكم وأغضب رجالات قرطبة وأهل الفكر والرأى فيها، فلجأوا إلى يحيى بن خالد وقتلوه، وعلم المستكفى بان يحيى بن حمود يتجهز للاستيلاء على قرطبة، ففر متخفياً فى زى امرأة وخرج من قرطبة حيث دس له السم فمات. واختار القرطبيون يحيى بن حمود فكان الخليفة بها للمرة الثانية، واكتفى أخيراً بإنابة وزير عنه للحكم، وترك جنوده لإقرار الأمن، واستقر هو بمالقة.

٧- وكان يحيى بعيد النظر فى عدم بقائه بقرطبة هذه المرة؛ إذ كانت الفتنة لا تترك لحاكم فرصة استقرار. ففى هذه المرة اتفق "خيران العامرى" حاكم (ألمرية)، و"مجاهد العامرى" حاكم (دانية) على إخراج الحموديين وإعادة الحكم الأموى، وكان القرطبيون قد ملُّوا حكم البربر، فتآمروا مع زعيمى الصقالبة (خيران) و(مجاهد) على إنهاء الحكم الحمودى، ثم طُرِد الحموديون من قرطبة بمعاونة الجند الصقالبة الموجودين فيها؛ إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها (خيران) و(مجاهد)، وباغت الجميع البربر وطردوهم إلى غير رجعة، ثم حاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموى، فاختار الوزير أبو الحزم بن جهور الأمير هشام بن عبد الملك بن الناصر، (أخا عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى). وتمت البيعة لهشام الثالث (سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م) ولقب بالمعتد بالله، وكان بعيداً عن قرطبة حين بويع، ثم استطاع الوصول إليها بعد صعوبات من الخارجين على الحكومة المركزية.

٨- ولم تستقر الأمور باختيار الخليفة الجديد، فقد خيب الآمال بعكوفه على الملذات وتبلُّده، وتَركِه الأمور فى يد وزيره الحكم بن سعيد. وقد أساء هذا الوزير إلى العلماء باستهانته بهم وإلى الشعب بفرضه الضرائب الباهظة عليهم. وأضيف إلى ذلك منافسة الزعيم القرِطبى الكبير (ابن جهور) له؛ فعزم على إسقاطه وخلع خليفته. وكان

---

(١) هو أبو ولّادة الأديبة صاحبة ابن زيدون.

الجند قد ثاروا لتأخير رواتبهم، وفى الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد، ونهب القصر، واعتصم هشام الثالث بأحد الأبراج، واجتمع مجلس الكبراء فى قرطبة بزعامة (ابن جهور) يبحث تلك الأحداث، وأخيرا استقر الرأى على التخلص من بنى أمية وإجلائهم عن قرطبة، وإلغاء الخلافة نهائيًا، وأن يتحول الحكم إلى شورى بأيدى الوزراء وصفوة الزعماء، أو من أسماهم ابن حزم "بالجماعة"، ثم ركبوا وحولهم حراسهم ومواليهم، واتجهوا إلى القصر، وناشدوا الثائرين بالكف عن أعمال العنف، فرضخوا لهم. ثم نادوا هشاما الثالث، ووعدوه بالأمان إن تنازل عن الخلافة، فتنازل وسُجِن، وأُعْلِن إنهاء الخلافة، وآل الحكم إلى مجلس الكبراء الذى يرأسه ابن جهور، وانتهت فترة الفتنة (سنة ٤٢٢هـ /١٠٣١م). وبدأ عصر جديد من عصور الأندلس هو عصر "الطوائف".

الخصائص العامة لفترة الفتنة فى قرطبة (٤٠٠-٤٢٢هـ)[1].

١-ومن البديهى أن مجتمعاً يعيش فى مثل تلك الظروف القاسية، يكون مجتمعاً مضطربًا قلقاً، منهار القيم مفعماً بالمرارة. وهكذا كان المجتمع الأندلسى أيام الفتنة المبيرة، وخاصة المجتمع القرطبى، حيث كثر تتابع الحكام أمويين وبربر، وحيث تعدد انسحاب جيش منهزم ليدخل آخر منتصر، وحيث شاع التدمير والسلب وكل أعمال العنف التى شملت (الزاهرة) و(الزهراء) و(قرطبة) جميعا.

٢- ومن البديهى كذلك أن تعطل أمثال تلك الأحداث القاسية كل نشاط صناعى، وتعرقل كل رخاء تجارى، وتوقف كل نماء زراعى وأن تسبب المجاعات وتنشر الأوبئة وتشيع الكوارث[2].

٣- ضَعُف الدين فى قلوب الناس، وخُفُوت صوت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى ((بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام – **والقائل هو ابن عذارى فى البيان المغرب** – أن رجلا نصرانيا وقف فى أعظم شوارع قرطبة فنال من شخص النبى صلى الله عليه وسلم، فلم يكلمه أحد منهم بكلمة. فقال رجلا من المسلمين غيرة للنبى: ألا تنكرون ما تسمعون، أما أنتم مسلمون؟. فقال له جماعة من أهل قرطبة امض لشغلك.

---

(١) راجع الأدب الأندلسى للدكتور هيكل ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٣٠، ٣١، ٧٩، ٨٠، ٨١، وانظر: البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٦٢ – ٦٤، ١٠١ – ١١٥. وانظر أيضا : طوق الحمامة لابن حزم ص ١١٦، فهو يحدثنا عن أخ له مات بالطاعون الواقع فى قرطبة سنة ٤٠١ هـ.

وكان الإفرنج إذا سمعوا الآذان للصلاة يقولون قولا لا يذكر، فلا يعترض عليهم أحد بشئ. وجمع أهل قرطبة مالا كثيرا للأفرنج، وسألوا القاضى (ابن ذكوان) أن يدفع إليهم مال الأحباس (الوقف) المُودع فى مقصورة الجامع، فامتنع عليهم، فسروا باب المقصورة وأخذوه ودفعوه إلى الإفرنج))[1].

٤- وكان من نتائج أحداث فترة الفتنة أن تعطل النشاط الثقافى، وخاصة فى قرطبة مسرح المأساة؛ فقد أغلقت المدارس، وانفضت حلقات الدرس[2] وقتل بعض العلماء[3]، وهاجر البعض إلى حيث يلتمس شيئا من الأمن[4]. على أن ذلك لم يخمد أنفاس الثقافة الأندلسية فى ذلك الحين؛ فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار فى فترة الخلافة (فترة الناصر والمستنصر) أو انتفعوا بقوة الدفع فى فترة الحجابة، فحفظوا للأندلس كثيرا من علمها وتراثها رغم ما كان من فتنة مبيرة[5]، كما كان هناك بعض الأساتذة ممن وفدوا على الأندلس من أقطار إسلامية أخرى، وكان لهم فى الأندلس حينذاك جهاد علمى مشكور[6]. كذلك كان فى بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مركز الفتنة حظ من النشاط العلمى، بقدر ما أتيح لتلك الأقاليم من الاستقرار والهدوء. وقد كان شرق الأندلس من تلك الأقاليم التى نعمت ببعض الأمن، فعرفت بعض المدن هناك فى تلك الأونة بحياة علمية على شئ من الخصوبة.

وقد كان ممن خرجتهم فترة الفتنة برغم ما بها من أحداث وأهوال، عالمان جليلان لهما مكانهما فى الصف الأول بين علماء الأندلس، ولهما كذلك منزلتهما بين الأدباء. هذان العالمان هما: أبو محمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، وأبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م).

---

(١) البيان المغرب ٣/٩٧-٩٨ (حوادث سنة ٤٠٠ هـ).

(٢) انظر: الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣١.

(٣) منهم ابن الفرضى صاحب "تاريخ" علماء الأندلس، الذى قتل ضمن من قتل أيام اقتحام البربر لقرطبة سنة ٤٠٣هـ.

(٤) مثل ابن حزم الذى ارتحل إلى شاطبة حيث ألف أعظم كتبه (وسيأتى الكلام عنه بعد قليل).

(٥) من هذه البقية الصالحة من علماء الأندلس: أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور، وكان أحد شيوخ الحديث (انظر: بغية الملتمس للضبى ص ١٤٣) وأبو محمد عبد الله بن يوسف الرهونى القرطبى (ت ٤٣٥هـ)، وكان مؤدبا محدثا مجوداً للقرآن (انظر الصلة لابن بشكوال ص ٢٧٠).

(٦) ألمع العلماء الوافدين على الأندلس فى تلك الأونة: أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبى يزيد المصرى (ت ٤١٠هـ)؛ وكان أديبا نسابة حافظا للحديث عالما بالأخبار. (انظر الصلة لابن بشكوال ص ٣٥٣-٣٥٤).

أ- أما ابن حزم فهو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم[1]، ويلقب بالقرطبى نسبة إلى موطن ولادته ونشأته، كما يلقب بالظاهرى نسبة إلى المذهب الفقهى الذى اشتهر به.

- وقد وضع ابن حزم كثيرا من المؤلفات فى فنون مختلفة، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية؛ ففى الفقه والأصول ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب "الإبطال" الذى بسط فيه أبو محمد دقائق المذهب الظاهرى. وله أيضا كتاب "المحلى" الذى جمع فيه آراءه ومذهبه الظاهرى مقارنا إياه بالمذاهب الأخرى.

وفى تاريخ الأديان خلف كتابه المشهور **"الفصل فى الملل والأهواء والنحل"**. وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها.

وفى التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب. ومن ذلك: كتاب **"جمهرة أنساب العرب"** و**"نقط العروس"** تحدث فيه عن تاريخ بنى أمية فى الأندلس.

وله أيضا رسالته المشهورة فى **"بيان فضل الأندلس وذكر علمائه"**، والرسالة تعتبر ثبتا لما ألف الأندلسيون فى مختلف العلوم، ولمن بلغ منهم فى شتى الفنون حتى أيام ابن حزم، وله فى الفكر السياسى كتاب "الإمامة والخلافة" أو الرسالة اللازمة لأولى الأمر وأما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعا كتاب "طوق الحمامة".

ب- وأما ابن حَيَّان فهو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان[2]، عمدة المؤرخين الأندلسيين يتصل نسبه بجد كان مولى لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس. وكان أبوه من كتاب المنصور بن أبى عامر، ومن المعروفين بالعلم والأدب فى فترة الحجابة.

---

(١) اقرأ سيرته وبعض أخباره فى: الذخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ص ١٤٠ وما بعدها، وفى جذوة المقتبس للحميدى (ترجمة رقم ٧٠٨)، وفى بغية الملتمس للضبى (ترجمة رقم ١٢٠٤)، وفى الصلة لابن بشكوال ص ٤١٥-٤١٧، وفى معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٣٥ وما بعدها، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢٨ وما بعدها وراجع عن دور ابن حزم فى علوم الفقه والتاريخ والفكر الإسلامى - راجع رسالة الدكتوراه (من تأليفنا - مذكورة من قبل) المجلد الثانى ص ٧٥٠-٧٥٥، ص ٨٤٦-٨٤٨.

(٢) انظر ترجمته وبعض أخباره وآثاره فى : الصلة لابن بشكوال ص ١٥٣-١٥٤، وفى : جذوة المقتبس للحميدى (رقم ٣٩٧). وفى: بغية الملتمس للضبى ص ٢٧٥. وفى /: الذخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الثانى ص ٥٧٣-٦٠٢ وما بعدها. وفى : المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١١٧. وفيات الأعيان ٢/٢١٨-٢١٩.

وقد ولد ابن حيان بقرطبة سنة ٣٧٧هـ، ونشأ فى بيت علم وأدب، ودرس على أبيه خلف بن حسين، وعلى غيره من علماء العصر حتى نضجت ثقافته. ويبدو أنه كان يؤثر الأدب والتاريخ على غيرهما من فروع الثقافة.

وقد تقلد ابن حيان بعض المناصب الإدارية والفنية، فكان صاحب الشرطة، أو صاحب المدينة فى قرطبة حينا، كما عمل فى ديوان الإنشاء لبعض رؤسائها حينا آخر. ولكن نشاطه الأكبر كان منصرفا إلى كتابة التاريخ.وألف فيه عددا من الكتب، ضاع أكثرها وبقى أقلها. ومن الكتب التى صحت نسبتها إليه كتاب "**المآثر العامرية**" وهو فى تاريخ الدولة العامرية فى الأندلس، وكتاب "**تاريخ فقهاء قرطبة**"، وكتاب "**المقتبس فى تاريخ الأندلس**"، وكتاب "**المتين**". ولم يبق من هذه الكتب جميعا إلا أجزاء من "المقتبس"، وفقرات من "المتين".

ويقع "المقتبس" فى عشرة أجزاء، ويتناول تاريخ الأندلس من أيام فتحها إلى زمن المؤلف، أما "المتين" فقد كان يقع فى ستين مجلدا، ولذا سمى "بالتاريخ الكبير"، وكل ما حفظ من هذا التاريخ الكبير فقرات رواها بعض المؤرخين الذين اتوا بعد ابن حيان وأفادوا من كتبه، كابن بسام وابن الخطيب والمقرى.

والذى يمكن استنباطه مما بقى من تراث ابن حيان، أنه كان مؤرخا واسع المعرفة دقيق الرواية نافذ البصيرة، كما كان يميل إلى التحليل والتعليل والنقد فيما يعوض من أخبار؛ فقد كان له رأيه – غالبا – فى الأحداث والأشخاص، وكان هذا الرأى على كثير من الانفعال والحدة، بل على كثير من القسوة فى كثير من الأحايين. وإذا ذكرنا الظروف القاسية التى عاش فيها ابن حيان أيام الفتنة عرفنا سبب انفعاله وحدته وقسوته فى حكمه على العصر[١].

***

(١) للأستاذ الدكتور محمود على مكى دراسة مستفيضة قدم بها تحقيقه لقطعة من كتاب المقتبس لابن حيان وهى من أحسن ما كتب عن منهج ابن حيان فى كتابة التاريخ وحياته العلمية والوظيفية

الفصل الخامس

عصر ملوك الطوائف

(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٠٩-١٠٩١م)

دول ملوك الطوائف

نتج عن سقوط الدولة الأموية، أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة، واستقل كل أمير بناحيته، وأعلن نفسه ملكا عليهاً فدخلت البلاد بذلك فى عصر جديد هـو (عصر ملوك الطوائف)، ويسمى أيضا (عصر الفرق). ويشير ابن سعيد المغربى إلـى أن بعض هؤلاء الملوك خطب للخلفاء الأمويين وإن لم يبق لهم خلافة وأن بعضا آخر خطـب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم (١).

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منـها على بسط سلطانه على الأندلس:

الحزب الأول: ويمثله أهل الأندلس، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديـم والذين تأسبنوا أو انصهروا فى البوتقة الإسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين، بغـض النظر عن أصلهم العربى أو المغربى أو الصقليى أو الإسبانى المسيحى. وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة.

وكان من زعمائهم "بنو عياد اللخميون" فى (إشبيلية) و"بنو جهور" فى (قرطبـة) و"بنو هود الجذاميون" فى (الثغر الأعلى) سرقسطة، و"بنو صمادح" أو "بنو تجيـب" فـى (المرية)، وبنو "برزال" فى (قَرْمُونة)، و"بنو خزرون" فى (أركش)، و"بنـو نـوح" فـى (مَوْرُور) وعبد العزيز بن أبى عامر فى (بَلَنسِية)... الخ.

أما الحزب الثانى: يمثله المغاربة أو البربر الحديثو العهد بـالأندلس، ولا سـيما الصناهجة الذين استقروا بها فى أيام المنصور بن أبى عامر. ومن زعماء هـذا الحـزب "بنو زيرى" الصنهاجيون فى (غرناطة) وهم فرع من بنى زيرى حكام الدولة الزيرية فـى إفريقية على عهد الفاطميين، وكذلك بنو حمود الأدارسة الحسنيون العلويون، وهـم مـن سلالة الأمير أبى حفص عمر بن إدريس الثانى الذى كان يحكم بلاد (غمارة) فى شـمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط.

---

(١) راجع: المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٢١٣.

وفى خلال الفتنة التى عمت بالأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتهز أمير من سلالة الأمير أبى حفص عمر وهو "على بن حمود" وكان واليا على (طنجة) و(سبتة)، فاستولى على (مالقة) ثمَ تقدم إلى (قرطبة) وقتل صاحبها الخليفة الأموى سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن "الملقب بالمستعين" وذلك فى (سنة ٤٠٧هـ) وأسس دولة الحموديين التى كانت قاعدتها (مالقة) وقد ذكرنا ذلك من قبل فى سياق الحديث عن الفتنة التى أدت إلى سقوط الخلافة الأموية[١] . ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا بحكم استقرارهم بين البربر فى المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربرى.

أما الحزب الثالث: يمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس. وقد شارك هؤلاء الصقالبة[٢] فى المؤامرات التى قامت فى قرطبة وسائر البلاد وتزعمهم (خيران العامرى) رئيس حزب الصقالبة فى العاصمة. وبعد سقوط الدولة الأموية، تكونت من هذا الحزب الدويلات الإسلامية الصغيرة التى قامت فى شرق الأندلس، والتى كانت تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية، لأن أصحابها كانوا من مماليك المنصور ابن أبى عامر وأبنائه، ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا فى هذه المنطقة نذكر (مجاهد العامرى) الذى استقل بدانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة (سردانية) وسواحل "إيطاليا" وسيطرت أساطيله على غربى حوض البحر المتوسط[٣].

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكه بسياج شرعى روحى ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره.

فبنو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول، جاءوا بشخص فقير يسمى "خلف الحصرى" كان يعمل حصريا فى مصنع للحلفا، وكان شديد الشبه بالخليفة الأموى "هشام المؤيد" المشكوك فى موته، فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمنا إلى أن أظهر موته المعتضد بن عباد ونعاه إلى رعيته سنة (٤٥٥هـ) واستظهر بعهد عهده له الخليفة هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جزيرة الأندلس[٤].

---

(١) راجع عن ذلك (ص ١٣٧).

(٢) راجع حديثنا عن الصقالبة فى مبحث عناصر السكان (ص ٣٤-٣٥).

(٣) أحمد مختار العبادى: الصقالبة فى إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ص ١٩٥٣).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأندلس) ص ١٧٩- ١٨٠، عبد الواحد المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦ (نشر سعيد العريان ومحمد العربى العلمى).

أما الحزب المغربى فى الأندلس: فقد تزعمته خلافة بنى حمود مستندة إلى أصلها العلوى الشريف. ولا شك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودى يعرف بصاحب البربر، وهو يقابل صاحب الجماعة فى الحزب الأول. على أن نفوذ بنى حمود فى الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت، إلا أنه كان قاصراً على منطقة (مالقة) و(الجزيرة الخضراء) أى فى الجزء الجنوبى من الأندلس المجاور لمملكاتهم فى شمال المغرب ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم، وصار كل واحد فيهم يدعى الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب "خليفة" مثل المهدى والعالى والمستعلى والسامى والمتأيد[1].

ولم يلبث نفوذ بنى حمود أن انتهى فى الأندلس بأن استولى بنو زيرى ملوك غرناطة على (مالقة)، كما استولى بنو عباد على (الجزيرة الخضراء) فانتهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلى فى العدوة المغربية.

أما الفريق الثالث وهو الحزب الصقلبى، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة فى مملكته، ونذكر على سبيل المثال (أبا الجيش مجاهد العامرى الصقلبى) الذى أقام فى مملكته بدانية والجزر الشرقية من مملكته، خليفة قرشياً من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطى، ولقبه بالمنتصر بالله، وأثبت اسمه فى سكته (أى فى العملة)، وأعلامه سنة (٤٠٥هـ). ولكنه سرعان ما عزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تآمر ضده أثناء غيابه فى غزو جزيرة (سردانيا). وقد لجأ المعيطى إلى مدينة (بجاية) بالمغرب الأوسط حيث اشتغل معلماً لصبيان البربر إلى أن مات سنة (٤٣٢هـ)[2].

وهكذا نجد أن الخلافة فى الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها بقرب المسافات بينها، وهذا يعتبر مظهراً من مظاهر الفوضى وعاملاً من عوامل الفتنة فى تلك الفترة. وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين كانوا قد أجازوا تعدد الخلافة للضرورة والمصلحة وهى اتساع رقعة الإسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه، إلا أنهم اشترطوا فى ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعاً للتصادم والتشاحن، ولحماية المسلمين من شرور الفتنة، ولكننا نرى أن الأندلس فى هذه

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٦٣-٠ ٦٨، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٩.

(٢) راجع: ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٢٠ أحمد مختار العبادى: الصقالبة فى إسبانيا (مدريد ١٥٣).

الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعى لأنها أجازت العقد لخلفاء عديدين فى صقع متضايق الأقطار، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب، ولعل خير تعقيب على ذلك قول أبى محمد ابن حزم فى هذا الصدد : ((اجتمع عندنا بالأندلس فى صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه، وتلك فضيحة لم يرى مثلها، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين وهو: خلف الحصرى بإشبيلية (على أنه هشام) من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام وشهد له خصيان ونسوان، وخطب له على منابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله. ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس خليفة لمالقة. وإدريس بن يحيى بن على ببشتر))[1].

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفيين قد عمدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين فى حياتهم وفى ألقابهم ونعرتهم الخلافية، وفى ذلك يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيروانى :

مما يُزَهِّدنى فى أرض أندلسٍ   أسماءُ مُعتَمِدٍ فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهِرِّ يحكى انتفاخًا صُورةَ الأَسدِ[2]

علاقة الممالك النصرانية بملوك الطوائف:

وبينما كانت الأندلس تعانى من هذا الضعف السياسى والاجتماعى تحت حكم ملوك الطوائف، إذا بدول إسبانيا المسيحية فى الشمال تعمل على توحيد قواها بمساندة فرنسا والبابوية. وتجدر الملاحظة هنا أن الخلافة الأموية فى الأندلس كانت طوال عهدها بمثابة الحاجز المنيع الذى يسد أبواب (جبال البرتات) فى وجه أى تدخل أوربى يأتيها من هذه النواحى الشمالية. فلما زالت الدولة الأموية، زال هذا الحاجز، وأخذ النفوذ الفرنسى بشتى صوره وأشكاله السياسية والثقافية والدينية يتغلغل فى شمال إسبانيا باعثا فيها روحا صليبية جديدة ضد المسلمين.

ومن تقدير الله عز وجل فى ذلك الوقت أنه كان يحكم إسبانيا المسيحية رجل واسع الطموح والأطماع، وهو الملك ألفونسو السادس ملك (قشتالة) الذى نجح فى توحيد مملكتى (قشتالة) و(ليون) وبسط نفوذه على الممالك الإسبانية الشمالية ثم توج مجده

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤٢- ١٤٣.

(٢) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٢١٤ ابن الخطيب: المرجع السابق ص ١٤٤.

الحربى باحتلال (طليطلة) قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين (سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، رغم تميزها بموقع مرتفع يصعب على المرء ارتقاؤه، ولكن سياسة الضعف التى أتبعها أميرها يحى (القادر) بن ذى النون قد عجلت بسقوطها[١]. ولم يلبث خط وادى نهر التاجو بما فيه من مدن وقرى وضياع أن انهار بانهيار قاعدته الرئيسية، إذ كانت مملكة (طليطلة) تحتل رقعة شاسعة فى قلب الأندلس على طول وادى التاجو من الشرق إلى الغرب، ومن اهم أعمالها مدينة (سالم) و(وادى الحجارة) و(مجريط) و(قُونكة) و(قليش) و(طلبيرة) وغيرها، وتتوسط هذه المساحة الشاسعة العاصمة طليطلة على ربوة مرتفعة. ونظراً لمتاخمة حدود هذه المملكة بالحدود الإسبانية، فقد اعتبرها المسلمون ثغراً أدنى للدولة الإسلامية الأندلسية على اعتبار أن مملكة سرقسطة التى تقع فى شمالها على وادى الإبرو هى الثغر الأعلى، ولهذا كان سقوط مدينة طليطلة فى يد الإسبان كارثة كبرى للإسلام فى الأندلس، إذ احتل العدو هذه الأراضى الشاسعة التى امتدت جنوباً حتى جبال قرطبة، وقد أطلق الإسبان على هذه المنطقة الجديدة المحتلة اسم (قشتالة الجديدة) وبذلك تمزقت بلاد المسلمين وانشطرت إلى قسمين. وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الشاعر الطليطلى أبو محمد عبد الله بن فرج بن عزنون اليحصبى المعروف بابن العسال بقوله:

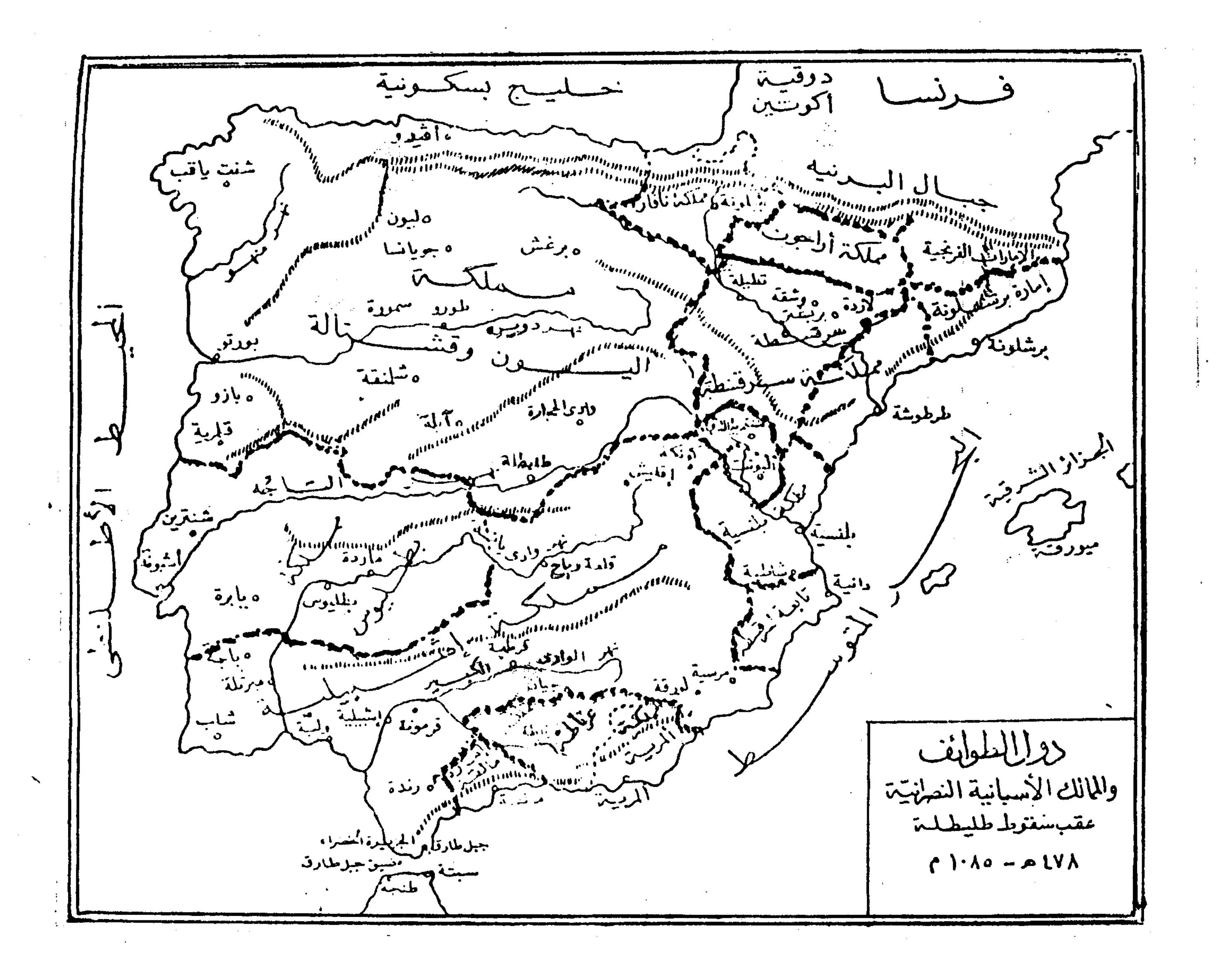
شُدُّوا رواحِلَكم يـا أهـلَ أندلـس ... فما المقـام بـها إلا مـن الغلَـط

الثوبُ ينسل مـن أطرافـه وأرى ... ثَوْبَ الجزيرة منسولٌ من الوسطِ[٢]

ولم يحاول الملك ألفونسو السادس وهو فى نشوة النصر أن يستمع إلى نصائح مستشاريه المستعربين الذين كانوا يؤمنون بالحضارة الأندلسية، ويرون فى الأندلسيين جيراناً لهم وحاولوا إقناعه بضرورة اتباع سياسة متسامحة تقوم على التعايش السلمى مع جيرانهم، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وأخذ الملك ألفونسو السادس فى الوقت نفسه يستجيب لآراء مستشاريه الفرنسيين الذين حلوا فى بلاده وانقاد لسياستهم التى كانت تهدف إلى القضاء على المسلمين فى جميع شبه جزيرة إيبيريا، وانقاد الملك ألفونسو السادس لسياسة هذا الفريق الفرنسى، فسارع بجيوشه نحو مدينة (سَرَقُسْطة) قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين وحاصرها بغية الاستيلاء عليها، وفى الوقت نفسه أخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض، ويغير على أراضيهم ويطالبهم بالأموال كى يضعفهم حربياً واقتصادياً،

(١) راجع عن سقوط طليطلة : أعمال الأعلام ص ١٨١.

(٢) راجع ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١١٨.


دول الطوائف
والممالك الأسبانية النصرانية
عقب سقوط طليطلة
٤٧٨هـ - ١٠٨٥م
فرنسا
دوقية أكوتين
خليج بسكونية
جبال البرنيه
شنت ياقب
أقيدو
ليون
جويانا
برغش
مملكة قشتالة
سمورة
بورتو
شلنقة
بازو
قلمرية
وادي الحجارة
طليطلة
التاجة
شنترين
الأشبونة
ماردة
بطليوس
يابرة
باجة
مرتلة
شلب
ولبة
اشبيلية
قرمونة
قرطبة
رندة
المرية
مرسية
لورقة
شاطبة
بلنسية
دانية
مملكة أراجون
الإمارات الفرنجية
إمارة برشلونة
برشلونة
طرطوشة
تطيلة
وشقة
لاردة
سرقسطة
مملكة سرقسطة
ميورقة
الجزائر الشرقية
المتوسط
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة

وبلغت الحالة فى الأندلس فى ذلك الوقت أقصى درجات الضعف والفساد حتى خيل لبعض الأندلسيين أن العالم على وشك الزوال وأن الزمان على آخره[1].

الملامح العامة لعصر الطوائف:

(١) إن أهم خاصية يمكن أن يوصف بها عصر ملوك الطوائف من الناحية السياسية والإجتماعية – وهو عصر فياض بالأحداث والمحن الكثيرة– أنه **عصر تفكك وإنحلال سياسى واجتماعى شامل** بالرغم مما كلن يبدو فى بعض فى ناحيه من جوانب براقة. وقد صدر للمؤرخ الكبير والفقيه الأندلسى الظاهرى ابن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) – وهو شاهد على العصر– صدر له عن فتنة الطوائف ودولها وأمرائها المستهترين ومجتمعها المفكك طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت فى رسالته **(التلخيص لوجوه التخليص)**، وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة فى شؤون دينية وفقهية وجهت إليه، ومنها سؤال يتعلق بالفتنة، وتتضمن أقواله من النظرات الثاقبة والأحكام القاطعة ما يدين مجتمع الطوائف بشدة، وهى مع سلامة منطقها وعدالتها مما يبعث فى النفس أشد أنواع الأسى – ونقتبس من هذه الرسالة قوله الذى يصف فيه فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها: ((وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء، أهلكت الأديان – إلا من وقى الله تعالى – من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه – أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع فى الأرض بفساد. والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملكَ من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطْعَ الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية، والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرَّهم، الناصرون لهم على فسقهم))[2].

---

(١) راجع العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٥-٢٨٤.

(٢) مجموعة رسائل لابن حزم بعنوان "الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى" (ط القاهرة ١٩٦٠) ص ١٣٩. وراجع: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس (دول الطوائف) ٣/٤١٨-٤٢٠.

(٢) ومن السمات التى اتسم بها عصر ملوك الطوائف أن هذه التجمعات أو "الدويلات" لم تسترشد (فى أغلب أحوالها) – سواء فى علاقات ببعضها البعض أو فى علاقاتها مع رعاياها – بسياسة إسلامية تقوم على رفع شأن الإسلام وتوسيع نفوذه، ومحاربة الممالك المسيحية فى الشمال، والتضحية بالأهداف الثانوية تجاه هذا الهدف السامى الذى عاش له أمراء وخلفاء بنى أمية. كما أن ملوك الطوائف لم يقيموا سياستهم على أساس التعايش بين بعضهم البعض، والاحتفاظ بالأمر الواقع والمحافظة عليه. والذى حدث أن التفاوت بين هذه الممالك – من حيث القوة والضعف، واشتداد الأَثَرَة والأطماع الشخصية، وحب الرياسة عند الجميع واشتداد الخطر النصرانى المطل عليهم من الشمال – جعل الدويلات القوية تبطش بالضعيفة، وتجبرها على الانضواء تحت سلطانها، متحالفة أو مقهورة؛ ذلك أنه لم يكن هناك إلا طريقة واحدة بنى عليها ملوك الطوائف سياستهم وهى التوسع على حساب القوى المجاورة بكل الوسائل، سواء كان ذلك عن طريق الحرب أو تدبير الفتن أو المعاهدات.

وكان لطبيعة هذه الطوائف أثر كبير فى اتباع تلك السياسة، فهى فى الواقع لم تكن دولاً بالمعنى المعروف، وإنما كانت أقرب منها إلى وحدات الإقطاع، وإلى عصبية الأسرة القوية أو الجماعة القبلية، ومن ثَـمَّ لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح تكون مهمتها العمل لخير رعاياها وحفظ البلاد من الأخطار التى تهددها، إنما كانت أسرات أو زعامات تعمل قبل كل شئ لمصلحتها الخاصة، ولرفعة شأنها، وتدعيم سلطانها[1].

(٣) وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة سياسياً واجتماعياً فإنه مما يلفت النظر أن تزدهر العلوم، وترتقى الآداب والفنون فى عصر ملوك الطوائف؛ لأن كثيراً من هؤلاء الملوك والرؤساء كانوا من العلماء والأدباء والشعراء، وكانت قصورهم مجامع للعلوم والآداب، وكلها تزهو لا بفخامتها وروعتها بل بأمرائها ووزرائها وكتابها، وقد بلغ الشعر الأندلسى فى زمن ملوك الطوائف شأواً لم يصل إليه فى أى عصر آخر . وقد تميزت

(١) راجع: أعمال الأعلام (القسم الأندلسى) ص ١٤٤. وراجع: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

قصور ثلاثة بصفة خاصة بمشاركتها فى النهضة الأدبية والشعرية، وهى قصور بنى عبَّاد بأشبيلية، وبنى الأفطس فى (بَطَلْيَوس) وبنى صُمادِح فى (ألمرية).

وعرف هذا العصر مجموعة من العلماء الكبار الذين وصلوا إلى القمة من حيث النضج الفكرى والمستوى العلمى ، نذكر منهم:

- الفقيه الظاهرى ابن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ /١٠٦٣م). وقد أشرنا إليه فى فترة الفتنة التى آلت إلى سقوط الخلافة الأموية، على اعتبار أنه عاش بدايات هذه الفتنة[١].
- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (المتوفى ٤٧٤ هـ /١٠٨١م)، وهو من كبار علماء المالكية. له من الكتب: " إحكام الأصول فى أحكام الفصول" و "الحدود فى أصول الفقه[٢]".
- أبو الحسن على بن اسماعيل المرسى المعروف بابن سيده (بكسر السين) (المتوفى ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م). عالم لغوى كبير، ألف كتاب (المُحكَم والمحيط الأعظم)، وهو معجم لغوى ينتمى إلى مدرسة (الخليل بن أحمد الفراهيدى البصرى) فى طريقة تأليف المعاجم اللغوية[٣].
- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبى (المتوفى ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) العالم الموسوعى الذى صنف كتباً جليلة فى كثير من فروع العلم، منها: (الدرر فى اختصار المغازى والسير)- فى السيرة النبوية_ وكتاب" الاستيعاب فى معرفة الأصحاب". وكتب أخرى كثيرة فى الحديث والفقه[٤].
- الوزير أبو عبيد البكرى (المتوفى ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) أكبر جغرافى أنجبه الأندلس، وهو من علماء اللغة والأدب والمعرفة بالأخبار والأنساب والصيدلة والنبات والجغرافيا ومن أشهر كتبه" معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" وكتاب "المسالك والممالك"[٥].

---

(١) وراجع عن ابن حزم رسالة الدكتوراة من تأليفنا، وموضوعها (الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين) – القسم الثانى ص ٧٥١-٧٥٣.

(٢) الديباج المذهب لابن فرحون ٣٨٤/١ (ط دار النصر ، القاهرة).

(٣) بغية الملتمس للضبى ص ٤١٨، الصلة لابن بشكوال ص ٤١٧-٤١٨، نفح الطيب ع (٢٥-٢٧).

(٤) بغية الملتمس ص ٤٩٠، جذوة المقتبس للحميدى ٥٨٧/٢.

(٥) راجع ما ذكرناه عن هذين الكتابين فى رسالة الدكتوراة المذكورة (من تأليفنا) (ص ٨٥٦-٨٥٨).

- ومن أكابر الفلكيين والرياضيين الذين برزوا فى عصر الطوائف وأفادت أوروبا من بحوثهم: أبو إسحق يحى النقاش القرطبى المعروف بالزَّرْقالى (المتوفى حدود سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧م). يقول عنه المستشرق الإسبانى جُنثالث بالنثيا:" إنه يعتبر أعظم أهل الفلك من العرب". وهو الذى صمم الآلة الفلكية التى كانت تعرف باسم "نموذج العبَّادى" نسبة إلى المعتمد ابن عباد ملك (إشبيلية).وكان الزرقالى قد لجأ إليه بعد سقوط طليطلة. ومن مؤلفاته: (الزيج الطليطلى)، وهو عبارة عن جداول فلكية، وترجم إلى اللاتينية، واتخذ منه علماء أوربا أساساً لإعداد تقاويمهم الفلكية فى القرن السادس عشر الميلادى(١).

وهناك علماء كثيرون من أهل هذا العصر يطول المقام بذكرهم وجميعهم من الرجالات الأفذاذ الذين أثروا الفكر الإسلامى خاصة والفكر الإنسانى عامة، ووصل التأليف العلمى على أيديهم إلى ذروته فى شتى ضروب العلم والمعرفة .

وكما ارتقت العلوم والآداب ازدهرت الفنون والصناعات فى عهد ملوك الطوائف، وإذا كان يعرف عن أهل الأندلس اهتمامهم بكل ما يتعلق بتربية الماشية، وفلاحة الأرض ، وتنظيم الرى وأحوال الجو، وخواص النباتات وإنشاء الحدائق فإنه ينبغى الإشارة إلى ظهور عدد من علماء النبات والزراعة فى عهد ملوك الطوائف، لاسيما فى طليطلة وأشبيلية، منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن وافد اللخمى (ت ٤٦٧ هـ)، وأبو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البصَّال الذى عاش فى طليطلة إلى أن احتلها ألفونسو السادس سنة (٤٧٨ هـ) فانتقل إلى أشبيلية. وقد صنف كتاب (الفلاحة)، وهو كتاب يمتاز عن سائر المؤلفات الأندلسية فى الزراعة بكونه مبنياً على التجربة والمشاهدة إلى أقصى حد ممكن(٢).

وكانت الصناعات رائجة خلال عصر الطوائف ، وكان فى (ألمرية) وحدها خمسة آلاف مصنع تنتج أجمل أنواع الأقمشة وأفخمها، وكانت السفن تأتى من بلاد المشرق ومن الثغور الإيطالية إلى الموانئ الأندلسية فى (إشبيلية) و(ألمرية)و و(بلنسية) و(دانة) و(سرقسطة) تحمل بضائع المشرق، وتعود محملة بما تستورده من السلع الأندلسية، وكانت التجارة الخارجية مصدراً مهماً من مصادر دخل دول الطوائف ذات الثغور.

---

(١) راجع تفاصيل أخرى فى رسالتنا المذكورة (ص ٨٧٨-٨٨٠).

(٢) جعفر الخياط: ابن البصال رائد الفن الزراعى الحديث (بحث منشور بمجلة المعهد العلمى العراقى - المجلد (١٥) (سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م) - ص ٢١٦. وراجع نفح الطيب للمقرى ١٠٤/٢.

الفصل السادس

الأندلس في ظل المرابطين

(٤٨٤- ٥٢٠هـ / ١٠٢٩- ١١٣٤م)

المرابطون في المغرب:

قام المرابطون في المغرب الأقصى يدعون إلى تأكيد التمسك بالإسلام. وتجديد جريان الحياة في تياره وإشباعها بروحه واتخاذه دستوراً شاملاً يحكم حياة الإنسان في كل أحوالها. وامتدت حركتهم حتى أقامت دولة شملت مناطق كثيرة في المغرب الكبير، وانضوت الأندلس تحت جناحها، وعمرت دولتهم نحو مائة عام.

ويرجع تأسيس الدعوة والدولة المرابطية إلى قبيلة (لمتونة)، إحدى بطون صنهاجة من (البُرانس). (واحدة كبرى قبيلتين: البرانس والبُتْر اللتين يتكون منهما البربر وعموم سكان الشمال الإفريقي). لذا تسمى الدولة المرابطية أيضاً بالدولة "اللمتونية" و"اللمتونيين". ولاتخاذ لمتونة اللثام سمُّو "بالمُلَثَّمين"، أو "المُلَثَّمة". والملثم إشارة لأحد حكامها[1].

وتعود أوّلية هذه الدولة إلى يحى بن إبراهيم الجدالي أمير جدالة (كدالة) شقيقة (لمتونة) وبطن أخرى لصنهاجة. وقد توجه يحيى في جماعة إلى الحج، مستخلفاً ابنه إبراهيم، وعرجوا في عودتهم على القيروان للاستماع إلى بعض علمائها سنة ٤٤٠هـ، واتصلوا هناك بأبي عمران موسى الفاسي: موسى بن عيسى بن أبي حاج (٣٦٨- ٤٣٠هـ). شيخ المذهب المالكي[2]، وطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يفقههم في الدين، لانقطاعهم في الصحراء. فأرسل معهم عبد الله بن ياسين الجَزُولي (٤٥٠هـ)[3]. وصحبهم إلى بلادهم وبدأ يفقه الناس في دينهم ويعلمهم شريعة ربهم. وقد أقام ابن ياسين رباطاً،

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبّار، ٢/٢٥٠؛ المغرب في حلى المغرب، ٢/٤٦٧، التكملة لابن الأبار ١/٤٣٩، ٤٤٧.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأبي العباس أحمد الناصري، ٢/٦، والبيان المغرب ٣/٢٤٢، ٤/٧-٩ وانظر ترجمة موسى بن عيسى بن أبي حاج في الصلة، ٦١١-٦١٢ (رقم: ١٣٣٧)؛ ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣/٧٥٢.

(٣) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ص ١٠٤ – ١٠٥، ترتيب المدارك ٣/٧٨٠-٧٨٢.

والتف حوله جماعة انقادت له، مستوعبة هذا الفهم ومخلصة له ، وبلغ عددهم حوالى ألف رجل فأطلق عليهم اسم "المرابطون" . وكان ممن التف حول عبد الله بن ياسين زعيم قبيلة "لمتونة" يحيى بن عمر بن إبراهيم ، الذى توفى سنة (٤٤٦ أو ٤٤٧هـ)[١] فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر فى السنة الثانية. وكان - كأخيه - مثال الإخلاص والتضحية.

وحين بدأت العقبات فى وجه هذه الدعوة ، دافعوا عنها فى وجه كل من وقف فى طريقها يهددها. وانطلق من رباط ابن ياسين تيارها قوياً، ثم أقاموا تلك الدولة[٢].وشرع أبو بكر بن عمر فى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للدولة الجديدة، فبنى مدينة "مرّاكش" (سنة ٤٦١هـ/١٠٦٩م) وفى أثناء ذلك حدث خلاف بين بعض قبائل صنهاجة (بين لمتونة وجدالة)(سنة ٤٦٣ هـ) أو (٤٥٣هـ) فدُعِى أبو بكر عمر من أجل حَسْمه، وأوكل الرياسة وإدارة الدولة خلال غيابه لابن عمه يوسف بن تاشُفين. فأدارها بمقدرة ومهارة، الأمر الذى أكسبه مهارة عالية، وعرف كرجل دولة. بجانب شهرته العسكرية التى ظهرت فى المهام التى كلفه أبو بكر بن عمر بها .

وحين عاد أبو بكر بن عمر ورأى حال الدولة وما يتمتع به يوسف من مكانة، وما حازه من توفيق؛ تنازل ليوسف، فقاد الدعوة المرابطية من ذلك الحين، ومكّن لها من إنشاء الدولة الكبرى فى المغرب أولاً[٣]، ثم إنقاذ ما بقى للإسلام فى الأندلس بعد ذلك، واستمر حكمه بين سنتى (٤٦٣-٥٠٠هـ/١٠٧٠- ١١٠٦م)[٤].

---

(١) الاستقصا ١٣/٢.

(٢) البيان المغرب ٩/٤-١٧، ٢٠-٢١ ج ٣ ص ٢٤٣، الاستقصا ج٢ ص ٢١.

(٣) البيان المغرب ٢٤/٤ وراجع : دول الطوائف ٢٩٩ وبعدها، عصر المرابطين والموحدين ٣٧/١-٣٨ (كلاهما لمحمد عبد الله عنان، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٤١٩-٤٢٠.)

(٤) حكام المرابطين هم:

١- يحيى بن عمر (٤٤٦هـ/١٠٥٤م).

٢- أبو بكر بن عمر

٣- يوسف بن تاشفين (٤٦٣هـ - ٥٠٠هـ/ ١٠٧٠-١١٠٦م).

٤- على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧هـ/١١٠٦-١١٤٣م).

٥- تاشفين بن على (٥٣٧-٥٣٩هـ/١١٤٣-١١٤٥م).

٦- إبراهيم بن تاشفين (٥٤١هـ/١١٤٥م خلع).

٧- إسحق بن على بن يوسف (٥٤٢هـ/١١٤٦م) قتله الموحدون.

جهاد المرابطين فى الأندلس:

وكانت حال الأندلس فى العدوة الأخرى تعانى سيطرة ملوك النصارى وسطوتهم واستغاثة ملوك المسلمين بهم، وإرهاق هؤلاء لهم بالجزية وبما يفرضون عليهم، وتعسفهم فى مطالبة الولاه المسلمين بما لا طاقة لهم به، وتكليفهم فوق طاقتهم، وعاد هؤلاء الملوك على شعوبهم فأثقلوا كواهلهم وبالغوا فى تحميلهم ما لا قدرة لهم عليه ، واحتقر ألفونسو السادس وغيره من ملوك النصارى زعماء وقادة المسلمين، حتى جثوا جميعا أمامه يستعطفونه ويرجونه قبول أموالهم وهداياهم، ويصرحون له بأنهم داخل حدود سلطانه، وليسوا إلا جباة أموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزية.

وقد أخذ " ألفونسوا السادس" يجتاح ويخرب مدنهم ومروجهم ويفتح معاقلهم ويحطم حصونهم، ويضرب عليهم جميعا ما يشاء من أموال ويضاعفها فيؤدونها – بلا استثناء– وهم صاغرون، ثم أخذت المدن تتساقط فى أيدى النصارى مدينة إثر مدينة[١] .

وإزاء هذا الوضع المتردى فكر الأندلسيون فى مخرج، ووجد العلماء أن خير وسيلة هى دعوة المرابطين للعبور إلى بلادهم وتخليصهم من الوضع المرير الذى بلغ القمة ولم يعد يحتمل المزيد[٢]. أما الملوك والأمراء فقد ترددوا أول الأمر، ورأوا فى ابن تاشفين مناوئًا خطيرًا أكثر منه عونًا ونصيرًا، وربما جاء إلى بلدهم فاستقر فيها وطردهم منها ، لكن "ابن عباد" صاحب إشبيلية" قطع الشك باليقين قائلاً إنه لا يريد أن تتهمه الأجيال المقبلة بأنه ترك الأندلس غنيمة فى أيدى الكفار وقال: ((ولا أحب أن يلعن اسمي على منابر المسلمين، وعندى أن رعى الجمال خير من رعى الخنازير))[٣].

وقد أقنع المعتمد بن عَبَّاد بوجهة نظره كلا من المتوكل بن الأفطس صاحب (بطليوس) و " عبد الله بن بُلُقِّين " صاحب (غرناطة) ، وأرسلوا جميعًا ومعهم العلماء والفقهاء وفدًا إلى " يوسف بن تاشُفين" يستصرخونه ويطلبون إنقاذهم.

كان من عادة زعيم المرابطين أنه لا يبرم أمرًا إلا بعد مشاورة الفقهاء ، وقد أشاروا عليه أن يبدأ بقتال القشتاليين، وأن تُخْلَى له الجزيرة الخضراء،

---

(١) راجع أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) راجع : البيان المغرب ١٣٢/٤-١٣٣.

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٤٥.

فأمر يوسف بن تاشفين بعض فرسانه فعبروا من مدينة (سبتة) على متن بعض السفن إلى (الجزيرة الخضراء) يقودهم "داود بن عائشة" وكان معهم جيش كثيف من الجنود[1]، وأرسل المعتمد إلى ابنه حاكم الجزيرة يطلب منه تركها وتيسير مهمة قوات المرابطين، ثم تلاحقت الجنود بالجزيرة، وعبر "يوسف" نفسه، وعنى بتحصين المدينة حتى اطمأن إلى أنها قد أصبحت فى حالة حسنة وبها من المؤن والذخائر ما يكفيها، ثم سار فى معظم جيشه إلى "إشبيلية"؛ حيث خرج المعتمد للقائه وأحسن استقباله وقدم له من الهدايا ما يليق بمقامه[2].

وقد طلب ابن تاشفين من أمراء الطوائف المشاركة فى الجهاد، فلبى الدعوة صاحب (غرناطة) وأخوه صاحب (مالقة)، وقصد الجميع نحو (بطليوس) حيث لقيهم ملكها، وأخذت وفود الرؤساء تتوافد من سائر أقطار الأندلس، وانتظمت القوات الأندلسية وحدة قائمة بذاتها، القيادة فيها لابن عباد واحتلت المقدمة، بينما احتلت الجيوش المرابطية المؤخرة.

موقعة الزّلاقة (رجب ٤٧٩هـ/١٠٨٦م):

واصلت القوات الإسلامية سيرها حتى نزلت على سهل فسيح يقع إلى الشمال من مدينة (بطليوس) قرب حدود البرتغال الحالية تسميه المصادر العربية بالزّلاقة.

وحين علم ألفونسو السادس بأخبار هذا الغزو رفع الحصار عن مدينة "سَرَقُسْطة"، وأرسل إلى (سانشُو) ملك (أرغون) يطلب معونته، واستدعى قواته من "بَلَنسيَة"، وجاءه المتطوعون من جنوبى فرنسا وإيطاليا، وتقدم بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين، والتقى بهم فى "الزّلاقة"، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين (فى ١٢ رجب ٤٧٩هـ/١٠٨٦م)، وقد انقضّتْ جموع المرابطين على قوات النصارى فأبادت معظمها، وانتهى ذلك اليوم بنصر حاسم للمسلمين، كانت نتيجته توقف تقدم النصارى وإنقاذ الحكم الإسلامى فى الأندلس من سقوط محقق[3].

وقد استبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بهذا النصر العظيم غير أن وصول نبأ وفاة الأمير أبى بكر بن يوسف بن تاشفين كدر صفو النصر ، وجعل "ابن تاشفين" يقرر

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٦. (٢) البيان المغرب ١٣٣/٤-١٣٤.

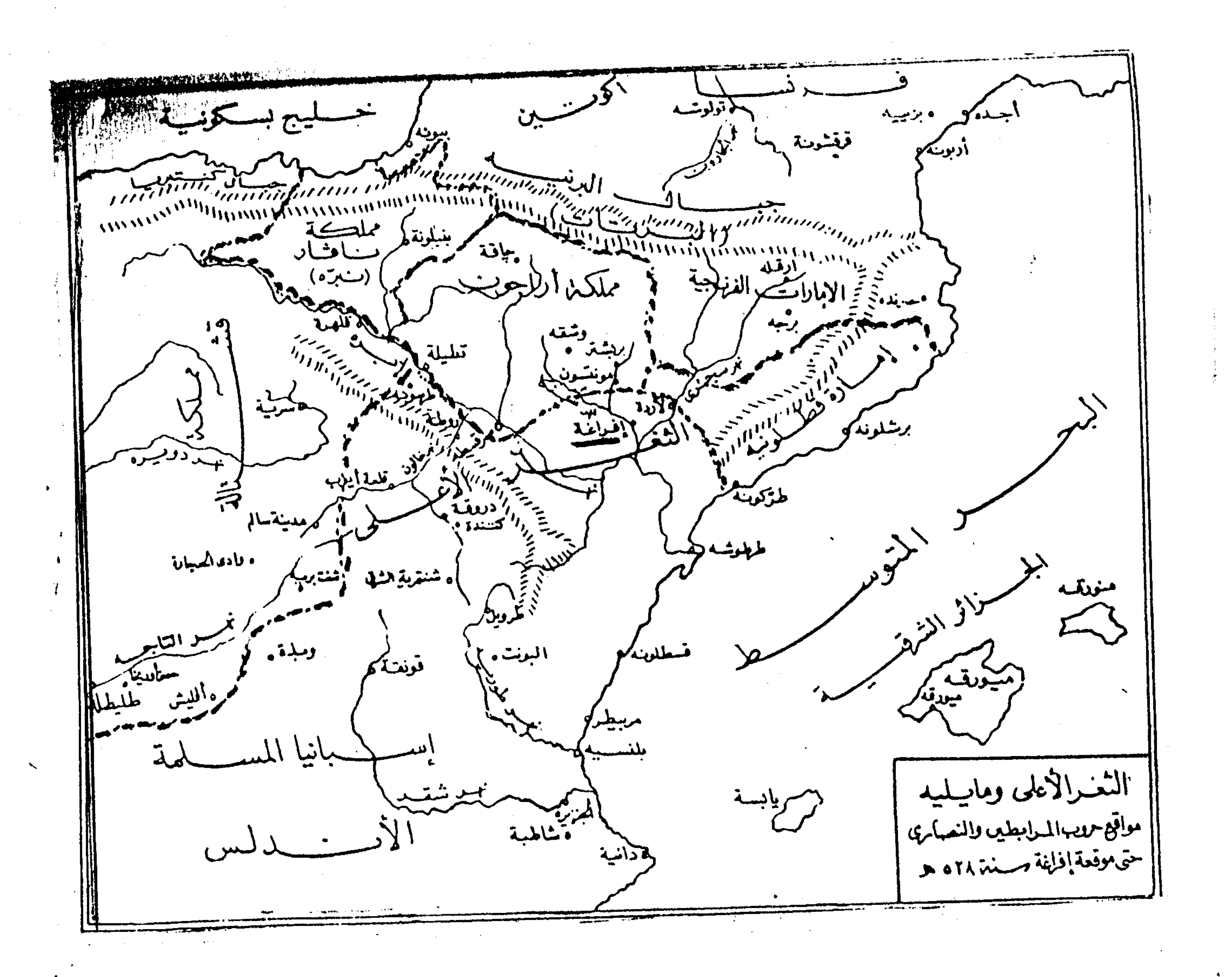
(٣) راجع تفاصيل أحداث المعركة فى البيان المغرب ج ٤ ص ١٣٤-١٤٠.

موقعة الزلاقة

بطليوس

وادي

نهر كايا


الثغر الأعلى وما يليه
مواقع حروب المرابطين والنصارى
حتى موقعة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ
خليج بسكونية
فرنسا
الكونتين
جبال البرنيه
جبال كنتبريا
مملكة نافار
مملكة أراجون
الإمارات الفرنجية
إمارة قطلونية
البحر المتوسط
الجزائر الشرقية
ميورقة
منورقة
يابسة
إسبانيا المسلمة
الأندلس
الثغر الأعلى
إفراغة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
بلنسية
مربيطر
شاطبة
دانية
الجزيرة
قونقة
البونت
قطلونه
مدينة سالم
وادي الحجارة
شنتمرية الشرق
قلعة أيوب
تطيلة
بنبلونة
جاقة
وشقة
لاردة
أربونة
أجدة
تولوشة
قرقشونة
طليطلة
وبذة
نهر التاجه
نهر دويره
نهر شقر
سرقسطة
درقة
كنتندة
منتشون
بربشتر
أرقلة
برجه

العودة إلى بلاد المغرب ومعه عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشاً من المرابطين مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندى. بعد أن نجح "يوسف" بما حققه من نصر مؤزر في إعادة روح الثقة والأمل فى نفوس المسلمين بالأندلس[1].

عودة تاشفين إلى الأندلس وبداية عصر المرابطين بها:

عبر ابن تاشفين مرة أخرى إلى الأندلس فى (رجب ٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، واتجه نحو حصن يسمى حصن "لاييط" وهناك تبين له تخاذل أمراء الطوائف، فعزلهم جميعاً ووحد الأندلس، ولم يستثن من ذلك إلا إمارة سرقسطة، فقد كان أصحابها محاطين بالنصارى من كل ناحية، وخشى ابن تاشفين أن يسلموها للنصارى إذا تعرض لهم فتركهم بدون تدخل[2]، وبهذا العبور الثانى ليوسف بدأ عصر المرابطين فى الأندلس.

وعلى الرغم من قيام المرابطين بمسئولياتهم فى المغربين الأوسط والأقصى فإنه كان من مهامهم الرئيسية الدفاع عن الإسلام فى الأندلس، ففى هذا الميدان جاهدوا وأنفقوا، واستشهد خيرة رجالهم، وعرفوا كيف يثبتون لعدوهم ويوقفون تقدم النصارى، رغم تكتل الأعداء واستعانتهم بملوك غربى أوربا وبالبابوية.

ومن مواقع المرابطين التى أبلوا فيها بلاء حسناً موقعة "أُقليش" شرقى طليطلة، وكان من نتائجها استيلاؤهم على هذه المدينة (سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م)، وعلى مدينة (طلبيرة) للمرة الثانية سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م)[3]. كما تمكنت البحرية المرابطية فى سنة (٥٠٩هـ/١١١٥م) من استعادة جزر البليار (الجزر الشرقية)، ولو بقيت هذه الجزر بيد النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله[4].

وهذا لا يعنى أن المرابطين خلت أيامهم من الهزائم، فقد تعرضوا لنكبة عند بلدة (كُتُنْدة) القريبة من سرقسطة فى (ربيع الأول ٥١٤هـ/١١٢٠م)، واستشهد منهم ألوف من بينهم بعض العلماء، بسبب تسرعهم فى الهجوم على العدو قبل أن تنتظم صفوفهم، فاختل

---

(١) البيان المغرب ١٤٠/٤.

(٢) البيان ١٤١/٤-١٤٢.

(٣) البيان المغرب ٥٢/٤.

(٤) راجع تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط [ج ٢ / البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس] ص ٢٤٣-٢٤٥ (عصر المرابطين) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٧٦/٤-٧٧.

نظامهم وكانت الهزيمة[1]. لكنهم حققوا نصراً فى موقعة "إفراغة" جنوبى غربى "لاردة" بالثغر الأعلى فى سنة (٥٢٨هـ/١١٣٤م)، يقودهم واحد من كبار رجالهم هو أبو زكريا يحيى بن غانية والى (بلنسية) و(مرسية) وهو من أعظم قادة المرابطين[2]..

وفى الوقت الذى يقوم فيه المرابطون بهذه المجهودات ويحققون أعظم الانتصارات إذ بهم يفاجئون بثورة يقوم بها (المصامدة) بقيادة "محمد بن تومرت" ضدهم فى بلاد المغرب. فكان سبباً فى توقف الجهاد فى الأندلس، وبدأت المدن تتساقط واحدة وراء الأخرى فى أيدى النصارى، بسبب سحب القوات من الأندلس وهى فى أوج انتصاراتها، وشغل المرابطون بالدفاع عن أنفسهم بالمغرب، خاصة بعد وفاة على بن يوسف بن تاشُفين ثالث أمرائهم (سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م)، وزاد الموقف سوءاً قيام بعض الأندلسيين بالثورات ضد المرابطين، وزعمهم أنهم أكثر رقياً وأعظم حضارة من هؤلاء الأفارقة[3].

نظرة عامة على أوضاع الأندلس فى ظل المرابطين[4]:

١- حرص الأمراء المرابطون، ورجال دولتهم على مراعاة قيم الإسلام، والقيام بعبء الجهاد فى سبيل الله، ونصرة إخوانهم فى الأندلس. وتحملوا فى سبيل ذلك بذل الكثير من الأرواح والأموال؛ لأنهم كانوا يواجهون أكبر ملوك أوربا فى القرن الخامس الهجرى، مثل: ألفونسو السادس (ملك قشتالة). وألفونسو الأول (ملك أرجون). وإذا كانت دولة المرابطين دينية عسكرية فى المقام الأول، فإنها نجحت فى تنظيم شئون الأندلس، فكان لهم حاكم عام للأندلس، وقادة يديرون المدن الأخرى تحت قيادته. وكانوا يضطلعون بشئون الإدارة والإصلاح، ويتحرون العدل والدقة فى تولية الولاة وعزلهم إذا قصروا،

---

(١) منهم الفقيه القاضى أبو على الصدفى (٤٥٢-٥١٤هـ) وهو من أهل سرقسطة، وسكن مرسية (الصلة لابن بشكوال ص ١٤٤) ومنهم قاضى المرية أبو عبد الله محمد بن يحى المعروف بابن الفراء (نفح الطيب ٣/١٥٣-١٥٤).

(٢) البيان المغرب ٩١/٤، عصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان ص ١٢٠، ١٢٤، ٤٠٣، ٤٢٥.

(٣) راجع: المسلمون فى الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير) ج ٧ ص ٩٨.

(٤) راجع التفاصيل فى (عصر المرابطين وبداية دولة الموحدين) لمحمد عبد الله عنان ص ٤١٠، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القسم الأندلسى - د. عبد الفتاح فتحى) ص ٢٩٨-٣٠٠.

وأبقوا على منصب القضاء، وجعلوه مستقلاً يتولاه الأندلسيون، وكان للقضاة وللعلماء منزلتهم لديهم ولدى الناس، وكانت آراؤهم يؤخذ بها، ولها مكانة واعتبار[1].

٢- تحرير الناس من مظالم الجباية، وتمتع الناس فى ظلهم بشئ من الاستقرار والرخاء وقد اهتموا ببناء الأساطيل، وتحصين المدن الأندلسية. وواصلوا الاهتمام بالصناعات الموجودة بالأندلس، مثل: صناعة الملابس (كالحُلل)، وغيرها من الستور المكلّلة، وصناعة الديباج. وكذلك الاهتمام بصناعة الآلات النحاسية والحديدية، وغيرها.

٣- وقد كانت قوة الدفع العلمية من العصور السابقة ساعدت على مضى الحركة العلمية والتأليف فى عصر المرابطين. ومن علماء تلك الفترة: ابن بسام الشنترينى (ت٥٤٢هـ) صاحب كتاب (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة)، وخلف بن عبد الملك المعروف بـ ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) صاحب كتاب (الصلة). ومن القضاة والفقهاء العلماء: أبو بكر بن العربى المالكى (٤٦٨-٥٤٢) صاحب كتاب (أحكام القرآن)[2]. والقاضى الفقيه المالكى أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (٤٥٠-٥٢٠هـ) ألف شرحاً على (المدونة) فى الفقه المالكى[3]. وهناك يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى المعروف بـ (ابن الصيرفى) المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، وكان من أعلام العصر المرابطى فى (البلاغة والأدب، والتاريخ) وكان كاتباً، وشاعراً مجيداً، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين ابن على (٥٣٧-٥٣٩هـ). وألف فى تاريخ الأندلس فى العصر المرابطى كتاب (الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية)، وله كتاب آخر بعنوان: (تقصى الأنباء، وسياسة الرؤساء)، وكلاهما مفقود[4]. هذا إلى جانب ظهور عدد من الأطباء وعلماء العلوم الأخرى، مثل: على بن عبد الرحمن الخزرجى الطليطلى (ت ٤٩٩هـ)، وكان من أشهر أطباء قرطبة، وعلى علم بطرق العلاج. وكذلك العلامة الفلكى الطبيب صاحب كتاب (الأدوية المفردة) أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت. (٤٦٠-٥٢٩هـ) وهو من أهل (دانية)[5]. إلى جانب بعض أفراد من أسرة بنى زهر المشهورين بالطب والعلوم الطبيعية، والكيميائية[6].

---

(١) البيان المغرب ٤٦/٤. (٢) له ترجمة فى (الصلة) لابن بشكوال ٥٥٨/٢-٥٥٩.

(٣) الصلة ٥٤٦/٢، الديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة ٤٠٧/٤-٤١٥.

(٥) وفيات الأعيان ٢٤٣/١-٢٤٧. وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٥٠١-٥١٤.

(٦) مثل: أبى مروان عبد الملك بن زهر صاحب كتاب (الاقتصاد فى صلاح الأجساد)، الذى ألفه للأمير أبى إسحاق ابن يوسف بن تاشفين (توفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م) (راجع عيون الأنباء ص ٥٢٠ وبعدها).

الفصل السابع

الأندلس فى ظل الموحدين

(٥٣٩-٦٢٠هـ/ ١١٥١ -١٢٢٣م)

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية إصلاحية تهدف إلى تحقيق وحدة إسلامية شاملة وتصحيح المفاهيم، والعودة بالمسلمين إلى القرآن والسنة، وتجديد قوى الأمة على هذا الأساس(١).

والزعيم الأول للموحدين ومؤسس دولتهم هو أبو عبد الله المهدى محمد بن تُومَرْت (٤٨٥-٥٢٤هـ) وينتسب إلى قبيلة (هَرْغة) من مصمودة (البُرانس) التى تسكن منطقة "السوس" جنوب المغرب. ولما توفى سنة (٥٢٤هـ) تولى بعده عبد المؤمن بن على (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٣٠-١١٦٣م). وفى عهده تم القضاء على دولة المرابطين، واتخذ مدينة "مَراكش" عاصمة لدولته(٢).

جهاد الموحدين فى الأندلس

١- وقد بدأ هذا الخليفة الموحدى عملياته العسكرية فى المغرب والأندلس، إذْ كان من الطبيعى لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالاً عبر المضيق نحو

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ٧٥٣/٢ (تحقيق د. على عبد الواحد وافى).

(٢) قائمة بأسماء الموحدين:

١- محمد بن تومرت (المهدى)

٢- عبد المؤمن بن على الكومى (٥٤٢-٥٥٨هـ/١١٣٠-١١٦٣م).

٣- أبو يعقوب يوسف الأول (٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م).

٤- أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م).

٥- أبو عبد الله محمد (الناصر) (٥٩٥ - ٦١٠هـ).

٦- يوسف الثانى (المستنصر) (٦١٠-٦٢٠هـ/١٢١٣-١٢٢٣م).

٧- أبو محمد عبد الواحد (المخلوع) (٦٢٠-٦٢١هـ/١٢٢٣-١٢٢٤م).

٨- أبو محمد عبد الله (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ/١٢٢٤-١٢٢٧م).

٩- أبو العلاء إدريس (المأمون) (٦٢٦-٦٣٠هـ/١٢٢٩م-١٢٣٢م).

١٠- أبو محمد عبد الواحد (الرشيد) (٦٣٠-٦٤٠هـ/١٢٣٢-١٢٤٢م).

١١- أبو الحسن على (السعيد) (٦٤٠-٦٤٦هـ/١٢٤٢-١٢٤٨م).

١٢- أبو حفص عمر (المرتضى) (٦٤٦-٦٦٥هـ/١٢٤٨-١٢٦٦م).

١٣- أبو العلاء (الواثق) (٦٦٥-٦٦٧هـ / ١٢٦٦- ١٢٦٩م).

الأندلس، وشرقاً عبر المغرب العربى الكبير كى يتم لها توحيد المغرب الإسلامى كله، وتكتيله ضد القوى الصليبية فى البر والبحر(١). ولم تمر سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) حتى استطاع عبد المؤمن بن على أن يوحد المغرب العربى كله عدا (برقة) وما يليها شرقاً إلى حدود مصر.

وكان أول دخول لعبد المؤمن فى الأندلس (سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م)، وكان دافعه إلى الإسراع بذلك استيلاء "ألفونسو السابع" ملك (قشتالة) و(ليون) على مدينة "ألمرية" قد تمكن الخليفة الموحدى من توحيد معظم ما بقى من الأندلس فى أيدى المسلمين تحت رايته، وهو القسم الجنوبى الذى يحده من الشمال مجرى (وادى آنه)، ثم مجرى نهر التوريا (نهر بلنسية)(٢). وقد استقلت بعض الإمارات الشرقية، مثل بنى غانية فى الجزر الشرقية (البليار)، وهم من كبار قواد (المرابطين) فى الأندلس، وكذلك الأمير "محمد بن سعد بن مَرْدَنيش" الذى استقل بولايتى (بلنسية) و(مرسية) فى شرق الأندلس. غير أن هذه الإمارة الأخيرة لم تلبث أن انضمت إلى الموحدين بعد موت أميرها فى عهد الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م).

٢- وفى عهد الموحدين بالأندلس تحول ميدان الجهاد ضد النصارى إلى الجانب الغربى، بعد أن كان ميدانه فى الجانب الشرقى زمن المرابطين.

وقد كان الخليفة الموحدى أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م)(٣) – وهو أكبر شخصية فى تاريخ الموحدين بعد محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على – قد عقد صلحا مع ملك (قشتالة) و(ليون) (سنة ٥٨٦هـ، ولمدة خمس سنين)، وعندما انتهت مدة هذا الصلح سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م) بدأ هؤلاء فى مهاجمة أراضى المسلمين، فعبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس ومعه خيرة المقاتلين من الموحدين، وضم إليه أحسن مقاتلى الأندلس، وحشد حشداً عظيماً من جنده وحمسهم فى هذه الحملة، بينما استعان عدوه "ألفونسو الثامن" ملك (قشتالة) و(ليون) بملوك النصارى وبالبابوية، وكون جيشا ضخما، وعسكر عند حصن يسمى "الأَرَك" عند نهاية الطريق

---

(١) تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط (للدكتور السيد عبد العزيز سالم، والدكتور أحمد مختار العبادى ٢/٢٤٨).

(٢) راجع: أطلس التاريخ الإسلامى للدكتور حسين مؤنس ص ١٨١.

(٣) وفيات الأعيان ج ٧ ص ٤.

المؤدى من طليطلة إلى قرطبة على بعد (٢٠ كم) بالقرب من قلعة "رباح" وغرب المدينة الملكية الآن، وبدأت موقعة حاسمة فى شعبان (٥٩١هـ/ يوليو ١١٩٥م) أسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين، وانكسرت حدة الموجة النصرانية، وكان لهذا النصر أثره فى تثبيت جبهة الإسلام فى الأندلس لمدة طويلة من الزمان[1].

٣- وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين المسلمين والنصارى سنة (٥٩٤هـ- ١١٩٨م)، ولكن ملك النصارى ما كان ليستريح بعد هزيمته القاسية فى "الأرك"، ولذلك أخذ فى الاستعداد لمعركة جديدة مع المسلمين قبل انتهاء أمد الهدنة، وأعد جيشاً ضخماً واحتشد بكل ما يستطيع بمعاونة كاملة من ملوك النصارى فى غرب أوربا ومن البابوية ومن نصارى إسبانيا، وشجعه موت أبى يوسف يعقوب خليفة الموحدين (سنة ٥٩٥هـ) وتولية خلفه أبى عبد الله محمد الناصر الذى كان أقل كفاية من أبيه، وقد عبر الخليفة الجديد إلى الأندلس فى ذى الحجة (٦٠٧هـ/١٢١١م) على رأس جيش ضخم ونزل إشبيلية، ومن هناك صعد شمالى الوادى الكبير، وعسكر فى سهل تكثر فيه التلال الصغيرة ويقع غربى الحصن المسمى بالعقاب (جمع عقبة، وهو المرتقى الجبلى) وأقبل النصارى كذلك، وعسكروا فوق هضبة الملك المشرفة على معسكر المسلمين، وقبل اللقاء استولى النصارى على قلعة "رباح" من قائدها الأندلسى، وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر (الناصر) قتله دون تحقيق، الأمر الذى أغضب الأندلسيين وأثّر فى معنوياتهم.

بدأ اللقاء فى (١٥ من صفر ٦٠٩هـ/١٦ من يوليو ١٢١٢م)، وانخذل الأندلسيون والخارجون على المسلمين من العرب بعد قليل، وتركوا الجناح الشرقى لمسلمين مكشوفاً فانقض عليهم النصارى وحصدوا الألوف من متطوعة المسلمين المجاهدين من الأندلس كما حصدوا زهرة مقاتلى الأندلس، وعدداً كبيراً من خيرة العلماء والفقهاء والقضاة، وكان الخَطْب عظيماً، حتى قيل إن الإنسان كان يتجول فى المغرب بعد المعركة فلا يصادف شاباً قادراً على القتال[2].

---

(١) راجع التفاصيل فى البيان المغرب ٥/٢١٨-٢٢١، نفح الطيب ج ٤ ص ٣٨١، ٣٨٢ الروض المعطار للحميرى ص ١٢- ١٣، التكملة لابن الأبار ٢/٥٥٠-٥٥١، بغية الملتمس للضبى ص ٤٥-٤٦. وراجع: التاريخ الأندلسى للدكتور الحجى ص ٤٨٤-٤٩٠.

(٢) تفاصيل المعركة فى البيان المغرب ٥/٢٦٣-٢٦٤، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ص ٣٩٩-٤٠١، الروض المعطار للحميرى ص ١٣٧-١٣٨، وراجع: التاريخ الأندلسى للحجى ص ٤٩٠-٤٩٧، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٧٩-٣٨٠.

– وقد وصف ابن عذارى هذه المعركة بأنها ((كانت السبب فى هلاك الأندلس)) وقال ابن الأبار: ((أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها))[1] وهذا ما حدث بالفعل، فقد ضعفت بعدها جبهة الوادى الكبير، وسقطت مدن كبرى، وأشرف النصارى مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم هذا الخط، ثم توفى خليفة الموحدين الناصر فى شعبان (٦١٠هـ/١٢١٣م)، ودب الخلاف فى صفوف البيت الموحدى وانعكس ذلك على الأندلس، فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين من أرضها خلال عصر الموحدين ولم تبق إلا (مملكة غرناطة).

نظرة عامة على أوضاع الأندلس السياسية والإدارية والعلمية فى ظل الموحدين[2]:

١– قامت الدولة الموحدية على أسس دينية، متخذة من الإمامة مصدراً للسلطات الدينية والسياسية معاً، فحكومة الموحدين حكومة (دينية)، يعاون الإمام فيها صحبه العشرة الأوائل المسمون بـ(الجماعة)، وكأنهم وزارة يستشيرها الإمام فى جلائل الأمور، إلى جانب آخرين من ذوى النفوذ. وقد كان الموحدون حريصين على إقامة العدل وقمع الظلم، ومعاقبة العمال المعتدين.

٢– بلغ الموحدون مكانة عالية فى النواحى الحربية، فتفوقوا فى فن الحصار، والتحصينات، واستخدموا آلات مدمرة قاذفة للحجارة والحديد، مُحدثة دوياً شديداً، بحيث بدت كأنها مدافع بدائية.

٣– بلغت دولة الموحدين مكانة سياسية وحضارية طيبة فى فترة ازدهارها وقوتها، وكانت بعض وفود إسبانيا النصرانية وغيرها من أوربا تأتى إلى البلاط الموحدى لإظهار الصداقة، وعقد المعاهدات، حتى أُحدث منصب وزارى لاستقبال هؤلاء السفراء والاهتمام بأمورهم[3]، وقد حدث أن جاءت سفارة وزير ملك (قشتالة) إلى الموحدين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م بعد هزيمة العِقاب (٦٠٩هـ) بهدف عقد مهادنة وسلم[4]: نتيجة خشية

---

(١) البيان المغرب (ط تطوان) ص ٢٤٠، التكلمة لابن الأبار ١٠٢/١.

(٢) راجع عصر الموحدين وانهيار الأندلس ، لعنان ص ٦١٥-٦١٦.، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القسم الأندلسى – للدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح) ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٣) البيان المغرب . قسم الموحدين – أحداث سنة ٦٠٧هـ ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٦٦.

القشتاليين من هجوم مفاجئ للموحدين عليهم؛ نتيجة الاضطرابات الموجودة فى مملكتهم آنذاك، ووجود صراعات ونزاعات، ومجاعات[1].

٤- اهتم الموحدون بالمشروعات العمرانية والزراعية. وقام الخليفة أبو يعقوب يوسف بتحصين وتجميل (إشبيلية)، وإقامة المنشآت الفخمة، وتهيئة المياه الجارية وتوفيرها لسقاية الناس، وأقام جامع إشبيلية الأعظم ومئذنته الكبيرة (سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م) وأتمها ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بعده (سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م) وشارك فى هذه الأعمال عدد من العرفاء (المهندسين)، والبنائين والعمال المهرة[2].

٥- سارت الحركة العلمية بالأندلس فى طريق الازدهار فى عدة ميادين فى العصر الموحدى: فمن علماء هذا العصر محمد بن عبد الرحيم الأنصارى (٥٠١-٥٦٧هـ) عالم القراءات والفقه والحديث. وأبو بكر محمد بن خير الإشبيلى (٥٠٢-٥٧٥هـ) صاحب (فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف) وهو كتاب مهم فى باب التعرف على مدى تأثر الأندلس بالثقافة المشرقية فى جميع أنواع والمعارف والشرعية، وظهر أيضاً – فى تلك الآونة محمد ابن جُبير (ت ٦١٤هـ) الرحالة البلنسى المشهور صاحب (رحلة ابن جبير). ومن مؤرخى ذلك العصر: عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٠هـ) صاحب (المُعجب فى تلخيص أخبار المَغرب). وعلى بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) أحد مؤلفى كتاب (المُغرب فى حُلى المَغرب). وابن عذارى المُرَّاكشى (توفى بعد سنة ٧١٢هـ). وهو صاحب (البيان المُغرب فى أخبار الأندلس والمغرب). ومحمد بن عبد الملك المُرَّاكشى (ت ٧٠٣هـ) صاحب (الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة). وأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطى (٦٢٧-٧٠٨هـ) صاحب (صلة الصلة). وإلى جانب هؤلاء ظهر علماء فى مجالات الطب، والزراعة، مثل : أبى جعفر أحمد الغافقى (ت ٥٦١هـ)، ويحيى بن العوام الإشبيلى صاحب كتاب (الفلاحة)، وهذا الكتاب اعتبره المستشرقون الإسبان قمة التأليف الأندلسى فى هذا الموضوع، وكان له أعظم الأثر فى علوم الزراعة فى القارة الأوربية[3].

---

(١) عصر الموحدين وانهيار الأندلس ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) عصر الموحدين وانهيار الأندلس، لعنان ص ٦٤٧ وبعدها، والتاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٠٠-٥٠٦.

(٣) راجع ما كتبناه عن ابن العوام فى رسالتنا للدكتوراه بعنوان (الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة...) المجلد الثانى ص ٩٢٦ – ٩٢٧ .

ويكاد يكون لكل من هؤلاء العلماء إنتاجه العلمى، وبلغت مؤلفات بعضهم العشرات. وهم ليسوا إلا القليل من الكثير، زخرت بهم الأندلس فى هذه المدة.

ولا يفوتنا أن الكثير من العلماء من كل ميدان كانت لهم مشاركة فى الوقائع الحربية التى التقى فيها المسلمون بالممالك النصرانية فى فترة الموحدين، ووقف بعضهم فى المقدمة، فليس العلماء وأهل الفكر عالة يختفون وقت الأحداث ويبرزون فى صفاء الجو والنعمة. فكم من عالم، لا سيما علماء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلماء الشريعة المطهرة والتاريخ والقضاء – كانوا دوما فى المقدمة، لأن العلم إيمان وعمل، والصدارة فى العلم لها مسؤوليتها وتكاليفها، وذلك واضح – تماماً ودومًا – فى تاريخنا الإسلامى خلال مراحله المتلاحقة[1].

***



(١) راجع : التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٠٧.

الفصل الثامن

مملكة غرناطة (الأندلس الصغرى)

دولة بنى الأحمر (٦٢٩-٨٩٧هـ/ ١٢٣٢-١٤٩٢م)

انفرط عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الجيوش الإسلامية - فى فترة الموحدين - فى معركة "العِقاب" أمام الجيوش الإسبانية والأوروبية المتحدة، وقد كانت هذه الواقعة من أشنع الهزائم التى لحقت المسلمين بالأندلس، إن لم تكن عديمة النظير لديهم. لقد خسروا فيها الكثير، وما خسروه بعد المعركة كان أكبر، إذْ إن الأمور بدأت تسير من سيئ إلى أسوأ، والقواعد الأندلسية تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى ، وأتاحت هذه الظروف القاسية بروز عدد من الشخصيات حاولت أن تمسك على الأندلس ما بقى منها، وهذه مهمة شاقة وجِدُّ عسيرة.

ابن هود ومحاولة الصمود

وأول شخصية أندلسية ظهرت فى الميدان كانت من أسرة بنى هود أصحاب "سرقسطة" بالثغر الأعلى (فى عصر الطوائف). إنه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى، الذى لقب بأمير المسلمين سيف الدولة، والمتوكل على الله[1]. بدأ نشاطه من مدينة "مرسية" (سنة ٦٢٥ هـ)، ودخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية: مرسية، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة، وألمرية، وغيرها[2].

وقد عمل ابن هود على إنهاء سلطان الموحدين فى الأندلس الذين عجزوا - فى هذه الفترة - عن حمايتها والوقوف فى وجه الأخطار والهجومات الإسبانية. والظاهر أن ابن هود لم يكن فى مستوى مقدرة قيادية تعينه - فى مثل هذه الظروف - للاحتفاظ بما تبقى من المدن الأندلسية، بل إن المؤرخ ابن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥هـ) يعتبر تولى ابن هود أمر الأندلس ضارا بها، حيث وجد فيها ((قلوبا منحرفة عن دولة بر العدوة، مهيأة للاستبداد، فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأى))[3]. ويصفه لسان الدين ابن الخطيب بأنه كان شجاعاً كريماً حيياً وفياً، سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور،

---

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٢/١٠٩، ٢٥١، نفح الطيب ١/٤٤٦.

(٢) الحلة السيراء لابن الأبار ٢/٣٠٨، المغرب فى حلى المغرب ٢/٢٥١، أعمال الأعلام ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) المغرب فى حلى المغرب ٢/٢٥١.



محدوداً، لم ينصر به جيش، ولا وفق له رأى، لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى لقاء العدو من غير كمال استعداد"[1].

وقد هزم ابن هود فى عدد من المعارك ضد إسبانيا النصرانية، وسقطت بعض القواعد الأندلسية مثل "بلنسية" (سنة ٦٣٦هـ) و"إشبيلية" (سنة ٦٤٦هـ)، ثم أهمها جميعاً مدينة "قرطبة" العاصمة التالدة للأندلس، حيث حاصرها ملك قشتالة "فِرْانْدُة (فِرْدلند) الثالث" حصاراً قاسياً وشديداً لعدة أشهر، ودافع أهلها عنها أروع دفاع، وقد طلبوا الغوث من ابن هود، فنكل عنها وتركها لمصيرها المحتوم، واضطر أهلها إلى التسليم بعد أن انقطع عنهم الأمل فى المساعدة، ودخلها الجيش القشتالى (فى ٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ يونيو ١٢٣٦م)، وأخرجوا المسلمين منها، وكان بين سقوطها وسقوط مدينة طليطلةمائة وست وخمسون سنة[2].

ابن الأحمر وتأسيس مملكة غرناطة:

لم يكن ابن هود وحده فى الميدان، إذ كان ينافسه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، الملقب بـ "الشيخ" و "الغالب بالله"[3]. وبعد أن توفى ابن هود فى مدينة "ألمرية" (سنة ٦٣٥هـ) - وهو يُعِدُّ نفسه لإنجاد "بلنسية" كبرى قواعد شرقى الأندلس وثغوره، والتى سقطت (سنة ٦٣٦هـ) - استطاع ابن الأحمر أن يُنشئ قوة احتفظت ببعض المناطق فى جنوبى الأندلس، ويؤسس "مملكة غرناطة" (الأندلس الصغرى).وورثه - فى حكم هذه المملكة - أبناء أسرته، وتوالى على حكمها خلال قرنين ونصف تقريباً ما يربو على عشرين حاكماً (سلطاناً) تمتع كثير منهم بصفات ممتازة. وظهرت خلال هذه المدة شخصيات سياسية ذات كفاءة عالية، فضلاً عن أهل الملكات العلمية وأصحاب المواهب الأخرى الذين عاونوا فى الحفاظ على هذه البقعة الأندلسية الصغيرة.

ولد محمد بن يوسف بن الأحمر - الذى يرجع نسبه إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة الأنصارى - فى مدينة "أَرْجُونة" (Arjona) - وهى من حصون قرطبة من جهة الشرق - (سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م). وقد تميز هذا الرجل بالشجاعة والجرأة ووفور

(١) أعمال الأعلام ص ٢٧٨.

(٢) راجع: البيان المغرب لابن عذارى ٣٣١/٥، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥١٤-٥١٥.

(٣) نفح الطيب ٤٤٦/١، ٤٤٧.

العزم. دعا إلى جمع الشمل، فالتف حوله الناس، وتوافد عليه جنود الأندلس فأعلن نفسه أميراً، وانتقل إلى "جيَّان"، ودخلت فى طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أدرك أنه فى حاجة إلى معقل يعتصم به، لأنَّ (جيان) مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على (غرناطة) عند سفح جبل الثلج، ثم أخذ - شيئاً فشيئاً - يوسع نطاق سلطانه حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة، وهى: (غرناطة) و (ألمرية) و (مالقة)، ووصلت حدودها إلى شرق البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة (غرناطة) عاصمة لدولته[1].

وكان لاستيلائه على مدينتى (المرية) و (مالقة) أثر طيب فى دعم دولته لما لهما من أهمية عظيمة فى المجالين التجارى والبحرى.

وقد واجهت "ابن نصر" بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها:

١-علاقته بأصهاره "بنى أشقيولة" الذين عاونوه، ثم انقلبوا عليه، وحاربوه حتى ((عظمت الفتنة واشتدت المحنة وكثر الخلاف، واستعانوا عليه بالنصارى، وكشفوا الوجوه فى معصيته، وكثر بسببهم الثوار))[2].

٢-نقص المال الذى كان فى أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه.

٣-المشكلة الكبرى مع ملوك النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح (سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) لمدة عشرين عاماً، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك (قشتالة) "فرناندو الثالث"، ودفع له جزية، ووافق على حضور البلاط القشتالى باعتباره واحداً من أمراء الملك، وعلى أن يمده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمده بقوات ساعدت على سقوط إشبيلية (فى شعبان سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)[3].

<u>مملكة غرناطة بعد وفاة مؤسسها:</u>

وفى (جمادى الثانية ٦٧١هـ/ ديسمبر ١٢٧٢م) توفى محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد تولى محمد الثانى حكم المملكة ولقب (بالفقيه)، لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب:

---

(١) راجع عن ذلك كله نفح الطيب ٤٤٧/١، الإحاطة فى أخبار غرناطة ٩٢/٢-١٠١، ص١١٥-١١٩، ص١٤٢، التاريخ الأندلسى للحجى ص٥١٦ - ٥١٨، المسلمون فى الأندلس لعبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٠٢/٧)

(٢) راجع تفاصيل هذه الفتنة فى أعمال الأعلام ص٢٨٧-٢٩١.

(٣) البيان المغرب ٣٦٧/٥، نفح الطيب ٤٤٨/١، المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ١٠٢/٧)

((وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هـذا إلى جانب إعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسياً بارزاً .. ، أديباً عالمـاً، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدبـاء والأطبـاء والمنجميـن والحكمـاء، والكتـاب والشعراء)).

وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هى:

أ- مشكلته مع الإسبان، وقد نجح فى تحقيق انتصارات عليهم منتهزاً فرصة موت مليكهم.

ب- ومع المرينين الذين استنصر بهم ليعاونوه فى الجهاد ضد المسيحيين، فـإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشيء الذى دفعـه إلـى التحـالف مـع ملـك (أراجون) تارة ومع ملك (قشتالة) تارة أخرى لدرء خطر المرينين. وعلـى الرغـم مـن تحسن العلاقات بين (غرناطة) و (فاس)، فإن [الفقيه] لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات.

جـ- وأخيراً كانت هناك مشكلة مع أنصار أبيه "بنى أشقيلولة" التى اشتدت فـى زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشـمالى المغـرب جنوب مدينة سبتة سنة (٦٨٧هـ)(١).

وعلى كل حال فقد توفى محمد الفقيه فى (شعبان ٧٠١هـ/ إبريل ١٣٠٢م) بعـد أن نجح فى دعم دولته داخلياً وخارجياً.

ولن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثـيرين، ولكننـا نكتفـى بالوقوف عند اثنين منهم يعتبران أقدر من تولى أمر هذه المملكة بعد محمد الغـالب بـالله وابنه محمد الفقيه(٢).

<u>فأما الأول</u> هو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن أبـى الوليـد إسماعيل محمد بن نصر مؤسس الدولة الذى حكم فيما بين (سـنتى ٧١٣-٧٢٥هـ / ١٣١٤-١٣٢٥م) فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر، مدركاً لحقـائق الوضـع فـى

---

(١) أعمال الأعـلام ص ٢٩٠-٢٩١. وراجـع: المسـلمون فـى الأندلـس، للدكتـور عبـد الله جمـال الديـن (سفير ٧/١٠٣-١٠٤).

(٢) راجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص٣٨٧-٣٨٩.

مملكته الصغيرة، وقد تمكن بسياسته من الحفاظ على أراضى بلاده، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة، واستقل بنفسه معتمدا على معاونة قوات بنى مرين التـــى كـــانت قـــد حصلت على الحق فى الإقامة بصورة مستمرة فى بلاد غرناطة للإشتراك فى الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التى سنتحدث عنها بعد قليل.

وفى أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة (قشـــتالة) وقـــوات الإسلام فى شبه الجزيرة، وذلك أن ألفونسو العاشر طمع فى بلاد المسلمين مـــن جديـــد، وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له، ولكنه لم يستطع، لأن ابنه (شانجو الرابـــع) ثار عليه سنة ٦٨١هـــ /١٢٨٢م. واستنجد ألفونسو العاشر بالسلطان المرينى على ابنـــه، وعبر (أبو يوسف عبد الحق المنصور المرينى) إلى الأندلس، والتقى مع ألفونسو العاشـــر بأحواز الصخرة فى كورة (تاكورونيا) قرب (رندة)، ورهن تاجه لديه، بل قبل يده رجـــاء معاونته. وقد أدى عمله هذا إلى نفور زعماء (قشتالة) ٠من ملكهم هذا، فانضموا إل ابنـــه (شانجو الرابع) فعزلوا ألفونسو العاشر سنة ٦٨٣هــ/١٢٨٤م فانصرف بقية أيامـــه إلـــى الدراسة والبحث والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية، مما استحق بـــه أن يسـمى بالملك ألفونسو العالم(١). ومن المؤرخين نمن يقولون أن الذى لجأ إلى السلطان المرينـــى كان الابن وهو شانجو الرابع الذى تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيـــه وخلعـــه والانفراد بالعرش(٢).

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر فى غزو أراضـــى المســلمين، ووقع ذلك فى أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذى نتحدث عنه، فتقدمت قوات نصرانيـة كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده (دون بترو)، و(دون خوان) الوصيين علـــى ملـــك قشتالة الصغير وهو (ألفونسو الحادى عشر) الذى خلف أباه (شانجو الرابع) وانضمت إلـــى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة وإنجليز، وكان اللقـــاء الحاســم قـــرب غرناطة وفى مرجها فى (٢٠ ربيع الثانى ٧١٨/ مايو ١٣١٨). ، وكان شيخ الغزاة هـــو

---

(١) تحدثنا عن دور هذا الملك فى نشر الثقافة العربية الإسلامية وإعداد المترجمين لترجمة الكتب العربية فى علـــوم الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والفلسفة إلى اللغة القشتالية (الإسبانية القديم) والتى ترجمت فيما بعـــد إلـــى اللاتينية وتأثرت بها أوربا – تحدثنا عن ذلك فى رسالة الدكتوراة (من تأليفنا) بعنوان (الجوانب الحضارية فـــى بغداد وقرطبة......) المجلد الثانى ص٩٦٦-٩٦٩.

(٢) الإحاطة ٥٦٤/١ ، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٣٩.

أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء، وقد انتصر المسلمون فى هذه المعركة نصراً مؤزراً[1] وأثبتوا أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم جمعوا صفوفهم وصدقوا النية فى الجهاد، وكان لهذه المعركة أثر بعيد فى تثبيت أركان مملكة غرناطة، والتى استطاع رجالها أن يستعيدوا بعض البلاد والحصون التى كانوا قد فقدوها من قبل.

وبعد هذا النصر بقليل اغتيل سلطان غرناطة أبو الوليد إسماعيل (سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م). ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة، وإليه يرجع الفضل فى إقامة الكثير من منشآت قصور الحمراء.

وأما الثانى: فهو أبو الحجاج يوسف الأول بن أبى الوليد إسماعيل (٧٢٥-٧٥٥هـ/١٣٢٥-١٣٥٤م) ويعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة، فقد بذل أقصى جهده فى المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة. وعلى الرغم من مَلَكاته الكثيرة وطول حكمه الذى مكّن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعدها على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصرانى متزايد، وقد جاءت العلة الكبرى فى اختلاف أفراد البيت النصرى بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة، ثم إن العلاقات لم تكن طيبة دائماً بين سلاطين غرناطة ومشيخة الغزاة.

مشيخة الغزاة[2]:

عقب انتصار المسلمين على النصارى فى موقعة الصخرة استقر الاتفاق بين سلطان بنى نصر وسلطان المرينيين على أن تقيم فى أراضى غرناطة قوة دائمة من المقاتلين المرينيين للاشتراك فى الجهاد، وفى سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين الذين سمُّوا بالغُزاة (وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة)، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكى تكون معابر ومراكز لهم فى الأندلس، لكى يستطيعوا مواصلة عملهم الدينى الكبير. وكان أول شيخ للغزاة هو عبد الله أبو العلاء المرينى، وعندما توفى ذلك الرجل شهيداً سنة ٦٩٣هـ خلفه أبو سعيد عثمان

---

(١) تفاصيل هذه المعركة أوردها المقرى فى نفح الطيب ج١ ص٤٤٩-٤٥١.

(٢) راجع عنهم الإحاطة فى أخبار غرناطة ص٢ /١٦، ٣٨. نفح الطيب ١/٤٥٢-٤٥٤. معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٣٨٩، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٤٠ وما بعدها.



ابن أبى العلاء، وفى أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها فى مملكة غرناطة، وتدخل شيخ الغزاة فى الأمور الداخلية للمملكة وأيد بعض منافسى السلطان. ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النَّصْرِى يحاول من جهته التدبير على مشيخة الغزاة، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم. والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم مصالح خاصة فى الأندلس، ودخلوا فى التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة، ومع مملكة (قشتالة) و(ليون) ومملكة (أرغون) والجمهوريات الإيطالية، وكان هذا الاختلاف فىالمصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التى تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها.

وقعة طَرِيف (٧٤١هـ/١٣٤٠هـ):

وقد تجلى ذلك بصورة ظاهرة فى لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية فى أيام السلطان النَّصْرِى الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل الذى نتحدث عنه (٧٣٣-٧٥٥هـ)، فقد كان هذا الرجل كما قلنا واسع المطامع جم النشاط، وكان قد تولى أمر بنى مَرِين السلطان أبو الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب المرينى المشهور باسم أبى الحسن، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع فى المغرب والأندلس حتى لا يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال.

ففى جمادى الأولى (سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م) جمع ملك (قشتالة) قوات ضخمة من القشتاليين وانضمت إليهم قوات أخرى من الأرغونيين والبرتغاليين، وسار الجميع ووجهتُهم مدينة (طريف) للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب. وقد اتخذ فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المرينى الاستعدادات اللازمة إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة، ولكن النصر لم يحالف المسلمين فى ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة فى تاريخ الأندلس، هى هزيمة طريف فى (٧ جمادى الأولى ٧٤١/ ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م)، قتل فيها عدد من العلماء، من بينهم والد لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة فى أخبار غرناطة)[1]. وعقب تلك الهزيمة سقطت (طريف) وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائى بين الأندلس والمغرب.

---

(١) تفاصيل الأحداث فى نفح الطيب ٤٥٢/١، ١٤/٥-١٥،٤١٣، التاريخ الأندلسى للحجى ص٥٤٣ – ٥٤٧، معالم... للدكتور حسين مؤنس ص٣٨٩ – ٣٩٠.

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس، وذلك بدوره قطع الأمل فى أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمدا طويلا. وبعد المعركة بقليل اتجه (ألفونسو الحادى عشر) ملك (قشتالة) لحصار "جبل طارق" وكاد يستولى (سنة ٧٥٠هـ) عليه لولا أن (ألفونسو الحادى عشر) توفى أثناء الحصار، بسبب الوباء الكبير الذى وقع سنة ٧٤٩هـ، وانتشر فى الأندلس كلها ومناطق أخرى من العالم الإسلامى وأوربا، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال السياسة فيها[١]. وقد أبدى المسلمون شهامة فى هذه المناسبة، فقد كانوا يحاصرون القوات القشتالية المحاصرة، فلما بلغهم موت الملك أفرجوا للقوات النصرانية لتنسحب حاملة تابوت الملك الميت إلى إشبيلية وارتدى عدد منهم شارات الحداد مجاملة[٢].

ويعد أبو عبد الله محمد بن أبى الوليد إسماعيل الملقب بالغنى بالله (محمد الخامس) من أقدر ملوك غرناطة، وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم من (سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م) إلى سنة (٧٩٣-١٣٩٤م)، وفى أيامه ظهر وعمل ابن الخطيب آخر العظماء من كتاب الأندلس ومفكريه، وقد دارت على ذلك الرجل ووزيره ابن الخطيب محن طويلة، وكثر الثائرون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستنجاد بالسلطان المرينى، ثم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عرشه، ولكن الأمور لم تَصْفُ له قط، فقد دخل فى صراع مرير وخطر مع (بنى سراج)، وكانوا من أكبر الأسر فى مملكة غرناطة. وإلى هذا الرجل محمد الغنى بالله يُعْزَى الجانب الأكبر من منشآت قصور الحمراء، فهو الذى أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحدائق جنة العريف[٣].

تدهور مملكة غرناطة:

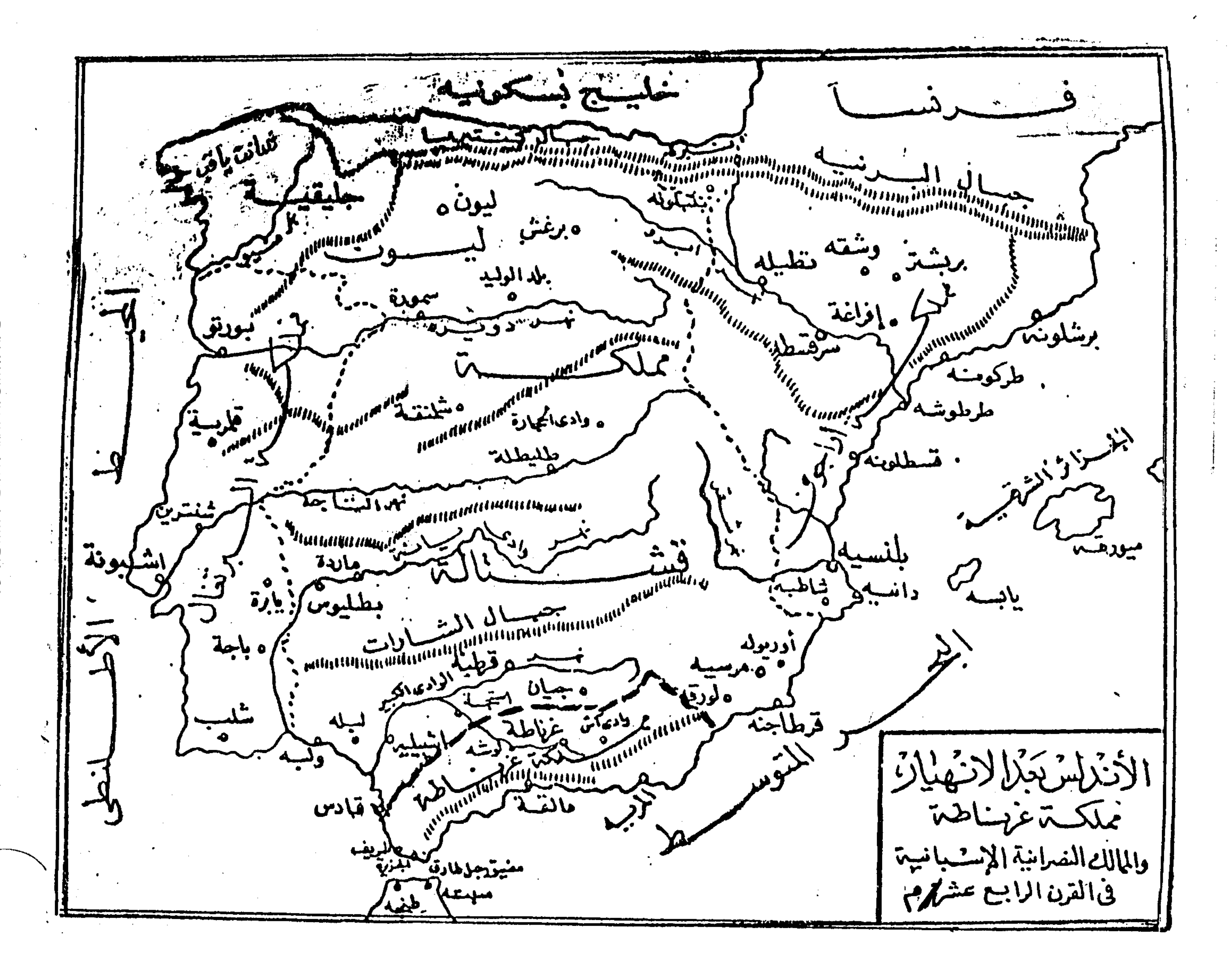
وبعد محمد الغنى بالله لم تعد مملكة غرناطة إلى سابق قوتها أبداً منذ تعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب ، وكان كل منهم يستعين بملوك

---

(١) عاصر لسان الدين بن الخطيب هذا الوباء، وصنف فيه كتابا بعنوان (مقنعة السائل عن المرض الهائل) (راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ٨٣/١، نفح الطيب ١٦٣/١).

(٢) راجع هذه الأحداث فى نفح الطيب ٤٤٢/٤، العبر لابن خلدون ٣٧٥/٤، ٣٩٤ التاريخ الأندلسى للحجى ص٥٤٨-٥٤٩.

(٣) راجع أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٣٠٦، ص٣٠٩- وما بعدها.


الأندلس بعد الانهيار
مملكة غرناطة
والممالك النصرانية الإسبانية
في القرن الرابع عشر م
خليج بسكونيه
فرنسا
جبال البرنيه
جليقية
ليون
برغش
بلد الوليد
سمورة
نهر دويره
بورتو
قلمرية
مملكة
شلمنقة
وادي الحجارة
طليطلة
نهر التاجه
شنترين
اشبونة
ماردة
يابرة
بطليوس
باجة
شلب
جبال الشارات
قشتالة
نهر وادي يانة
سرقسطة
تطيلة
وشقه
اقراغة
برشلونة
طركونه
طرطوشه
بلنسيه
شاطبه
دانيه
يابسه
ميورقه
أوريوله
مرسيه
لورقه
قرطاجنه
جيان
غرناطة
اشبيليه
مالقة
قادس
لبله
ولبه
الجزيرة
طنجة

قشتالة على إخوانه وبلغ الاضطراب حدا تعاقب معه على حكم المملكة اثنا عشر سـلطانا خلال القرن التاسع الهجرى (- ١٥م) وتولى بعضهم أكثر من مرة، وانكمشت مساحته حتى انتهى أمرها فى النهاية إلى الاقتصار على مدينة غرناطة ومدينة (وادى آش) وما حولهما.

وتجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها فى أيام أبى الحجاج يوسف الثانى المتوفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م. فقد اشتد العداء بينه وبين (بنى سراج) وانتهز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة (الزهراء) المجاورة لغرناطة (سنة ٨٠٩هـ/١٤١٧م).

وبعد سقوط جبل طارق بيد القشتاليين سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماما بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاونتها ولم يعد هناك أمل فى أن تظل وقتا طويلا، وقد تجلت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م وهى السنة التى تم فيها الاتحاد بين الملك (فرناندو الرابع) ملك (أرغون) والملكة "إيزابيلا الثانية" ملكة (قشتالة) وكانا قد تزوجا قبل ذلك بعشر سنوات، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت كتلتين تعملان على القضاء على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة، الأولى مملكة (قشتالة وأرغون) وكانت تقوم بالنصيب الأكبر فى القضاء على مملكة غرناطة، ثم مملكة (البرتغال) التى أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو فى أراضى المسلمين، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على (سبتة) ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت فى أيدى الإسبان إلى اليوم[1].

نهاية مملكة غرناطة:

فى أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة (محمد الحادى عشر بن أبى الحسن على) الذى يعرف باسم أبى عبد الله، أو (أبى عبد الله الصغير) وكان والده (أبو الحسن على) قد تزوج على زوجته الحرة (عائشة) زوجة نصرانية سميت (ثريا)، وأبو عبد الله هذا هو ابنها، وكان أبو الحسن سلطانا ضعيفا محاطا بالمصاعب، تنافست النساء فى عصره على حيازة العرش لأبنائهن، وطال النزاع بين (أبى عبد الله) الذى ذكرناه وعمه

(١) راجع نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ص٥٢٧، معالم تاريخ الأندلس لحسين مؤنس ص٣٩١، التاريخ الأندلسى للحجى ص٥٥٠.

(أبى عبد الله محمد بن سعد) الملقب بالزَّغَل (أى الباسل أو الشجاع)، وانتهى هذا النزاع بتقسيم غرناطة.

وبعد منافسات طويلة قرر (فرناندو) ملك (قشتالة) و(إيزابيلا) ملكة (ليون) القضاء نهائيا على مملكة غرناطة، فسارا لحصارها بقوات ضخمة، وفى النهاية عقد (أبو عبد الله الزغل) معاهدة التسليم مع ملكى (قشتالة) و(ليون) فى (٢١ المحرم سنة ٨٩٧/ نوفمبر ١٤٩١). أما دخول الملكين الكاثوليكيين (فرناندو) و(إيزابيلا) مدينة غرناطة فكان فى (ربيع الأول ٢/٨٩٧ يناير ١٤٩٢) وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الإسلام والغرب الأوروبى. وقد احتفلت به بلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية بأن تقرع كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة.

قائمة سلاطين بنى الأحمر

محمد بن أحمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصارى الخزرجى

١- المؤسس: أبو عبد الله محمد (الأول) - الشيخ الغالب بالله (٦٢٩ - ٦٧١هـ)

٢- أبو عبد الله محمد (الثانى) - الفقيه	(٦٧١ - ٧٠١هـ)
٣- أبو عبد الله محمد (الثالث) - المخلوع	(٧٠١ - ٧٠٨هـ)
٤- نصر (ابو الجيوش)	(٧٠٨ - ٧١٣هـ)
٥- أبو الوليد إسماعيل (الأول)	(٧١٣ - ٧٢٥هـ)
٦- أبو عبد الله محمد (الرابع)	(٧٢٥ - ٧٣٣هـ)
٧- أبو الحجاج يوسف (الأول)	(٧٣٣ - ٧٥٥هـ)
٨- أبو عبد الله محمد (الخامس) - الغنى بالله	(٧٥٥ - ٧٦٠هـ)
٩- إسماعيل (الثانى)	(٧٦٠ - ٧٦١هـ)
١٠- أبو سعيد البرميخو (محمد السادس)	(٧٦١ - ٧٦٣هـ)
١١- أبو عبد الله محمد (الخامس) - المرة الثانية	(٧٦٣ - ٧٩٣هـ)
١٢- أبو الحجاج يوسف (الثانى)	(٧٩٣ - ٧٩٧هـ)
١٣- محمد (السابع)	(٧٩٧ - ٨١١هـ)
١٤- يوسف (الثالث)	(٨١١ - ٨٢٠هـ)
١٥- أبو عبد الله محمد (الثامن) - الفترة الأولى	(٨٢٠ - ٨٣١هـ)

١٦- محمد (التاسع) - الزغير (٨٣١ - ٨٣٣هـ)

١٧- محمد (الثامن) - المرة الثانية (٨٣٣ - ٨٣٥هـ)

١٨- يوسف (الرابع) - حكم أشهرا (٨٣٦هـ)

١٩- محمد (الثامن) - المرة الثالثة (٨٣٦ - ٨٤٥هـ)

٢٠- محمد (العاشر) - الأحنف - المرة الأولى (٨٤٥ - ٨٤٨هـ)

٢١- يوسف (الخامس) - حكم أشهرا (٨٤٩هـ)

٢٢- محمد (العاشر) - المرة الثانية (٨٤٩ - ٨٦٣هـ)

٢٣- سعيد بن محمد بن أبى الحجاج يوسف - المرة الأولى (٨٦٣ - ٨٦٧هـ)

٢٤- يوسف (الخامس) - المرة الثانية (٨٦٧ - ٨٦٨هـ)

٢٥- سعيد بن محمد بن أبى الحجاج يوسف - المرة الثانية (٨٦٨هـ)

٢٦- أبو الحسن على بن سعد (٨٦٨ - ٨٨٧هـ)

٢٧- أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) - الصغير/المرة الأولى (٨٨٧ - ٨٨٨هـ)

٢٨- أبو عبد الله محمد بن سعد (الثانى عشر) (٨٨٨ - ٨٩٢هـ)

٢٩- أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) المرة الثانية (٨٩٢ - ٨٩٧هـ)

- وهو آخر ملوك بنى نصر الذى سلم غرناطة آخر حصن إسلامى فى الأندلس.

محنة المورسكيين الأندلسيين[(١)]:

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين فى غرناطة - وغيرها من مدن الأندلس - بكل حقوقهم، وأن تظل لهم مساجدهم، وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف، ويهاجر منهم من أراد، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا عليه، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة، ثم بدأت سياسة اضطهاد المسلمين وإجبارهم على التنصُّر، وهؤلاء عرفوا فى المجتمع المسيحى باسم "الموريسكيين" والمورسكى تصغير لكلمة "الموره" والمقصود بها أفراد الشعب المسلم

(١) لا يتسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه المسمى (نهاية الأندلس)، و (تاريخ العرب المتنصّرين)، وهو القسم الأخير المتمم لتاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه. وقد اعتمد فى هذا القسم على مراجع كثيرة، بعضها إسبانى، وبعضها برتغالى. ومن أحسن ما صنف فى هذا الموضوع كتاب (المسلمون المنصرون: الموريسكيون الأندلسيون) للدكتور عبد الله جمال الدين الأستاذ بكلية دار العلوم.

الذى ظل موجودا بإسبانيا يخضع لحكم الملكين الكاثوليكيين بعد سقوط غرناطة فى أيديهما.

وقد نظمت معاهدة التسليم حقوق وواجبات هؤلاء، لكن بنود هذه المعاهدة سقطت واحدا وراء الآخر، وأريد لهم أن يكونوا نصارى شاءوا أم أبوا، وتم فى سبيل ذلك اللجوء إلى كل ألوان الأساليب وأشدها قسوة وعنفا مع استخدام الأمانى أحيانا.

وقد أبت غالبية المسلمين أن تفرض عليهم عقيدة لم يؤمنوا بها، فاصطدموا بالسلطات المسئولة دينية ومدنية، واستخدمت محاكم التفتيش معهم كل حيلها من اعتقال وتشريد ومصادرة وتحريق، كما جوبهت ثوراتهم على الظلم بكل قسوة وعنف، ولم يفت المسئولين استخدام وسائل التبشير والإغراء، وظل المسلمون على موقفهم وواصلوا ممارسة شعائرهم الإسلامية فى العلن حينًا، وفى السر أحياناً، وبلغ الضيق برجال الكنيسة ورجال الحكم مداه، وبعد مناقشات مستفيضة تقرر طرد الموريسكيين من كل إسبانيا، وتم ذلك بالفعل فى الفترة من (١٦٠٩ - ١٦١٤م)، حدث ذلك دون مراعاة لمشاعر هذه الشريحة من المجتمع الإسبانى، على الرغم مما كان لها من دور متميز فى خدمة الزراعة والاقتصاد بمختلف بلدان شبه الجزيرة.

وبهذا انتهت قصة الإسلام فى شبه الجزيرة الأندلسية وخلت من أهل الإسلام، وأبدلت من النور بالظلام، حسبما اقتضته الأقدار النافذة والأحكام، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وله الأمر من قبل ومن بعد، وإليه المرجع والمآب.



الخاتمة

من أسباب سقوط الأندلس

يخضع سقوط الأمم لأسباب كثيرة، وليس لسبب واحد محدد . ونستطيع أن نقول: إن هناك أسباباً أساسية جوهرية، وأخرى مساعدة على السقوط. كما أن هناك أسباباً عامة، وأسباباً خاصة.

والأسباب العامة هى التى تتصل بالسنن الربانية فى الكون والمجتمع، ويتساوى فيها كل البشر صعوداً أو هبوطاً . والأسباب الخاصة هى التى تتصل بالملامح المميزة لكل أمة، وبطبيعتها الحضارية وتراثها الخاص، وبمستوى التحديات البيئية والنفسية والفكرية التى تحيط بها.

ولله عز وجل فى خلقه سننٌ أرشدنا إليها، وأمرنا بالتعامل معها، والاستفادة منها، فقال (قد خلَتْ من قبلكم سُنَنٌ فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عَاقبةُ المُكذِّبين)[1]. وقال (فهل ينظرون إلا سُنَّةَ الأولين . فلن تَجِدَ لسنة الله تبديلاً . ولن تَجِدَ لسنةِ الله تحويلا)[2].

والتاريخ بما يحويه من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد على كشف هذه السنن، التى هى فى غاية الدقة والعدل والثبات، وإن معرفتها تفرض على الأمة الواعية المدركة أن تتجاوز مواقع الخطأ التى قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن، ومع قوى الكون، مستمدةً ذلك من منهج الله الذى سار عليه أنبياؤه ورسله.

ومن سنن الله الخالدة أن البشر يتحملون مسئوليتهم فى الرقى والانحطاط وفى إتباع الخير والشر، حيث إنهم قد مُنِحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك جاءهم رسل الله بالبينات والهدى، فإذا وجدت الأسباب، فالنتائج تتبعها. قال تعالى (إن الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم)[3]. والتغيير يبدأ من النفس، سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل . وهذه السنة الربانية فى تغيير النفس والمجتمع

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٣٧).
(٢) سورة فاطر ، الآية (٤٣).
(٣) سورة الرعد ، الآية (١١).

مهمة جداً، وتحتاج إلى دراسة نفسية واجتماعية. ولا يمكن إدراكها إدركاً صحيحاً إلا باتباع المنهج الربانى، وهذا المنهج يجعلنا ندرك العلاقة السليمة بين الأحداث التاريخية.

ومن السنن الربانية أيضاً أن زوال الأمم يكون بالترف والفساد، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت فى الأرض وأصابها البطَر والكبرياء هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال، قال الله تعالى (وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً)[1] ، أى أمرناهم بالأمر الشرعى من فعل الطاعات وترك المعاصى، فعصوا وفسقوا، فحق عليهم العذاب والتدمير، جزاء فسقهم وعصيانهم. والترف - وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه - إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله. وليس كل ثراءٍ ترفاً.

ومن السنن الربانية أيضاً أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم وعدم إقامة العدل . يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى (يا عبادى إنى حرَّمتُ الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[2]. فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء فى الضعفاء، وأخذوا يتلاعبون بحدود الله، فقد آذنهم الله بالهلاك ووقعت القاصمة. قال الله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمةً وأنشأنا بعدها قوماً آخرين)[3].

وعندما نرصد التجربة الإسلامية فى الأندلس من خلال الرؤية الحضارية الشاملة المستوعبة للعوامل العامة والخاصة نقع على أسباب كثيرة تفسر لنا سقوط الأندلس. وبعض هذه الأسباب تضرب بجذورها إلى مطلع الوجود الإسلامى هناك، فمن أهمها:

١- النزاع والخلاف والتنافس بين عناصر المسلمين فى الأندلس، بين العرب اليمنية والقيسية، وبين العرب والبربر، وبين العرب والمولَّدين. ولقد بدأت الفتن والاضطرابات والحروب التى وقعت بين هذه العناصر بعضها والبعض - بدأت مبكراً منذ بدايات الفتح، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر، واستمرت استمراراً يكاد يكون متصلاً، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة، بحيث يمكن القول: إن هذه الفتن والحروب قد صحبت تاريخ المسلمين

---

(١) سورة الإسراء الآية (١٦). واقرأ مطلع سورة الفجر.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه حديث رقم (٢٥٧٧).

(٣) سورة الأنبياء ، الآية (١١).

فى الأندلس من بدايته إلى نهايته إلا فى عهود بسيطة شهدت فترة من الاستقرار طالت أو قصرت . يقول الله عز وجل (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)[1]. ويقول (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون. منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة..)[2].

٢- الاستهانة بالأعداء أثناء فترات القوة . وأبرز مظهر لهذا الخطأ: استهانة المسلمين خلال فترة الفتح الأولى بمنطقة "كوفادونجا" (صخرة بلاى)[3] فى جبال "كنتبرية" فى الشمال. وكانت هذه البؤرة بمثابة الجرح الذى سرت سمومه فى الجسد كله، وبعد فترة وجيزة تكونت المملكة النصرانية – "أراجون" و"جليقية" (ليون) و"قشتالة"، وأصبحت كالسرطان فى جسم الأندلس . وكان الوعى (الاستراتيجي) يوجب أن يظل الهدف الأندلسى الثابت. هو طرد هذه القوى، وتوحيد الأندلس طبيعياً وجغرافياً حتى تصبح جبال "البرتات" فاصلاً طبيعياً حقيقياً. وهذا – وإن كان قد تحقق فى بعض السنوات المعدودة – لكن سرعان ما تبدد وانتهى بعد معركة(بلاط الشهداء) سنة (١١٤هـ)[4] وانشغال المسلمين بالنزاع والتخاصم والحروب والفتن .ولا شك أن هذا التراجع يُعدُ خطأ كبيراً وقع فيه مسلمو الأندلس . وقد تكررت هذه الأخطاء حينما تقدم نصارى أسبانيا فاحتلوا مدينة "طليطلة" قلب الأندلس – (سنة ٤٧٨م/١٠٨٥هـ) فاستهان المسلمون بسقوطها , مع أن هناك فترات سمحت لهم باستردادها أيام المرابطين الذين انتصروا فى موقعة "الزلاّقة"[5] (سنة٤٧٩هـ) وكذلك فى أيام الموحدين, فاتسع الخَرْقُ وأصبحت الأندلس فى موقف الدفاع الهزيل.

٣- وكان لنظام ولاية العهد الوراثى – مع عدم الجدارة–أثره الخطير فى سقوط الأندلس. وأوضح مثل على هذا هو تولية الحَكَم (المستنصر) (المتوفى٣٦٦هـ) ابنه هشاماً الذى لم يكن قد بلغ الحلم[6] ولم يجمع الصفات الأساسية التى تؤهله للخلافة،

---

(١) الأنفال ، الآية (٤٦).

(٢) آل عمران ، الآية (١٥٢).

(٣) راجع ما ذكرناه عنها (ص٢٩).

(٤) راجع عنها (ص٤٩-٥١).

(٥) راجع عنها (ص١٥٦).

(٦) راجع عن ذلك (ص١٢٥ وما بعدها).



فكانت ولايته سبباً فى مصائب كثيرة , أخطرها سقوط الخلافة الأموية في الأندلس (سنة٤٢٢هـ) وتفكك البلاد إلى أحزاب وطوائف، واستمر هذا الحال ينخر في جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير.

٤-ومما أثر فى علاقة مسلمى الأندلس بالممالك النصرانية وأضعف الجبهة الداخلية: خصومة العباسيين والفاطميين للأمويين فى الأندلس، فعندما كانت تلك البلاد تابعة للخلافة الأموية فى المشرق استطاع ولاتها أن يصلوا فى فتوحاتهم حتى قرب (باريس) [معركة بلاط الشهداء]. أما فى عهد بنى أمية الذين استقلوا بالأندلس عن الخلافة العباسية ثم أخذوا يتصارعون معهم (نسبياً)، ومع الخلافة الفاطمية على أرض المغرب الأقصى، فقد شغلهم هذا عن تأمين دولتهم الإسلامية الناشئة فى تلك البلاد النائية أى الأندلس (بصورة كافية) ضد الممالك النصرانية فى المنطقة الشمالية ولو أمَّن العباسيون والفاطميون ظهور أمويى الأندلس لكان لصراع هؤلاء مع أعدائهم من الأسبان شأن آخر، ولتغير مصير البلاد عما انتهى إليه بكل تأكيد. لكن النزاع بين الخلافات الثلاثة: العباسية والفاطمية والأموية جاء (بجانب العوامل الأخرى) بتلك النتيجة المحزنة، وهى ضياع الأندلس فى النهاية وانحسار المد الإسلامى فى شبه الجزيرة[1].

٥- ويعتبر التفكك السياسى الذى ساد الأندلس نتيجة انفراط عقد الخلافة الأموية إلى اثنتين وعشرين دولة (أو طائفة) سبباً مباشراً فى السقوط . وقد حفل عهد الطوائف هذا بمظاهر سقوط كثيرة وشنيعة. تولدت عن التفكك السياسى، وأخطرها التنافس على السلطة، والقتال الداخلى وكانت هذه الطوائف والممالك – كما يقول ابن حزم الأندلسى (المتوفى ٤٥٦هـ) – ((نُظُم مستهينة بالدماء، مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران، واستجلاب المنافقين من الكُتاب والوزراء والشعراء، وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعُه، وتعدد وتْره وشَنْـَـه، واستحكم ضرره، حتى لم يمكن دفعه)). وعوضاً عن أن تتحد قواهم فى مواجهة عدو مشترك تشتتوا وتقاتلوا، حتى ضعفت عزائمهم، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات جيوش الممالك النصرانية. وكانت حروبهم الداخلية سبباً فى أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين، مغلِّبين بذلك المصالح الخاصة على المصلحة الإسلامية

---

(١) راجع : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٤٨٣-٤٨٤.

الواحدة، وبالتالى التحالف مع أعدائهم ضد إخوان العقيدة وشركاء الحضارة والمصير، مما أتاح الفرصة للممالك النصرانية أن يبدأوا – من هذا العصر الشاذ – رحلة حروب الاسترداد الطويلة الكئيبة.

وفى ضوء هذا فإن هؤلاء الأمراء والملوك، وهذه الإمارات والممالك الطائفية التى ورثت الخلافة الأموية فى الأندلس تتحمل الوزر الأكبر فى وضع بذور السقوط. ولقد صدق ابن الشباط التوزرى (المتوفى ٦٨١هـ) حين قال ((إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا. وإنما خذلهم التحاسد، وفرط الخلاف، والتباغض، وقلة الإنصاف))[١].

٦- **كثرة الثائرين والمتمردين**، نتيجة غياب العدل (فى بعض الفترات) وغياب المؤسسات الكفيلة بتحقيق المساواة بين الجميع. وقد وجدت هذه الثورات فى العصر الأموى كله، وخاصةفى فترة الطوائف الأولى (التى اصطلحنا على تسميتها بالفتنة الكبرى) فى عهد الأمراء الثلاثة (٢٣٨ – ٣٠٠ هـ) محمد بن عبد الرحمن، وابنيه المنذر وعبد الله. ويكفى للاستدلال على تأثير هذه الثورات التخريب الذى أحدثته ثورة عمر بن حفصون بين عامى (٢٦٥-٣٠٥هـ) ثم أولاده من بعده إلى (سنة ٣١٦هـ) حين استولى عبد الرحمن الناصر على قلعة "ببشتر" والجنوب كله. وهى القلعة التى كان يتحصن بها ابن حفصون طيلة حروبه مع السلطة الأموية[٢]. وقد كثرت الثورات فى عصر الطوائف الثانى (بعد سقوط الخلافة الأموية)، وفى أواخر دولة بنى الأحمر ملوك "غرناطة"، حيث كثرت الحروب الداخلية والتنافس على حكم المملكة.

٧- وهناك عامل جغرافى يتمثل فى بعد الأندلس عن بلاد المسلمين فى المشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها، إلا ما كان من دول شمال إفريقية عند الاستنجاد بها فى مرحلة الخطر، كالمرابطين، والموحدين، وبنى مرين. ولعل ذلك يفسر رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ فقد كان يرى أن يعود المسلمون منها لانقطاعهم وراء البحر عن إخوانهم[٣]. وهذا العامل الجغرافى – وإن لم يكن ذا تأثير كبير فى فترة القوة

---

(١) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس (نص ابن الشباط) ص ٧٤.   (٢) راجع ما ذكرناه عن ذلك (ص٨٠-٨٣)
(٣) راجع عن ذلك (ص٤٥)



(قبل عصر الطوائف) فإنه كان بعيد الأثر فى غربة الإسلام بشبه الجزيرة الإيبيرية فى الفترة الأخيرة من عصر مملكة غرناطة.

٨- ومن العوامل التى ساعدت على السقوط أن المسلمين فى الأندلس كانوا بإزاء أمة مقاتلة تعتبر من أكثر شعوب أوروبا تعصباً للمسيحية، وهم الأسبان الذين سيطر عليهم هدف واحد، هو إخراج المسلمين من شبه الجزيرة بأى وسيلة، والثأر لهزائمهم منهم[1]. ومن الوسائل التى سلكوها للوصول إلى هذا الهدف:

أ - العمل على تفريق كلمة المسلمين وضرب بعضهم ببعض، حتى تذوب معالم العقيدة الجامعة بينهم.

ب- العمل على وحدة الممالك النصرانية بموازرة من الدول الأوروبية، خشية من الزحف الإسلامى حتى لا يسيطر على بقية أوروبا. وقد كان اتحاد مملكتى "قشتالة" و"أرجون" هو التتويج العملى النهائى لجهود الوحدة.

ج- الغدر الدائم بالعهود والمواثيق، واعتبارها مرحلة تمليها الظروف، وفى خلالها يتم اتخاذ إجراءات وضغوط من شأنها إضعاف الطرف المسلم، والتمهيد للوثبة التالية. وكتب التاريخ الأندلسية مليئة بذكر هذا السلوك فى علاقات إسبانيا النصرانية مع الأندلس الإسلامية.

٩- ومن الأمور التى حدثت فى زمن بنى الأحمر ملوك غرناطة وساعدت على السقوط: سوء تصرف بعض حكامهم، والشذوذ فى تصرفاتهم، والانشغال بالنزاعات وصرف الجهود فى الخصومات، ومن ذلك:

أ- المعاهدات السرية التى كانت تُبرم مع الممالك الشمالية، وأكثر ما كانت تتضمنه التنازل عن الكُور والقلاع، والتعاون معهم ضد المسلمين. وقد تجلى ذلك فى ملوك غرناطة - بخاصة ولاسيما فى العصر الأخير.

ب- خيانة بعض العائلات المعروفة فى مملكة غرناطة، مثل عائلتى "بنى سراج" و"بنى أشقيلُولة" التين استمرتا على تواطؤهما مع نصارى الشمال ضد عائلة بنى نصر حكام غرناطة.

---

(١) د. لطفى عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص١٣.

ج- قيام بعض أمراء بنى نصر برهن أبنائهم لـــدى ملـــوك النصـــارى مقـــابل الوصول إلى الحكم. وقد شكل هذا السلوك ضغطاً شديداً، وأدى إلى التســـليم بامتيـــازات كثيرة للأعداء.

د- أدى طموح الوزراء فى السلطة واستبدادهم بها الى قيام الوزير خالد (وزيـــر السلطان يوسف الثانى ٧٩٣-٧٩٧هـ) بقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة: ســـعد ومحمـــد ونصر، حبا فى السلطة دون وازع من دين أو خلق .

هـ- ويُعدُّ عقوق الأبناء للآباء فى دولة بنى نصر من أهم أسباب السقوط . ومن ذلك عقوق الأمير أبى الحسن (على بن سعد ٨٦٩-٨٨٧هـ) لوالده سعد بن على (٨٦٠-٨٦٩هـ) وقيامه بخلعه، تحقيقا لمؤامرة (بنى سراج) الطامحين فى الحكم، مما أدى إلـــى تدخل ملوك النصارى فى شئون البلاد.

وهذا لا يعنى أن والده (سعد بن على) كان مخلصا، فقـــد وصـــل إلـــى الحكـــم بمساعدة ملك قشتالة: هـــنرى الرابـــع (٧٨٩هـــ =١٤٧٤م) وبمعاونـــة بنـــى ســـراج (سنة٨٥٩هـ). كما أنه قدم ابنه أبا الحسن (على) وسبعين فارسًا رهينة للملـــك القشـــتالى (هنرى) ليساعده ضد محمد (الحادى عشر) سلطان غرناطة الشرعى. وبناء على هذا فقـــد وضع هنرى الرابع لجيشه خطة تُفْضى إلى تدمير قرى المسلمين الحيوية. وقـــد اســـتمر ثلاثة أسابيع فى حرق القرى والمحاصيل الزراعية من أجل إفقار غرناطة وسلطانها علـــى المدى الطويل، وكل ذلك بسبب حماقة سعد بن على واستعانته بملوك قشتالة.

و- ومن نتائج ضعف العقيدة والإيمان: فتور الغيرة والـــولاء للإســـلام وهبوط الشعور الإسلامى العام. ومن أمثلة ذلك فى دولة بنى نصر: إرسال أبى عبد الله الصغـــير [الحادى عشر: ٨٨٧-٨٨٩هـ(الولاية الأولى) – (٨٩٢-٨٩٧هـ) (الولايـــة الثانيـــة)] تهنئة لملك قشتالة بمناسبة استيلائه على مدينة "مالَقة" الإسلامية، كمـــا أن جيـــوش ملـــك قَشْتالة استولت على قرطبة (فى شوال ٦٣٣هـ) بمساعدة فرقة أرســـلها ابـــن الأحمـــر (مؤسس مملكة غرناطة ٦٣٥-٦٧٧هـ)، وتنازله عن "دَانِية" و"أُرْجُونة" و"جَيَّان" و"قلعـــة جابر" و"أرض الفَرَنْتِيرة" ومن أخطائه الشنيعة أيضاً مساعدته للقشتاليين عنـــد اســـتيلائهم على "إشبيلية". وقد سقطت حول "إشبيلية" عشرات المدن والقـــرى الصغـــيرة دون قتـــال بفضل تدخل ابن الأحمر، ومنع هذه المدن والقرى من القتال بدعوى عدم جدوى المقاومة.

١٠- التكاثر المادى وتبديد طاقة الأمم فى بناء القصور المترفة ووسائل الزينة والراحة والدَّعة. ونذكر هنا (زهراء) الناصر، و(زاهرة) ابن أبى عامر، و(حمراء) بنى الأحمر فى غرناطة. وهى مجرد أمثلة.(١).

لقد كان إسراف بنى أمية وبنى عامر فى مشروعاتهم العمرانية والحربية من العوامل التى أثرت فى علاقاتهم مع نصارى الأسبان، وأدت إلى انهيار دولتهم، وترتب على ذلك انفراط عقد الوحدة الأندلسية. وقد قام بعض الفقهاء للتحذير من هذا الإسراف(٢). لكن حكام ذلك العصر لم يلتفتوا إلى ذلك، وقاموا ببناء مدنٍ وقصور إرضاءً لحظيَّة من الحظايا، أو تخليداً لاسم محبوب، كما استنفدت حروبهم العديدة المستمرة فى شمال إسبانيا وفى شمال إفريقية جانباً كبيراً من دخل الدولة، وأجهدت قواها، وترتب على ذلك نتيجة فى منتهى الخطورة؛ ذلك أنه – فى عصر ملوك الطوائف – كان لا يمكن لهؤلاء الملوك أن يحصلوا على مثل تلك الأموال الطائلة للقيام بمشروعات حربية مماثلة ضد نصارى الشمال الإسبانى، بسبب تفتت البلاد، وتعدد الخزائن التى تُجبى إليها الأموال بتعدد الملوك. ومن هنا أتى العجز الشامل الدائم، والضعف المستمر أمام القوى الشمالية فى (قشتالة) و(ليون) و(نبرَّة) و(أرغون) (وبرشلونة). وهذا الضعف الاقتصادى والعجز المالى يفسر لنا سراً من أسرار سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس (عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)(٣).

ومع تقديرنا لكل الأسباب الداخلية والخارجية التى لا يمكن تجاهلها والتى أدت في النهاية الي سقوط الأندلس، ومع أننا نؤمن بأن أسباب كثيرة تتفاعل – وقد تفاعلت فعلاً فى حالة غرناطة – كى تصل بالدولة أو الأمة إلى السقوط، ولا يكفى سبب واحد مادى أو معنوى لسقوط الأمة أو الحضارة. ومع أننا نؤمن بأن سقوط غرناطة كان حصاد عوامل كثيرة من أبرزها نسيان العقيدة والرسالة الدينية التى قامت عليها الأندلس وانتصر بسببها جيش الفتح المكون من أخلاط من البشر الذين لا توحدهم إلا العقيدة، ولم يكن يزيد

---

(١) للدكتور عبد الحليم عويس رسالة بديعة بعنوان (التكاثر المادى وأثره فى سقوط الأندلس (ط دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٩٤م).

(٢) قصة القاضى المنذر بن سعيد البلّوطى مع عبد الرحمن الناصر الذى بنى مدينة الزهراء – راجع نفح الطيب ج١/ ص ٥٧٠ – ٥٧٤.

(٣) راجع: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية, للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص٤٨٦-٤٨٧.



عددهم عن(عُشر) الجيش النظامي الذي يقاتلونه, فضلاً عن ضآلة إمكاناتهم التي قاتلوا بها تحت قيادة القائد المسلم البربرى طارق بن زياد – نقول: مع أننا نأخذ كل ذلك فى تقديرنا إلا أننا نعتقد أن (التكاثر المادي) والتكالب على وسائل الترف من قصور ومدن ملكية وأساليب فنية وترفيهية تزيد عن الحدود التى رسمها الإسلام وتستنزف طاقة الأمة، وتصبغ الحياة بصبغة مادية ناعمة مترفة، نعتقد أن هذا السبب – بكل آثاره السلبية والمعنوية – كان من أقوى الأسباب فى سقوط غرناطة، والأندلس كلها، وقد ظل هذا السبب يعمل عمله فترات طويلة حتى أصبحت المادة مسيطرة على منهج الحياة، متجاهلين صناعة الإنسان وفاعلية العقيدة، ومعانى الأخوة الإسلامية، وواجبات الإنسان المسلم الحضارية تجاه الإنسانية كلها.

ومن منطلق طغيان هذا الاتجاه ازدرى الأندلسيون إخوانهم "المرابطين" عندما ساعدوهم، وحكموا بلادهم، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم فى ظل تفككهم وهوانهم على أعدائهم، وتآكلهم وانحلالهم على أنهم أرقى حضارة من "المرابطين" (البدو)، ومن ثَمَّ كانوا يستثقلونهم، ويشعرونهم بالإهانة، وهم لا يدرون أنهم – بهذا – يهدمون قيم الأخوة الإسلامية، وينظرون إلى الحضارة من منظور المدنية المادية وحدها.

وفى الأيام الأخيرة لغرناطة كانت هذه الآفة المادية قد باضت وأفرخت وأصبحت فلسفة وهدفاً، فلهذا – ومع تقديرنا لكل عوامل السقوط – لم تسقط غرناطة بالحرب فقط بل سقطت – وبدرجة كبيرة – لسيطرة هذا العامل المادى على منهج الحياة(١).

وخلاصة القول: إن ضعف الفقه الحضارى، وغياب الوعى بسنن الله تعالى فى الحياة، التى تحكم حركة المجتمعات وتقدُّم الأمم أو سقوطها كانا وراء انحدار الأمور فى الأندلس على مستوى الحكام والمحكومين. وكلا الطرفين يتحملان تبعة هذا السقوط. وصدق الله العظيم إذ يقول **(ذلك بأنَّ اللهَ لم يكُ مُغيِّراً نِعْمةً أنْعَمها على قَوْمٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسِهِمْ، وأنَّ اللهَ سميعٌ عليمٌ)** (٢) .

***

---

(١) راجع: د. عبد الحليم عويس: أربعون سبباً فى سقوط الأندلس ص٢٩ – ٣١ (ط دار الصحوة للنشر ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٥٣).

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم.

ثانياً : المصادر القديمة.

١- **الإحاطة فى أخبار غرناطة** – لابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م): أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله السلمانى المعروف بلسان الدين بن الخطيب / الشركة المصرية للطباعة والنشر: الخانجى / القاهرة /ط٢ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

٢- **أخبار مجموعة فى فتح الأندلس** – لمؤلف مجهول / نشره دون لافونتى / مدريد ١٨٦٧م.

٣- **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** – لأبى العباس أحمد بن خالد الناصرى. الدار البيضاء ، ١٩٥٤م.

٤- **الاستيعاب فى معرفة الأصحاب** – لأبى عمر يوسف بن عبد العزيز النمرى القرطبى (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) – مكتبة نهضة مصر ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٥- **أعمال الأعلام فى من بُويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام** – لسان الدين بن الخطيب السلمانى الغرناطى (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)/ تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال / دار الكشوف، بيروت، لبنان/ط٢ (١٩٥٦م).

٦- **بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس** – لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى الأندلسى (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م) – سلسة تراث المكتبة الأندلسية (رقم ٦) – دار الكاتب العربى، لبنان ١٩٧٦م.

٧- **البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (خمسة أجزاء)** – لأبى عبد الله محمد المشهور بابن عِذارى المَّراكشى / حققه بروفنسال وآخرون – دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.

٨- **تاريخ افتتاح الأندلس** – لأبى بكر عبد العزيز بن إبراهيم الأندلسى، المعروف بابن القُوطية / دار الكتاب المصرى بالقاهرة، دار الكتب الإسلامية، بيروت ط١



(١٩٨٢م)/ بتحقيق إبراهيم الأنبارى / وطبعة أخرى بتحقيق عبد الله أنيس الطبـــاع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٨م.

٩- **تاريخ الأندلس لأبى مروان عبد الملك بن الكردبوس التّوزرى / (نــص ابــن الشباط)** - تحقيق د. أحمد مختار العبادى، (مجلة معهد الدراسات الإسلامية – مدريد ١٩٧١م.

١٠- **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس** – لأبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى الأندلسى، المعروف بابن الفرضى (ت٤٠٣هـ/١٠١٢م) / مكتبة الخـــانجى بالقاهرة / ط٢ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

١١- **تاريخ قضاة قرطبة** – لأبى عبد الله محمد بن الحـــارث بـن أسـد القـيروانى (ت٣٦١هـ)/الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

١٢- **ترتيب والمدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** – لأبى الفضـل عياض بن موسى اليحصبى السـبتى (ت ٥٤٤هـــ/١١٤٩م) – دار مكتبـة الحياة، بيروت، لبنان، ودار مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، ١٩٦٥م.

١٣- **التكملة لكتاب الصلة** – لأبى عبد الله محمد بن عبد اله بنأبى بكر القضــاعى البلنسى المعروف بابن الأبَّـار (ت ٦٥٨هـــ/١٢٦٠م) – مكتبـة الخـانجى بالقاهرة والمثنى ببغداد ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

١٤- **جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس** – لأبى عبد الله محمد بن أبى نصــر ابن حميد الأزدى الأندلسى (ت٤٨٨ه/١٠٩٥م)/ سلسة المكتبة الأندلسية (رقـم٥) – مطبعة نهضة مصر، القاهرة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م). بتحقيق إبراهيم الإبيارى.

١٥- **جمهرة أنساب العرب** – لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد الأندلسى المعــروف بابن حزم (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)/ دار المعارف بالقــاهرة (١٣٨٢هـــ/١٩٦٢م)، بتحقيق عبد السلام هارون.

١٦- **الحلة السيراء** – لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنســى المعروف بابن الأبــار (ت٦٥٨هـــ/١٢٦٠م) – دار المعــارف / ط٢ (١٩٨٥م) بتحقيق د. حسين مؤنس.

١٧- **الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب** – لبرهان الدين إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون اليعمرى المالكى (ت٧٩٩هـ/١٣٩٦م) – ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (فى مجلد) – وطبعة أخرى (فى مجلدين) – مطبعة دار النصر، ودار التراث للطبع والنشر ١٩٧٢م، بتحقيق محمد الأحمدى أبو النور.

١٨- **الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة** – لأبى الحسن على بن بسّام الشنترينى الأندلسى (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) – دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط٢ (١٣٣٩هـ/١٩٧٩م)، بتحقيق إحسان عباس.

١٩- **الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة** – لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م) – دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٥م بتحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة.

٢٠- **الروض المعطار فى خبر الأقطار** = أنظر :صفحة جزيرة الأندلس.

٢١- **الصلة** – لأبى القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسى (ت٥٧٨هـ/١١٨٢م) – سلسلة المكتبة الأندلسية (رقم٤) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

٢٢- **طبقات الأطباء والحكماء** – لأبى داود سليمان بن حيان الأندلسى المعروف بابن جُلْجُل (ت بعد ٣٧٧هـ/٩٨٧م) – مطبعة العهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥م. بتحقيق فؤاد السيد.

٢٣- **طبقات الأمم** – لأبى القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٠م)- المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين / بيروت ١٩١٢م.

٢٤- **طوق الحمامة** – لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) – مكتبة عرفة، دمشق ١٣٤٩هـ.

٢٥- **العبر فى خبر من غَبر** – لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى الدمشقى (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م) – ط الكويت.

٢٦- **العبر (تاريخ ابن خلدون)** – لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) –



٢٧- **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** – لأبى العباسى أحمد القاسم بن خليفة الدمشقى المعروف بابن أبى أُصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) – دار مكتبة الحياة، بيروت، تحقيق نزار رضا.

٢٨- **فتوح مصر والمغرب** – لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى (ت٢٥٧هـ/ م) – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، بتحقيق شارلز تُورّى.

٢٩- **الكامل فى التاريخ** – لمحمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى، ابن الأثير الجزرى (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) – دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٣٠- **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (المعروف بتاريخ قضاة الأندلس)** – لأبى الحسن عبد الله بن الحسن النباهى المالقى (ت ٧٩٣هـ/١٣٩٠م) – ط المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. بدون تاريخ.

٣١- **المعجب فى تلخيص أخبار المغرب** – لأبى محمد عبد الواحد بن على التميمى المراكشى (ت٦٢١هـ/١٢٢٤م) – مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٩م.

٣٢- **معجم الأدباء** لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى.(ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) – دار المأمون، القاهرة ١٩٣٦م.

٣٣- **المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب** لعلى بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) – دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م بتحقيق د. شوقى ضيف.

٣٤- **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** – لأبى مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م).

- قطعة (أحداث سنة ٢٣٢ – ٢٦٧هـ) – بتحقيق د.محمود على مكى – دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- قطعة (أحداث سنة ٢٧٥ – ٣٠٠هـ) – تحقيق د.إسماعيل العربى – منشورات دار الآفاق الجديدة بالمغرب ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

- قطعة (أحداث سنة ٣٠٠ – ٣٣٠هـ) – نشر هابدوو شالميتا – المعهد الإسبانى العربى للثقافة، كلية الآداب بالرباط – ومدريد ١٩٧٩م.
- قطعة (أحداث سنة ٣٦٠ – ٣٦٤هـ) – تحقيق د.عبد الرحمن الحجى – دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.

٣٥- **مقدمة ابن خلدون** (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥): عبد الرحمن بن محمد بن خلدون/ بتحقيق د.على عبد الواحد وافى/ لجنة البيان العربى، ١٤٨٤هـ/١٩٦٥م.

- **المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس** – لأبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى، ابن أبى دينار ط تونس ١٩٦٧م.

٣٦- **نفح الطيب من غُصن الأندلس الرَّطيب** – لأحمد بن محمد بن أحمد المقّرى التلمسانى (ت١٠٤١هـ/١٦٣٢م) – دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، بتحقيق د.إحسان عباس.

٣٧- **وفيات الأعيان** – لأبى العباس أحمد بن إبراهيم بن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٧م) – دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. بتحقيق إحسان عباس.

<u>ثالثاً : المراجع الحديثة</u>

٣٨- **الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة** – للدكتور أحمد هيكل – ط دار المعارف، القاهرة – الطبعة الثامنة ١٩٨٢م.

٣٩- **الإسلام فى إسبانيا** – للدكتور لطفى عبد البديع / مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

- أطلس التاريخ افسلامى – للدكتور حسين مؤنس.

٤٠- **الأندلس فى التاريخ** – للدكتور شاكر مصطفى/منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٠م.

٤١- **أندلسيات** – للدكتور عبد الرحمن الحجى / المجموعة الأولى، ط بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

٤٢- **التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى إلى سقوط غرناطة** (٩٢ – ٨٩٧هـ) – للدكتور عبد الرحمن الحجى/ دار التعلم، دمشق، الطبعة الخامسة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٤٣- **تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط** (الجزء الثانى: البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس) – للدكتور السيد عبد العزيز سالم، دكتور أحمد مختار العبادى – مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣م.

٤٤- **تاريخ الفكر الأندلسى** – آنخل جُنْثالث بالنثيا / ترجمة د.حسين مؤنس – مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٤٥- **تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس مّن الفتح حتى سقوط الخلافة بقرطبة** – للدكتور السيد عبد العزيز سالم – مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ.

٤٦- **تاريخ النصارى فى الأندلس** – للدكتور عُبادة كُحيلة – ط القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٤٧- **تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية** – للأستاذ محمد عبد الله عنان/مكتبة الخانجى، القاهرة الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ/١٩٨٠م.

٤٨- **التطور السياسى للمغرب من الفتح الإسلامى إلى آخر القرن العاشر الهجرى** – للدكتور طاهر راغب حسين/ط القاهرة ١٩٩٤م.

٤٩- **ثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية** (١٣٨-٣٦٦هـ) – للدكتور حمدى عبد المنعم محمد حسين / مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٩٣م.

٥٠- **جغرافية الأندلس وأوروبا** (منتخب من كتاب : المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى ت ٤٨٧هـ) انتخاب وتحقيق د.عبد الرحمن الحجى/ط بيروت ١٣٧٨هـ/١٩٦٨م.

٥١- **الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر الطوائف** – إلبير حبيب مطلق/ط المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٦٧م.

٥٢- **دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة** – للدكتور الطاهر أحمد مكى – دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.

٥٣- **دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس** – للدكتور أحمد مختار العبادى /ط مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ.



٥٤- **دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس** – للدكتور حسن على حسن، والدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح /مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٩٨م.

٥٥- **دولة الإسلام فى الأندلس** – للأستاذ محمد عبد الله عنان (موسوعة فى سبعة أجزاء) – مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٥٦- **السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية فى العصر الأموى (١٣٨-٤٢٢هـ)** – للدكتور حسين يوسف دويدار/ مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٥٧- **صفة جزيرة الأندلس** (منتخب من : الروض المعطار فى خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميرى المتوفى حوالى ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) – نشره ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧م.

٥٨- **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف** – للدكتور رجب محمد عبد الحليم/ط دار الكتاب المصرى، القاهرة، بدون تاريخ.

٥٩- **فجر الأندلس** – للدكتور حسين مؤنس/ط القاهرة ١٩٥٩م.

٦٠- **فى تاريخ المغرب والأندلس** – للدكتور أحمد مختار العبادى / مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية ١٩٨٥م.

٦١- **قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى): الحياه الاقتصادية والاجتماعية** – للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف – ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

٦٢- **القضاء فى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى** – للدكتور على أحمد / ط دار حسان، دمشق ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٦٣- **معالم تاريخ المغرب والأندلس** – للدكتور حسين مؤنس/ ط القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٦٤- **المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى (١٣٨-٤٢٢هـ)** – للدكتور يوسف دويدار – مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٦٥- **المسلمون فى الأندلس** – للدكتور عبد الله جمال الدين (الجزء السابع من موسوعة سفير للتاريخ الإسلامية فى عشرة أجزاء) – القاهرة ١٩٩٦م.

٦٦- **المسلمون فى الأندلس** – رينهرت دوزى – ترجمة د.حسن حبشى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٦٧- **موسى بن نُصير مؤسس المغرب العربى** – للدكتور إبراهيم العدوى – دار الكاتب العربى، القاهرة ١٩٦٧م.

رابعاً : الرسائل العلمية والبحوث المنشورة فى الدوريات العلمية المتخصصة:

٦٨- **الإسلام فى أرض الأندلس** - بحث للدكتور أحمد مختار العبادى، منشور بمجلة عالم الفكر، عدد خاص بعنوان "دراسات إسلامية".

٦٩- **البحرية العربية فى الأندلس منذ بداية تأسيسها إلى عهد الخليفة الناصر** بحث لمحمد عبد العزيز عثمان – مجلة المورد، المجلد الثانى عشر، العدد الرابع ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٧٠- **التشيع فى الأندلس** – بحث للدكتور محمود على مكى، بمجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية. بمدريد، المجلد الثانى ١٩٥٤م.

٧١- **الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين:** دراسة فى الحياة العلمية (رسالة دكتوراه) – من إعداد: طه عبد المقصود عبد الحميد، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٩٨م.

٧٢- **سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس** – بحث الدكتور أحمد مختار العبادى – مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد – المجلد الخامس ١٩٥٧م.

٧٣- **نُظُم وإدارة بنى أمية بالأندلس من خلال (المقتبس) لابن حيان** – للدكتور التهايى الراجحى الهاشمى/مجلة (المنهل) عدد ٢٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

٧٤- **نفوذ الصقالبة فى الأندلس فى عصرى الإمارة والخلافة: (١٣٨-٣٦٦هـ)** – بحث للدكتورة وفاء عبد الله سليمان (قدوة: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات) – مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٩٣م.





الفهرست

الحمد لله، وصلى الله على محمد وآله وسلم.